

السيرة النبوية

محمد رسول الله  
والذي معه

---

هاجر المصطفى إلى مكة

عبد المحمّد بن حوارة النخار



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ  
وَالْإِنْجِيلَ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ . هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ  
بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تَحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .  
مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ  
الْمُشْرِكِينَ . لِذُنْ أُولَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ  
آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

( قرآن كريم )

( إِنْ أَبَاكُمْ إِسْمَاعِيلَ أَوَّلَ مَنْ ذَلَّلَتْ لَهُ الْخَيْلَ الْعَرَابَ فَأَعْتَقَهَا  
وَأَوْرَثَكُمْ حَبِهَا )

( حديث شريف )

مدينة منف ، العرش العظيم ، مخازن الغلال المقدسة .. تقدست  
 مذ غرق في فيضانها أزريس إله الخضرة والخصب . منف سيدة كل  
 الحياة من استمدت مصر منها حياتها . منف التي تدخل السرور على  
 قلوب الآلهة في بيت رب الأرباب « بتاح » العظيم . منف المتألفة أبداً  
 بالبهجة والسرور رانت عليها الكتابة وارتسم على محياها الوجوه ونزل  
 بقلبيها حزن ثقیل ؛ فقد سقطت « عين شمس » في أيدي الهكسوس ،  
 وطرد كهنتها من معابدهم ، وتعطلت فيها عبادة « رع » إله الشمس ،  
 وفرضت على الناس عبادة « ست » الإله الشرير !

سقطت عين شمس في أيدي الغزاة ، ودنس المدينة المقدسة فلن  
 تصير بعد اليوم مكان ولادة كل إله !

وراح الناس ييذرون الحبوب ويحصدون الغلال ويسوقون الماشية  
 شاردي الأبواب ، وفي عيونهم قلق وفي صلورهم ضيق ، يكادون أن  
 تنفجر جنوبهم من الغيظ ، فقد بات أعداء البلاد على بعد فراسخ  
 قليلة . إنها كرة واحدة ثم تسقط منف العظيمة في أيدي الغزاة غلاظ  
 القلوب الذين وثبوا على الملك واستولوا عليه لما دب الضعف في  
 قصور الفراعين .

وفي حوانيت التجار ومصانع النحاس وأماكن صنع الفخار ، وفي  
 الأسواق والدور والقصور ، كانت الأحاديث تدور حول الخطر

المتربص بمنف الذى سيطبق عليها من الشمال من عين شمس ، حيث  
يتأهب العدو للزحف على قلب البلاد ، العرش العظيم !

وراح الجنود يهرعون من كل مكان فى منف إلى الحدود  
الشمالية ، إلى حصن الجدار الأبيض ، وراح أمير منف يجرس خلال  
جنوده يحمسه بأفضل ما فيهم ويدعوهم للاستماتة فى الدفاع عن  
شرفهم وشرف أرضهم وشرف إلههم « بتاح » العظيم .

وامتلأت معابد بتاح الصانع الأعظم خالق العالم ، بالكهنة الذين  
راحوا يحرقون البخور ويرتلون :

« إن النار تُهَيأ والنار تضيء .

إن البخور يوضع على النار والبخور يضيء .

وشذاك يأتى للآلهة يأيها البخور .

وشذا الآلهة يأتى إليك يأيها البخور .

إننا معكم يا آلهة .

وأنتم معنا يأيها الآلهة .

إننا نحبكم يأيها الآلهة .

فأحبونا يأيها الآلهة » .

وراح بعضهم يقدم القرابين لتمثال الإله « بتاح » ويتهل :

« إلهنا بتاح العظيم !

يا قلب الآلهة ولسانهم .

أيها العقل المدبر .

يا من سكنت كل صدر على هيئة القلب ،

وكل فم على هيئة اللسان .

يا قلب جميع الآلهة والستهم .

يا قلب كل الناس والستهم .

يا قلب كل الدواب والزواحف وكل الأحياء .

يا من تفكر فيما تشاء .

وتفعل ما تريد .

يا من في فمه كل الآلهة .

ونطق بأسماء كل الأشياء .

إن الآلهة جميعا إن هم إلا صورك ، وما خلقوا بصر العين وسمع  
الآذان وتنفس الأناف إلا لتصل جميعا إليك ، فأنت قلب كل شيء .  
يا من خلق إله الشمس ، وأوجد الآلهة جميعا وصورهم ونحت  
تماثيل لأجسامهم كما نهوى قلوبهم ، ليحلوا في أجسامها المصنوعة  
من كل نوع من الخشب ومن كل صنف من المعادن ومن كل نوع من  
الطين .

يا من تفوق قوى الآلهة جميعا .

انصرنا على أعدائنا وأعدائك .

إن نهزم غدا فلن تعبد في منف ، ولن يدخل السرور بعدها على  
قلوب الآلهة الذين في بيتك .

ووقف بعضهم عند تمثال أوزيريس الذى يرقد فوق الأرض وقد نبت  
القمح من جسده . وارتفع البخور حتى كاد يحجب تمثال إله الخضرة  
والخصب ، وأخذوا يتهلون في حرارة :  
« يا أيها الإله الطيب .

يا أوزيريس يا بن نوت إلهة السماء .

يا من ينبع النيل من عرق يديك .  
بل أنت النيل حقا ، عظيم فى الحقول فى باكورة الفصول .  
إن الآلهة والناس يعيشون بالندى الذى فىك .  
إنك تنفث الهواء من فمك الطاهر إلى أناف الناس ، فتهب القداسة  
لما يعيش عليه الناس .  
يا من توجد فى أنفك الشجرة وخضرتها ، والأعشاب والنباتات  
والشعير والقمح وشجرة الحياة .  
أنت الحياة الدائمة التى لا تعرف الفناء .  
يا من هزم أعداءه وذبح مناهضيه بساعد قوى ، وجعل خوفه يذب  
بين خصومه .  
يا من كان أخوك « ست » يرتجف منك رعبا ، وإن كان قلبه  
يفيض بالطمع فى عرشك .  
لم يجرؤ يوما على أن يقف فى وجهك فاغتالك غدرا .  
وأخذت أختك وحببتك المخلصة إيزيس تنقب عنك وهى تبكى  
أحر البكاء .  
حتى إذا ما عثرت عليك اضطجعت إيزيس المخلصة معك أيها  
السيد ، واحتضنتك فوضعت فيها — وأنت ميت — حور ، وريتك  
الذى تغذى بالإخلاص لك .  
واشتد ساعده وكان أول ما فعله أن ثار لك من أخيك الشرير  
« ست » .

فإن كان « ست » قد هزم « رع » فى عين شمس ، فإننا سننتقم  
من « ست » فى منف ، العرش العظيم ، كما انتقم منه حور الوفى

الأمين .

يا أيها الإله الطيب .

يا من قمت من الأموات .

يا من ورتت « جب » إله الأرض الذى أسلمك قيادة البلاد لتسير بها  
فى طريق الرشاد ، ووضع فى قبضتك هذه الأرض وماءها وهواءها  
وخضرتها وكل ما يدب عليها ويرفرف فى سماءها ويسبح فى مائها ،  
أيدنا بنصرك وأرسل معنا « حور » المتقم لأبيه ليهزم « ست » كما  
هزمه من قبل .

يا أيها الإله الطيب .

أيدنا بنصرك حتى لا يعبد « ست » الشرير فى العرش العظيم ، فى  
مخزن الآلهة ، وفى منف التى تقدست يوم امتزجت فى مائها  
الجديد ، فى فيضانها المبارك .

كانت الابتهالات حارة والأمل فى النصر يداعب قلوب كهنة  
منف ، فإن كان الهكسوس قد انتصروا على عين شمس بتأييد الإله  
« ست » فإنهم يأملون النصر بتأييد بتاح الذى خلق الآلهة جميعا ،  
وتأييد حور الذى انتقم بأبيه وأذاق « ست » ذل الانكسار .

وعلى مقربة من المعبد كان البيت الكبير قصر أمير منف ، وكان من  
اللبن المجفف فى الهواء ، له باب ضخمة زينة برسوم فرعونية زاهية  
الألوان ، خلف الباب فناء على جانبيه تماثيل أبى الهول تزينة أعمدة  
البردى ، وراح الخدم ينظفون أرض الفناء ويتحدثون عن أمير القصر  
الذى خرج للدفاع عن منف .

وفى حديقة القصر قام جوسق تزينة أكاليل الزهور ، أمامه بحيرة



كبيرة تسبح فيها الأسماك وتنبث في مياهها أزهار اللوتس ، وعلى جوانب البحيرة غرست نباتات مختلفة الأنواع ، راحت الفراشات تهيم في الفضاء وتنتقل من زهرة إلى زهرة .

كان السكون يخيم على المكان والكون يتألق بالجمال ، بيد أن سيدة القطرين عظيمة الفضل عظيمة الرشاقة كانت تجلس في الجوسق بأسرة الوجه تكاد تتمزق في الغيظ ، وكانت تجلس قبالتها وصيفتها ترنو إليها في عطف وإشفاق .

كانت الأميرة هاجر شابة جميلة سمراء عيناها سوداوان واسعتان تنفشان سمحرا ، ترتدى ثوبا بسيطا أبيض بلا ثيابا ولا زخارف ولا تهاويل يلتصق بجسمها التصاقا وينحدر من أسفل الثديين حتى رسفى القدم ، ويحمله شريطان يمران فوق الكتفين ، ويزين الحاملين زهرات تنتشر فوق الثديين لتحجبهما عن الأنظار .

هبت الأميرة هاجر واقفة وقالت في ثورة :

— لو كنت أعرف أين الإله لقدمت إليه قربانا .

وهرعت إليها وصيفتها وقالت في خوف :

— مولاتى إن الآلهة في معابدها ترعانا .

— أمى نائمة ! أهى عنا غافلة ؟ إنه لا بأس لها يرى .

— مولاتى رفقا بنفسك ، إن بتاح العظيم لن يتخلى عنا وسينصرنا

على أعدائنا .

ونظرت هاجر إلى وصيفتها نظرة قلقة مفعمة بالشك وقالت :

— أليس بتاح هو إله الأرض ؟

— بلى يا مولاتى .

— كيف سمح إذن أن يطأه الغزاة بأقدامهم ؟ كيف قبل أن يدنس الهكسوس وجهه ؟

ولاح في وجه الوصيعة فرع وقالت وهى تتلفت فى خوف :  
— مولاتى ! إن بتاح العظيم لم يبطش بالمعتدين لأنه محب للسلام .

— أيقبل هذا العار ؟ أيقبل قلب الآلهة ولسانهم ، العقل المدبر للكون ، من يأمر بما يريد ، أن يطرد من معبد ليعبد فيه ست ! ليت الناس يفنوا فلا حمل ولا ولادة ، ليت السماء تنطبق على الأرض قبل أن يحيق بنا هذا الدل .

وراحت هاجر تغدو وتروح فى قلق والغضب فى عينيها ، ثم التفتت إلى وصيفتها وقالت :

— لو انتصر الهكسوس علينا لكفرت بتتاح وبالآلهة جميعا .  
— مولاتى ! إن تخلت الآلهة عنا فيما قدمت أيدينا . إن من لم يكن يملك زوجا من الثيران صار الآن صاحب قطع ، ومن لم يكن يملك غلالا صار الآن صاحب صوامع من القمح . حقا إن السرور قد مات ولم نعد نذوقه ، ولم يعد فى الأرض إلا الأنياس الممزوج بالحشرات .

قالت هاجر فى يأس :  
— أنصت يا قلبى وانع الأرض التى فيها نشأت ، أكتبت الآلهة على العرش العظيم الخراب ؟ اذرفى الدمع يا عين وابكى سيدى وحبيبى ومولاى كما بكى إيزيس حبيبها أوزيريس .  
فخفت الوصيعة إليها وقالت :

— كفكفى يا مولاتى دموعك ، فمولاي هناك فى حصن الجدار  
الأبيض يشرف من أفقه على الكون .

— قلبى يحدثنى أنى لن أراه .

— إنه فى رعاية الآلهة وستنصره ، وتعود العدالة إلى مكانها ويغنى  
الظلم من الأرض .

— هنيئا لمن يرى ذلك اليوم .

ووقعت عينا هاجر على المقبرة الهائلة التى بناها الأمير لتكون  
مثواه ، فهاجت شجونها وعادت إليها مخاوفها وقالت :

— لو قتل مولاي لأقتل نفسى .

فالت الوصيفة فى إشفاق :

— مولاتى ارحمى نفسك ، فإن مولاي فى رعاية آباءه .

فعادت هاجر تقول فى إصرار :

— لأقتل نفسى ..

— أنت يا مولاتى شاة ، وحرام أن تقصى بيدك على هذا الجمال .

— لأقتل نفسى إن تخلت عما الآلهة .

— اطمئنى يا مولاتى فلى تتحلى عما آلهتنا .

وشردت هاجر وراحت تهمس كأنما تحاطب نفسها :

— إن فى الموت شفاء نفسى .

إنه كرائحة بحور مر ، أو كالجلوس تحت الشراع فى يوم اشتدت

ريحه .

إنه كأريج زهرة السوسن .

مثل مجرى الماء العذب ، مثل عودة المرء إلى داره بعد رحلة

مضنية .

إنه كسماء صفت بعد أن غامت بالسحاب .  
إن شوقي إليه كمشوق إنسان يتوق إلى بيته بعد أن أمضى سنين في  
الأسر . ترى أأجد رع في سفينة حقا عندما أذهب إلى هناك ؟!

— يعتقد المصريون أنهم الناس وحدهم .  
 ونظر سنان بن الأشل بن عُبيد ملك الهكسوس إلى رئيس وزرائه  
 وقال :

— ونحن ؟

قال رئيس الوزراء :

— أيسمح لى مولاي أن أقول ما يقوله المصريون فينا ؟  
 — قل .

— يقولون إنهم الناس وحدهم ، أما نحن فبرابرة قساة علاط  
 الأكباد .

وضحك الملك وقال :

— هذا رأيهم فينا فما رأيهم فى سائر البشر ؟

— إنهم يعتقدون أن الآلهة اصطفتهم وأحببتهم وهم وحدهم  
 الناس ، أما سائر الشعوب فمن نسل أعداء الآلهة ؛ فإنه عندما هرم الإله  
 رع أعداءه فى إدفو تمكن بعضهم من الهرب ، فمن فر منهم إلى  
 الجنوب كان منهم النوبيون ، ومن فر منهم إلى الشمال كان منهم  
 الآسيويون ، ومن هرب منهم إلى الغرب كان منهم الليبيون ، ومن  
 هرب منهم إلى الشرق كان منهم أسلاف البدو .

وساد الصمت برهة ثم قال الملك :

— إن المصريين يسخرون من قولى إنى ابن رع وإنى فرعون مصر  
لأنى لم أولد ولادة إلهية . حدثنى كيف يخرج الفراعين من صلب  
الآلهة ؟

— يعتقد المصريون أن اجتماعا يعقد فى السماء يعلن فيه الإله رع  
سائر الآلهة بقرب ولادة الملك الجديد ، فيقوم تحوت إله الحكمة  
والتاريخ ذو رأس الأيس بذكر اسم الملكة التى ستكون أما للحاكم  
المقبل ، وهى أجمل النساء جميعا .

— وإن لم تكن أجمل النساء جميعا ؟

— أليست آلهتهم بقادرة على أن تجعلها أجمل النساء جميعا فى  
هذه اللحظة المباركة ! وعندئذ يتخذ رع هيئة الملك ويدخل على  
الملكة فيجدها مصطبعة والجمال يحف بقصرها ، بيد أنها تستيقظ  
فجأة عندما تشم رائحة الإله فتبسم لجلالته ، وتهلل بالبشر عندما  
تستمتع برؤية جماله فيخترق حبه شفاف قلبها ، ثم يذكر لها رع اسم  
الملك المقبل . وبعدها بأنه سيصبح ملكا على البلاد جميعا .

ويصدر رع أمره إلى خنوم إله الفنين الخالق ذى رأس الكبش أن  
يشكل على عجلة الفخار جسم الطفل وروحه الحارس ( الكا ) ، فإذا  
ما تم ذلك نفخت إلهة الولادة « حقت » ذات رأس الضفدع روح  
الحياة فى جسم الطفل المصنوع من الصلصال ، وفى روحه  
الحارس .

ويشارك خنوم وحقت فى معاونة السيدة الحبل على ولادة الملك  
وابن الإله الذى تهلل له السماء بالفرح الفياض . وما إن يخرج المولود  
إلى عالم النور حتى يهرع إليه رع فيضم ابنه الحبيب إلى صدره

الحنون ، ومن ثم يعهد به إلى الإلهة حتحور البقرة المقدسة لترضعه وتغذيه .

قال الملك فى حماس :

— على كهنة أواريس أن يحدوا لنا ميلادا إلهيا فحما كهذا الميلاد .

قال رئيس الوزراء :

— ليس ما يمجّد فرعون ميلاده الإلهى وحسب ، بل ما أكثر أمجاده . فقد ازدرد علم كل إله ، ومدة حياته الأبد ، إذا أراد شيئا كان ، وإذا لم يرد لم يكن ، إنه إله يعيش على أكل آبائه ويتغذى بأكل أمهاته . وهو رب الحكمة ومجده فى السماء ، يأكل الرجال ويتعدى بالآلهة ، رب الرسل وباعث الرسالات وفى جوفه أرواح الآلهة . وقبل أن يعيق الملك من دهشته دخل عليه رئيس الديوان الملكى ، ورفع ذراعيه محييا وقال :

— إن كل شيء يجرى كما يشاء قلب جلالتكم ويهوى ، وإن قولكم ينفذ كل يوم ، وإن أفكار قلبكم تتحقق كأفكار قلب بتاح عندما يصوغ قطعة فنية .

وراح الملك يصغى إلى رئيس ديوانه وهو سعيد ، فهو يحاطب كما كان يخاطب الفراعير ، وإنه ليأمل أن يأتى اليوم الذى ينسى فيه الناس أنه من أولئك الرعاة الذين اغتصبوا الملك من الفراعة . واستمر رئيس الديوان فى حديثه :

— أيها الملك يا من أمت مولانا ، لقد عاد قائد الحملة التى بعثنا مولانا إلى أرض كنتعان لتأديب المعتدين الذين نزلوا بأرض عبيد مولانا

من الكنعانيين بسوق الأسرى والغنائم ، وهو يلتبس شرف المثل بين  
يدى مولانا .

قال الملك :

— لقد أذننا له بالدخول .

ودخل القائد إلى حيث يجلس الملك ، وقبل أن يمد إليه عينيه حر  
ساجدا وقبل الأرض بين يديه ، وظل في سحوده إلى أن أمره الملك أن  
ينهض وأن يتكلم فقال :

م — يَا يها الملك يا من أنت مولانا ، لقد مكنتنا آلهتنا العظام من  
أعداء مولانا فهزمناهم شر هزيمة ، وسقا ساءهم سبايا .

وصمت القائد قليلا ثم قال :

— وبين السبايا يا مولاي امرأة يتبعى ألا تكون إلا لجلالتك .

فأشرق وجه الملك بابتسامة وقال :

— اذهب وأت بها .

وانحس القائد وخرج وهو يتقهقر حتى لا يولى الملك طهره ، ثم  
انطلق إلى حيث كان الأسرى وأمر سارة أن تتبعه .

سارت سارة في ردهات القصر مرفوعة الرأس ثابتة الجنان يملأ  
قلها يقين في رعاية رب العالمين ، ولم تنهها الأعمدة السامقة ولا  
روعة النفوس والتهاول وفحامة الرياش ، ولم تسر في بدنها رعدة  
خشية بطش الجبارين ، فقد دابت روحها في الله وأسلمت له وجهها .  
واطلقت وهي غائبة عن كل ما حولها بالتسيحات التي تتردد بين  
جناتها وبالسكينة التي تنزل بفؤادها وبانسائم الروحية التي تهب  
عليها ، ولم تشعر بالعيون التي تعلقت بها لتسعد بجمالها الفتان .



وأشرفت على غرفة الملك فإذا الجميع يخرجون سجدا بين يديه ، وظلت هى شامخة فى كبرياء . ونظر الملك ورئيس وزرائه إليها وقد فغرا فميهما من الدهشة ، فيا طالما رأيا ألوانا من الجمال يبد أنهما لم يريا من قبل مثل هذه الفتنة الطاغية .

قال الملك :

— إن سنا جمالها يبهز كل الأنوار .

قال رئيس الوزراء :

— إن شروقها أروع من شروق رع فى أفقه .

وقال الملك فى سرور أشبه بسرور الأطفال :

— خدوها إلى الحريم فأنا أريدها الليلة .

وتلقفها المشرف على الحريم الملكى ، وسار بها فى جناح الحريم بين حراس شداد واقفين على الأبواب . وجاءت رئيسة الحبيسات المحدرات محطيات الملك ورحلت بسارة وهى تبدى إعجابها بجمالها الأسر الذى سيسعد به الملك الليلة .

وانطلقت سارة إلى حجرتها وأعين الفتيات الجميلات اللاتى كن يعزفن على آلاتهن الموسيقية أو يمارس الرقص تنظر إليها وقد امتلأت قلوبهن حسدا ، وإن ندت من بعضهن آهات إعجاب على الرغم منهن ، وقالت إحدهن :

— ليضعن الملك على رأسها حيات الأربوس المقدسة .

وقالت أخرى :

— وليطلقن عليها اسم : الحاكمة الجميلة

وقالت ثالثة :

— وصراعان ما تسمى المحظية الملكية الوحيدة .  
ودخلت سارة غرفتها واستغرقت فى صلاة حارة فأحسّت كأن  
نورا أضاء جوفها وأن طمأنينة عجيبة غشيتها .  
وراحت رئيسة الحبسات المخدرات تهىء الجو الشاعرى فى  
العرفة التى سوف يلتقى فيها الملك بأسيرته الجميلة .. راحت تنسق  
أواني النيزد وتثر العطور على الفراش الوثير وتعد كل شيء ليكون على  
ما يشتهى الملك ويهوى .  
وجاء الليل وأخذت سارة إلى غرفة الشراب ، وما لبث الملك أن  
دخل فقبلت رئيسة المحظيات الأرض بين يديه ، وأمرت الحادّامات أن  
يدخلن عليهما بكؤوس النبيذ .  
وقدّمت إحدى الحادّامات كأسا إلى الملك فتناولها مشرّحا ،  
وقدّمت أخرى كأسا إلى سارة فأبّت أن تمدّ يدها إليها ، فقالت  
الحادّامة :

— فى صحتك !

اشربى حتى تثملى .  
واحتفلى بهذا اليوم الجميل .  
وابسطى ذراعيك للسُرور .  
ورأت رئيسة الحبسات المخدرات إحجام سارة عن مشاركة  
الملك فى شرابه فوجهت الخطاب إلى الساقية لتذهب عمن سارة  
روعاها :

— أعطينى ثمانى عشرة آنية من النبيذ ،  
انظروا ! إني أحب أن أشرب حتى النشوة ،

فجوفى يابس كالهشيم .

ولم تسمع سارة مما تقول شيئا فقد كانت روحها تهيم لتتصل بسر الوجود ، كانت تحاول أن ترى الله بعين بصيرتها لتأنس به وتتفيا ظلال رحمته وتحتمي بحصنه .

وارتفع صوت مغنية تشلو :

حينما تستقر يدك على يدي ،

ينعم قلبي بالسرور .

إن سماع صوتك يسكرنى .

وراح الملك يرنو إلى سارة فى وله .. إنها جميلة أجمل من يدي الصباح ، يفوح منها عبير أطيب من السحور المقدس ، وأشار برأسه لرئيسة المحظيات أن تنسحب .

وأسدلت الستر ولم يبق فى الغرفة إلا الملك وسارة ، وقبل أن يتحرك من مكانه نهضت سارة وانتبدت ركنا من الغرفة وشحصت ببصرها إلى السماء وراحت كل جارحة من جوارحها تصلى لله فما لشت أن أحست أنها روح هفهاة تحلصت من سجن الجسد ، ولم تعد تحس قلقا ولا خوفا ولا رهبة ، بل طمأنينة وأسا وسلاما .

وقام الملك وهو مأخوذ بجمالها ليسط إليها يده ، فإذا به لا يجد فى نفسه حركة ، وامتلأ قلبه رهبة ، وعشيه رهق ، ولم يملك إلا أن يفر من ذلك النور الطاهر الذى يترقرق فى الوجه الجميل ، فدار على عقبه وغادر الغرفة لا يلوى على شيء .

وجاءت الليلة التالية وانفرد الملك بسارة ، وقام ليسط إليها يده فقصت يده قبضة شديدة ، فزلت به رهبة زلزلته زلزالا ، ووجد أن

خير ما يفعل أن يفر من الغرفة .

وفي الصباح اجتمع برئيس وورائه وقال له .

— اتنى بالكهنة والعرافين والسحرة .

وخرج رئيس الدين يدعو كهنة أواريس ، والملك يقول لنفسه :

— إنها شيطان وليست بشرا .. لم يأتوى بإسانة .

وجاء الكهنة والعرافون والسحرة وقص عليهم الملك ما كان يبه

وبين سارة ، فقاموا إلى معابدهم وقربوا القرابين لآلهتهم ، ثم عادوا إليه

فقالوا :

— هذا من غضب الآلهة إذ هممت بامرأة رجل غريب .

فقال الملك فى دهش :

— أو هذه أول امرأة لرجل غريب أغتصها ؟

فقال الكهنة :

— إنه رجل ذو سلطان .

وجاء المساء واطلس الملك إلى الحريم وهو فى شك مما قال

الكهنة والعرافون مريب ، مما كان يسهه أن يصدق أن الآلهة فى السماء

تعضب لامرأة كسائر النساء ، فإن كانت ذات حظوة لدى الآلهة

فلماذا تركتها تقع أسيرة بين يديه ؟

وقادته رئيسة الحبيسات المخدرات إلى غرفة سارة وقد خرس

الألسنة وسكت آلات الطرب وامحت الضحكات الحليلة الماجة ،

وراحت أعين الحميلات تقفو أثر الملك الذى شغف حبا بالمجارية التى

أمعت فى صدره وإذلاله .

وفتح باب الغرفة ودخل الملك ، ونظر فرأى سارة مستغرقة فى

الصلاة لم تشعر بإقباله ، فقد كانت متوجهة بكل كيائها إلى الله متصلة به ، تتهلل بفرح فياض منذ أنزل السكينة على قلبها لتزداد إيمانا . ووقف يعجب من نفسه القلقة التي باتت تهاب امرأة ، ويقنع نفسه أن ما به إن هو إلا من أثر ما قال الكهنة والعرافون ، فأصم أذنيه عن وسوسات التخاذل التي أخذت تفتح في جوفه وتقدم خطوة ، فإذا بسارة قد أتمت صلاتها وأدارت وجهها نحوه فقال لها :

— ماذا كنت تفعلين ؟

— أصلى لله .

— ومن هو الله هذا ؟

— ربى وربك ورب الناس جميعا .

وأحس الملك تخاذلا يدب في أوصاله ورهبة تغشاه ، وعزم على أن يقضى على خوفه فأطلق ضحكة ساخرة يشد بها أزر نفسه ، ومشى إليها وبسط يده ليضمها إليه فقبضت يده قبضة شديدة ، فقال لها فى توسل :

— ادعى الله أن يطلق يدي ولا أضرك .

فرفعت سارة عينها إلى السماء ودعت الله فأطلقت يده ، فسولت إليه نفسه أن يسط يده إليها كرة أخرى ففعل ، فقبضت يده قبضة أشد من الأولى .

ونظر إليها فى رجاء وقال :

— ادعى الله أن يطلق يدي فلك عهد الله ألا أضرك .

ففعلت وأطلقت يده ، ومد بصره إليها فرأى كأنما ينظر إلى عمود من نور بيده القلب ويغسل إفك النفس وبشيع فى الروح طهرا ، فقال

فى محشوع :

— من أنت ؟

— امرأة من عباد الله كانت آمنة فى كنف زوجها قبل إغارة جنودك على خيامه .

— ومن زوجك ؟

— إبراهيم عبد الله ورسوله ، أرسله الله ليدعو إلى عبادته وحده لا شريك له .

— ما دمت زوجة رسول الله فلماذا تخلى الله عنك وعن رسوله وتركك تسقطين فى الأسر وتساقين سوقا مع السبايا ؟  
فقال سارة فى إيمان أذهل الملك :

— ما كان الله ليطلعنا على الغيب ، إن الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شىء قدرا .

كلف المصريون بالنواح مذ راحت إيزيس تبكى حبيبها أوزيريس فى طول البلاد وعرضها وهى تنقب عنه بعد أن غدر به أخوه « ست » ، فراحت هاجر تذرف الدمع السخين على أميرها وحبيبها الذى تقصت الأيام دون أن تراه أو تبلغها أنباءه .

المعركة دائرة هناك بينه وبين الهكسوس على الحدود الشمالية فى حصن الجدار الأبيض ، ترى لمن يكتب النصر ؟ أينتصر روجها أمير منف صاحب الحق الشرعى أم ينتصر الظلم والطغيان ؟ أينتصر « ست » الشرير على « بتاح » الصانع الأعظم الذى خلق العالم ، قلب الآلهة ولسانهم ؟ إن بتاح قد انتصر فى عين شمس على « رع » إله الشمس ، حور الأفق ، من أبعد العواصف وأزجى المطر وحطم السحاب ، ومن يشرف على الآلهة ولا يشرف عليه إله .

ترى أيحارب الآلهة حقا ؟ أينتصر أحدهم وينهزم الآخر ؟ يقول كهنة منف إن بتاح انتصر على رع أيام كان كل منهما ملكا فى الأرض ؟ كان ذلك قبل أن يعود إلى السماء ، ترى أتدور المعارك هناك أيضا كما هى دائرة على الأرض ؟ إن كان ذلك حقا فأين السلام ؟ إن كان « ست » قد انتصر على « رع » وهزمه فلا بد أن تتوقف رحلة إله الشمس الأبدية ، ولكن ذلك لم يحدث ، فما يزال « رع » يجتدف فى سفينته الملكية العاخرة عبر المستنقعات السماوية .

ورفعت الأميرة هاجر عينيها إلى السماء فرأت الشمس ترسل نورها إلى الكون كما اعتادت أن تراها مذ فتحت عينيها على النور لا أثر فيها لهزيمة ولا يبدو عليها الانكسار . إنها متألفة كأشد ما يكون التألق . فهبت هاجر منتصبه وصوت يدوي في جنباتها :

— أوهام !

ونظرت نحو الغرب حيث هرم سقارة ومقابر العظماء . السكون يلف كل شيء لا حركة ولا نأمة . إن أصحاب هذه القبور قد أوقفوا الضياع ومحاصيلها لتقيهم في قبورهم شر الجوع والعطش والبرد ، وعينوا الكهنة لتلاوة الصلوات ليسعدوا في الحياة الأخرى ، وما هي ذى أوقافهم قد ذابت والكهنة قد كفوا عن الصلاة ، وقبورهم موحشة وحشة الموت .

وأخذت ترن في كيائها ماجة الكهنة للميت : « إن عظامك لن تفنى ولحمك لن يمرض وما أعضاؤك يبعيدة عنك . إن الآلهة تعيد لك رأسك وتجمع لك عظامك وتضم لك أعضائك وتضع قلبك في جوفك . قم لخبزك هذا الذي لن يجف ، وحجعتك التي لن تتسنه ، إدهما تصيح روحا » .

وأحست هاجر أنها تتمرق وراح صوت يدوي في جنباتها :

— أوهام !

وتذكرت الأحاديث الطويلة التي كانت تدور بينها وبين وصيفتها ! كانت كلهما تدور حول الموت وما بعد الموت والحياة الأخرى . كانت أمنيتهما أن تدفن في أيلدوس حيث مقبرة أرريس إله العالم السفلي ، وقد أوصت وصيفتها إن تعذر دفنها هناك أن تقيم لوحا



حجريا فى رحاب قبر أوزيرى حتى يقلها سيد أيدوس فى مملكته السعيدة .

كان أوزيرى يعيش فى منف كما نعيش ، وقد قال الكهنة إن أخاه ست غدر به وقتله ، وأنه قام من بين الأموات وأصبح قاضى الموتى له ميزان يزن به أعمال البشر ، أيمكن أن يكون ذلك حقا ؟  
وأحست هاجر أنها تتمزق وأن الشك يكاد يقتلها ، وراح صوت يدوى فى جنباتها :

— أوهام .. محض أوهام .

وراحت تقلب وجهها فى السماء والشجر والرع والطير فإذا بها تحس لأول مرة حقيقة طالما سمعتها من الكهان . إن الإله يحل فى كل شيء : فى الشمس والقمر والحوم والشجر والدواب والطير وفى كل ذات كبد رطبة ، إنه فى كل الناس ، إنه فيك .. يسرى مسرى الدم .

ورنت كلمة الناس غريبة فى أذنيها ، أحقا أن المصريين وحدهم هم الناس ومن عداهم ليسوا ناسا ؟ فماذا يكونون ؟ أليس الإله فيهم ؟ ألا يحل الإله إلا فى المصريين وحدهم ؟ إن الكهنة يقولون إن المصريين من نسل الآلهة أما الآخرون فذرية أعداء الآلهة . إن كان « بتاح » هو الذى خلق الخلق وهو الذى خلق الآلهة فس الذى جعل شعبا موق شعب ؟

أحست هاجر أنها تتمزق وربما الشك فى نفسها وراح يدوى فى جنباتها :

— أوهام .. أوهام .

وارتفع صوت بالعناء كان أقرب إلى العويل ، فأصاحت السمع :

إن المقدر الجميل قد وقع

تمضى الأجيال فتفنى أجساد .

وتبقى أخرى .

كان ذلك منذ عهد الأجداد .

الآلهة الذين وجدوا في غابر الزمان

يستقرون في أهرامهم .

وكذلك الأشراف والمبجلون قد رحلوا

ودفنوا في أهرامهم .

وأولئك الذين بنوا مرارات لقبورهم .

وشيدوا الدور لم يعد لديارهم وجود .

ماذا حدث لهم ؟

لقد سمعت كلمات « أمحتب » و « حردادف »

— من يترنم الناس بأقوالهما في كل مكان —

كيف حال ديارهما ؟

تهدمت جدرانها .

ولم يعد لديارهما وجود

كأن لم تغن بالأمس .

لا أحد يأتي من هناك ليحدثنا عن حال من رحلوا

ويخبرنا عن مآلهم ،

حتى تطمئن قلوبنا

إلى أن نرحل إلى هناك

إلى حيث قد رحلوا .  
شجع فؤادك على أن يسي ذلك  
ومتع نفسك باتباع رغبتك  
وأنت على قيد الحياة ،  
وضع الطيب على رأسك  
وارتد ملابسك من الكتان الرقيق  
وضمخها بالمطور العجيبة ؛  
فهذه أشياء الإله الأصيلة .  
وزد كثيرا فى مسراتك  
ولا تجعل قلبك يبتس ،  
واتبع ما تشتهى وما يطيب لك ،  
فهذه شعورك على الأرض  
حسبما يمليه عليك قلبك  
إلى أن يأتى يوم مغيبك ،  
حيما لا يسمع صاحب القلب الساكن نعيمهم .  
ولا الذى فى القبر يصغى للعويل .  
اعتنم التمتع باليوم السعيد  
ولا تجهدن نفسك فيه .  
أصغ ! لم يأخذ إنسان متاعه معه  
ولا تجهدن نفسك فيه .  
وما من أحد ممن ذهبوا يعود .  
وسمعت هاجر ضجة وصراخا وعويلا وصيحات وجلية ، فدى

قلبيها رعباً . إن ما تسمعه نذير قتال عند أبواب القصر يدور ، ولم تفكر في الفرار . وأين المفر إن كان أميرها وحييها قد قتل أو وقع أسيراً ؟ وجاءت الوصيعة من أقصى القصر تسعى وقد اتسعت عينها رعباً تتفص كحمامة وتقول وهي حائفة تترقب :

— الهكسوس .. الهكسوس ...

ثم فرت لا تنل على شيء . وسارت هاجر صوب الجبلية وهي مأخوذة حزينة حتى الموت ، ترجو أن تصيها طعنة خنجر أو يستقر في قلبها سهم لتستريح من ألم الروح وعذاب النفس ، فقد أبغضت الحياة وكرهت الناس وامتلاً قلبها مقتلاً لآلهتها جميعاً أولئك الذين تخلوا عنهم ومكنوا الآسيويين منهم .

وتراءى لها جلود الهكسوس وهم يتقدمون مها وقد ثبتوا أنظارهم على ثعبان الأريوس المقدس الذي يزي رأسها ، وصاح صائح منهم :

— الأميرة .. الأميرة .

وأطبقوا عليها وأحنوها أسيرة ، وسارت بينهم مطأطئة الرأس كسيرة الفؤاد ، فلقد كتب عليها الهوان وأصبحت جارية ذليلة . وأصدر قائد الحملة أوامره بإرسالها فيما أرسل من عنائم وأسلاب وأسرى إلى أواريس ، إلى البيت الكبير ، إلى الباب العالي ، إلى الملك .

ووقعت عياها على القصر وعلى العرش العظيم وعلى معبد « بتاح » فقامت مآقيها بالدموع ؛ إنها تودع صف مخازن الغلال المقدسة الوداع الأخير .

وانطلقت قافلة البأس بين الحقول إلى المجهول ، وراح فلاح

يفنى :

ألا إن اسمى أشد مقتا من رائحة الطير في أيام الصيف  
عندما تكون السماء حارة .

ألا إن اسمى أشد مقتا من مصائد السمك في يوم صيد  
السماء فيه حارة :

ألا إن اسمى أشد مقتا من رائحة الطير فوق الصفصاف  
المملوء بالوز .

ألا إن اسمى أشد مقتا من رائحة الصيادين على شواطئ  
المستقعات بعد الصيد .

وحاشت العواطف في صدر هاجر وودت لو تكى حتى تصدع  
كبدها من البكاء لتنفس عن الحزن الذي يضيق أنفاسها ، ولكها  
أحست بالعيون الشامخة ترصدها فلم تشأ أن تتحادل أمام أعدائها ،  
فرفعت رأسها في كبرياء وأصررت على أن تظل أميرة جديرة بإمارة منف  
العرش العظيم .

ودخلت مدينة أواريس بتألق على رأسها تاج الوجهين البحري  
والقبلي وقد أحاط بها جنود الهكسوس . كانت شابة سمراء جميلة لم  
تتجاوز الخامسة والعشرين زادها جمالا مسحة الأسى التي ارتسمت  
على وجهها النحيل وأنفها الشامخ وجبينها المرفوع . كانت تحاول  
جاهدة أن تبدو في أعين أعدائها — كما كانت دائما — أميرة مصرية  
من نسل الآلهة ، السيدة الجميلة سيدة القطرين وزوجة الإله وحييته .  
كانت أواريس مدينة حديثة قامت فيها مسلات وتمائيل وحدائق  
وقصور ومعابد شامخة ومقابر هائلة ، إلا أنها كانت حديثة عهد

بالنعمة . أين هي من منف العريقة ، منف المقدسة ، منف درة الآلهة  
ومخازن غلالهم ؟ وهان القوم في عينيها ، أين هم منها ؟ إنها من الناس  
وهم ليسوا ناسا ؟ إنها من نسل الآلهة وهم من نسل أعداء الآلهة . إنها  
من بيت الملك المقدس وهم من الأفاقس الرعاة المغتصبين .

ودخلت على الملك وعلى رأسها التاج وبين جوانحها ثورة  
عارمة ، وخرجت من عنده وقد نزع عنها التاج ونزل في قلبها بأس  
مرير . قال لها الملك في قسوة إن أميرها وحبيبها قتل ، لقي مصرعه  
على أيدي جنوده . وقهقه قهقهة وهو يقول إن هذا مصير كل من يقف  
في سبيله . وقالت له إنه قاس مثل إلهه ست . يحب سمك الدماء  
كحب إلهه سفكها ، وسيلته الغدر كما هي وسيلة إلهه ، فإن زوجها  
سيقوم من الأموات كما قام أزريرس وسيستقم مه ومن كل من اشترك في  
سفك دمه .

وتلقفتها رئيسة الحبسات المحدرات وانطلقت بها إلى الحريم  
لتكون محظية . وسارت هاجر معها مطرقة الرأس كسيرة الفؤاد ،  
وشغلت عن كل ما حولها بصوت المغنى الذى كان ينوح فى جيباتها :

أصغ ! لم يأخذ إنسان متاعه معه .

وما من أحد ممن ذهبوا يعود .

ولأول مرة انهمرت من مآقيها الدموع .

ودخلت غرفتها وأغلقت الباب خلفها فحيل إليها أن باب حياتها قد  
أقفل عليها . انتهت أيام منف ولياليها وانقضت أيام عزها وسلطانها  
ومضت أيام مجدها كأمس الدابر ، تلاشى كل شيء كما يمضى  
الحلم الجميل .

أهل نجم هاجر سيدة القطرين الأميرة الجميلة زوجة الإله وحببته ،  
صار كل ذلك ذكرى فى جوف الزمن ، لم تعد هناك إلا هاجر الجارية  
المصرية .

ورثت كلمة الجارية فى أذنيها وفى ضميرها رنيا موحشا بعضا  
فأجهشت بالبكاء .

كان إبراهيم ولوط وإليعازر الدمشقي وبعض أتباع إبراهيم يطوون الأرض هابطين إلى مصر ، وكان إبراهيم رابط الجأش لم تذهب نفسه شعاعاً لأسر سارة ، كان على يقين من أن سقوطها في أيدي الهكسوس لم يكن غضبا من الله إنما كان خطوة من خطوات قدره لتتم كلمته . إن الله يفعل ما يريد .

وتجاوروا الحدود التي تفصل مصر عن سيناء ودفعوا ما طلب منهم من مكوس ، ثم انطلقوا من جوشن بين الخيل والأعشاب والأشجار الوارفة الطلال حتى بلغوا منديس ، فإذا ققط محنطة وتمائيل كثيرة لقطط وإذا الناس يطوون إلى هذه الققط نظرات تقديس ، ملاح الدهش في وجوه القادمين من فلسطين . ثم دخلوا معبد « باست » ينظرون فإذا برجال ونساء يعربدون ويطلقون ضحككات المجون .

ورأوا تمثالاً لإلهة المعبد « باست » إلهة المرح ، وكان رأسها رأس قطة فقطوا إلى سر تقديس القوم لقطط ، ولم يكن ما يجري هناك غريبا على أعينهم فقد رأوا مثله في معابد « عشتار » إلهة اللذة المنتشرة في بلاد ما بين النهرين وسورية وفلسطين .

إن ما كان يجري في معبد باست هو عين ما كان يجري في معابد عشتار : كان النساء يقدمن أنفسهن قربانا على مذابح الشهوة إرضاء لإلهة اللذة وكى سعيادات بتصحياتهن ، وكان الناس في منديس



يهيمون فى مناهات الصباغ كاحوانهم فى أور وبابل ودمشق وإيليا وفى كل بقعة فى بقاع الأرض أقيم فيها معبد لإلهة اللذة تمارس فيه الدعارة باسم الدين .

رأى إبراهيم والذين معه تماثيل رجال لها رعوس عجول وكباش ، وتماثيل نساء لها رعوس ققط ، وتماثيل تماسيح وثيران وثعابين مقدسة ، وعلموا أن القوم يرمزون إلى كل إله من آلهتهم بحيوان من الحيوانات التى تمرح فى أرض مصر .

كان القوم فى بابل يعدون الشمس والقمر والنجوم ومياه البحار والرياح والزواجر ويرمزون إلى هذه الظواهر تماثيل ينحتونها على هيئة البشر ، أما المصريون فقد عبدوا آلهة الشمس والقمر والأرض والسماء والخصرة والخصب والحلود والحكمة ، وكانوا يرمزون إليه بأجسام بشرية ورعوس عجول وكباش وققط وثعابين ، ويقولون إن أرواح الآلهة تحل فى أجسام تلك الحيوانات المقدسة !

وشد إبراهيم والذين معه الرحال إلى أواريس فلما بلغوها اتخذوا طريقهم إلى قصر الملك ، فمروا بمسلات وتماثيل ومعابد وكهنة ورجال يرتدون الكتان ، ويحملون الأثقال على رعوسهم ، ونساء يمارسن التجارة فى الأسواق ويحملن الأثقال على أكتافهن أو يحملن سلال القرايين على رعوسهن وهن فى طريقهن إلى المعابد .

كان غير البحور يتشر فى المعابد ، بيا كان غير الدين يسرى فى حنابات وادى النيل فى الحقول والنبور والقصور والقبور ، وفى كل مكان تتردد فيه أنفاس البشر .

ولاح لهم قصر الملك بأعمدته الفرعونية وحدائقه الغناء وشرفاته التى يشرق منها حلالته من أفقه ، وقد وقف المحود على جانبي الباب ( هاجر المصرية )

الكبير بملابسهم الفرعونية وفي أيديهم الرماح ، وانتشر في فناء القصر بعض الضباط على صهوات جيادهم .

كان القصر رائعا يأخذ بالألباب إلا أن روعته لم تبهر إبراهيم فقد هانت الدنيا في عييه بعد أن تآقت نفسه إلى ما عده الله .

دخل إبراهيم ومن معه القصر مرفوعي الرؤوس وطلبوا مقابلة الملك ، وجاء رئيس الوزراء وسأل عن سبب التماس المقابلة فقبل له إن جنود الملك أغاروا على خيامهم في إيليا وأسروا سارة ، وإنهم إنما جاءوا ليفدوها من الأسر .

وسأل رئيس الوزراء عما يدفعونه للملك لقاء إطلاق سراحها ؟ فقبل له لو طلب الملك وزنها ذهبا لدفعناه .

وعاب رئيس الوزراء في القصر ساعة ، ثم عاد ليقود إبراهيم ومن معه إلى قاعة العرش ، فلما دبوا منها التفت إليهم رئيس الوزراء وقال : — إذا أشرق عليكم جلالتة فحروا له ساجدين — إنا لا نسجد إلا لله .

ودخلوا على الملك بحطى ثابتة وقد انتصبت هاماتهم وفي أعينهم قوة وعزم ، يترقب في محياهم صفاء الإيمان وتنعكس على وجوههم طهارة القلوب .

كانت مفاجأة للملك فما دنا من جلالتة إنسان إلا وقبل الأرض بين يديه وما رفع رأسه إلا ولاح في لفتاته الهلع وارتعدت فرائضه ، فما بال هؤلاء القوم لا يرتجفون فرقا من جلالتة ؟

استاءت نفسه بيد أنه جاهد ليكتم عواطفه وقال :

— أيكم إبراهيم ؟

فاتجهت أعين القوم إلى إبراهيم وراح الملك يمد إليه بصره . .  
رجل مهيب تهفو إليه النفوس وتتفتح له القلوب ، جدير بكل  
احترام .

وأجلسه الملك بالقرب منه ودار بينهما حديث طويل ، ثم قال  
الملك :

— لا . لا أقبل فدية ممن صانها الله . إنها لك وما ينبغي أن تكون  
إلا لك .

ثم التفت إلى رئيس وزرائه وقال :

— إنهم ضيوفى فليزلوا القصر على الرحب والسعة .

ودخل إبراهيم غرفة من غرف القصر وسرعان ما جاءت إليه سارة  
يتألق النور فى محياها ، فلما رأته غامت عيناها بالدموع وخفت إليه  
فهرع إليها وقال :

— ما خبرك ؟

— خيرا ، كف الله يد الفاجر .

فقام إبراهيم عليه السلام يصلى لله .

وفى الليل اجتمع الملك وإبراهيم ورئيس أسرار السماء والكاهن  
الأكبر ورئيس خزانة الإله ست وكتب بيت الإله والزعيم الأول  
للمنانيين — وكان يخدم الإله بتاح الفناء الأعظم — والمشرف على  
قطعان ثيران الإله وكتاب المذبح ، وكان الكهنة جميعا قد حلقوا  
رعوسهم بالموسى وارتدوا ثيابا بسيطة من الكتان إلا الذى يرى سر  
السماء فقد كان عن يسار الملك يرتدى جلدا تزيينه النجوم .

كان الجو حارا فجلسوا فى حوسق فى حديقة القصر ينعمون بنسيم

الليل ويتطلعون إلى النجوم التى تتلألأ فى السماء الصافية الزرقاء .  
وراح رئيس أسرار السماء يظفر فى النجوم ويتحدث ، ثم أشار إلى  
الشعرى وقال :

— هى روح أزريس .

ثم قال عن نجم الكلب إنه روح إيريس ، وأن روح حوريس هى  
الجبار ( الأوريون ) ، أما سائر النجوم فهى أرواح ترتبط بالشمس فى  
دورانها ، وأنه عهد إلى النجوم السنة والثلاثين المنتشرة فى رقعة السماء  
حماية ساعات الليل والنهار .

ثم راح يتحدث عن مواقع النجوم وتقسيم الرمز حسب دورة  
الشمس لا دورة القمر ، وكيف أن الشهر مقداره ثلاثون يوماً ، ولما  
كانت السنة الشمسية ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً وربيع اليوم فقد  
أكملت السنة المصرية بحمسة أيام السىء أضيفت إلى نهاية السنة . ثم  
راح يتحدث عن السنة الزراعية وكيف قسمت إلى ثلاثة فصول :  
الفيضان والبذر والحصاد ومقدار كل فصل أربعة أشهر . وأن فصل  
الفيضان يبدأ بروغ نجم الشعرى ، ولما كان أزريس هو الفيضان وهو  
الزيل وهو إله الحصب ومن علم المصريين الزراعة ، فقد قالوا إن نجم  
الشعرى هو روح أزريس .

وراح إبراهيم يتحدث عن النجوم فقد تعلم الفلك من حده ناحور  
ومن أور وأبراجها التى شيدت عالية لرصد الكواكب ، وكان القوم فى  
أور يعبدونها ويقدمون إليها القرابين . وأدهل حديثه الكهنة وأدهش  
الملك ، إن السنة التى أكملت بحمسة أيام السىء تجعل السنة تتحلف  
بمقدار يوم كامل كل أربع سنوات . إن مستهم هذه متعيرة لا تنفق

فصولها ولا شهورها مع السنة الطبيعية ، فإن أرادوا أن تكون سنتهم غير متغيرة فعليهم أن يعتبروا اليوم الذى يظهر فيه نجم الشعرى فى السماء صباحا هو بدء السنة وبدء الفيضان .

وتحدث رئيس أسرار السماء عن أيام السعد وأيام النحس ، عن حسن الطالع وسوء الطالع ، فقال إن اليوم الأول من أمشير واليوم السابع والعشرين من هاتور يومان كليهما سعد وبركة ، ففى الأول رفعت السماء وفى الثانى عقد الصلح بين الإلهين مت وحور واتفقا على اقتسام العالم بينهما ، أما اليوم الرابع عشر من طوبة فهو يوم نحس مستمر ، ففيه بكت إيزيس وأختها نفتيس أخاهما أوزيريس .

وأفاض رئيس أسرار السماء فيما ينهى عمله فى أيام السعد وما ينهى تجنبه فى أيام النحس ، وذكر الأيام التى يكره فيها أكل السمك والأيام التى ينهى فيها تجنب رؤية الفيران ، وأخذ يروى أساطيره فى إيمان شديد كأنما كان يقص وحيا أوحى إليه من السماء .

وقال إبراهيم عليه السلام :

— الله الذى خلق السماوات والأرض ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، وما من إله إلا الله ، لا إله إلا هو الحى القيوم .

وراح يحدثهم عن تطهيرهم : عن أيام السعد وأيام النحس ، فقال لهم : طأركم عند الله ، إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدرا ، له مقاليد السماوات والأرض يسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، وما كان

الله ليطلعكم على الغيب ، عنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ، إن الله عالم غيب السماوات والأرض إنه عليم بذات الصدور .  
واستمر في حديثه وقد تعلققت به أعين الملك والكهنة ، وقد سحرهم بيانه ، وراح الملك يتبادل النظرات والكاهن الأكبر كأنما يقول له : ترى ماذا تفعل معه غدا ؟ فقد كان من المقرر أن يزور الملك وإبراهيم الذي يأتي بأخبار السماء معابد الآلهة ، ليشاهد المراسيم المقدسة .

راح الملك وإبراهيم والكهنة ورجال القصر يقطعون الطريق المقدس الذى يقود إلى معبد الإله ست وهو طريق مرصوف على جانبيه صفان من تماثيل أبى الهول . وبلغ الركب المقدس بوابات المعبد الضخمة وكانت ترتفع بميل مع الأبراج الحجرية المحيطة بها وتقوم عندها ساريات الأعلام عالية خفاقة ، واصطف الجنود فى أكمل زينة لاستقبال الملك وضيغه .. كان مشهدا فخما يهز المشاعر ويهر النفوس .

واطلقوا إلى الفناء الكبير وكانت أعمدته ضخمة غاية فى الروعة ، ومن ثم إلى باب فى جدار المعبد الخلفى دخلوا منه ، فإذا تراتيل الكهنة تتردد والمكان يعبق بالبخور .

وأطرق الملك فى خشية وراح إبراهيم يتلفت ، إنها قاعة واسعة بها أعمدة كثيرة ومذابح وموائد للقرابين وتماثيل للإله غرية . بينها تماثيل فرد ذى شعر أبيض وشكل سمح هو تحوت إله العلم وكاتب رسائل الآلهة . قال الكاهن الأعظم :

— على العاقل الحكيم أن يظل مخلصا للعلم وأن يصلى لتحوت إله العلم ليهبه المعونة وينير له الطريق . إنه لا ينسى زملاءه الأرضيين إذا دعوه .

— وكيف يدعونه ؟

« تعال إلى حتى تهدبنى ، واجعلنى حصيفا بارعا فى مهنتك ،  
فمهنتك أجمل المهن جميعا .

تعال إلى وأرشدنى فأنى خادم فى دارك .  
دعى أتحدث عن قوتك أنما حللت حتى يقول الناس جميعا : ما  
أعظم ما يفعله تحوت ، ثم يأتون إليك مع أولادهم ليصبحوا كتبة ،  
مهنة الحامى القوى النبيلة ، إن من يشغلها يتהלل بالفرح ويقع بالسرور  
ويصبح فرين العين » .

ورأى إبراهيم على الحدار صور الملك بين آلهة كثيرة ، والإله ست  
يقدم إلى أنفه علامة الحياة ، على حين تباركه الإلهة بوصع يدها على  
كتفه ، بينما يسجل تحوت كاتب الآلهة ملايين السنين التى وهبتها  
الآلهة للملك .

وقال الكاهن الأعظم :

— الآلهة تشكر جلالته على هذا المعبد الجليل .

وراح الكاهن الأعظم يقرأ ما كتب على لسان ست :

« إبنى أهيك السنين حتى الخلود ، وحكما على القطرين فى  
سرور . ما بقيت أنا حيا فستبقى أنت حيا على الأرض ، متألقا كملك  
على الوجه القلبي وملك على الوجه البحرى على عرش حوريس  
الحاص بالأحياء ، وسيبقى اسمك ما بقيت السماء ، خالدا أبدا جزاء  
وفاقا على هذا الأثر الجميل الكبير الطاهر المكين الذى أقمته لى حتى  
تسعد بحياة الخلود .

أى سى الحبيب ، إن قلبى ليستهج عندما أرى بهاءك ، لقد جددت  
لى بيتى المقدس كأفق فى السماء ، لهذا فأنى أسمحك حياة رع



الأبدية .

ورأى إبراهيم أن المعبد أقيم تمجيدا للملك لا تمجيدا للإله بيد أنه لم ينس بكلمة وأخذ يتفرس فى التماثيل الأخرى الغريبة ، ووقف أمام تمثال رجل له رأس الأييس فقال الكاهن الأعظم :

— إلهنا بتاح إله الفنانين والصناع ، من خلق الناس من الطين ونطق بالأسماء كلها .

وشرد إبراهيم ، إنهم يعرفون أن الإنسان خلق من طين وأن هناك من عرف الأسماء كلها ، قضى علمهم بدور الحقيقة ، إنهم يؤمنون بالخلود وبالبعث بعد الموت وبالحساب وبالثواب والعقاب ، جاءتهم هذه الحقائق عن رسالة كريمة إلا أنها طمست بفيض من الحزبيلات والأساطير .

ووقف إبراهيم أمام تمثال رجل له رأس ابن آوى .  
فقال الكاهن الأعظم :

— الإله أنوبيس ، وهو ابن غير شرعى لأرريس من أخته نفتيس .  
ولاح فى وجه إبراهيم الدهش ؛ حتى ألتهتهم لهم أباء غير شرعيين ، وحسب الملك أن إبراهيم لم يفهم مقالة الكاهن الأعظم فقال له :

— كان أرريس متزوجا أخته إيزيس ، وكانت نفتيس أخته أيضا .  
وكانت تحبه حب إيزيس إياه وإن كانت زوجة لأخيها ست إلهما العظيم . إن هذا فى صحفنا المقدسة ، وسيتلو عليك بعضها الكاهن الأعظم الليلة .

وراح إبراهيم يتفرس فى الكباش والقردة والقطط والمجول التى

زينت رعو سها تماثيل الآلهة ، وطقن الكاهن الأعظم إلى خيبة الأمل  
التي لاحت في وجهه فقال له :

— قدسنا هذه الحيوانات لأن أرواح الآلهة تحل فيها .

أيقول لهم إبراهيم « لستم على شيء » ؟ كان إبراهيم فطنا حليما  
فآثر أن يترث حتى تنتهى الزيارة وتبدأ بينه وبين الكهنة المناقشات  
والمناطرات التي اشتعلت مذ وطأت أقدامه قصر الملك فى أواريس .  
ونحرت الدبائح وأطلق البخور وتكدست على موائد القربان  
الأطعمة من لحوم وفواكه وشراب الجعة ، وراح المرتلون العمى  
يرتلون للآلهة على هزات السستروم ( الشخشخة ) .

ودخل الملك والكاهن الأعظم وإبراهيم مقصورة مظلمة كان بها  
مغنيات الإله ست ، وكن يرتلن أناشيد الإله ويرفعن أصواتهن الجميلة  
بالابتهالات .

ولاحت المقصورة الوسطى ، قدس الأقداس ، حيث يوضع الإله  
ست إله الحرب ، من رفعة الهكسوس فوق آلهة البلاد جميعا .

وكتب على مدخل المقصورة : « أنا طاهر ... أنا طاهر .. أنا  
طاهر .. أنا طاهر » وما كان ينبغي أن يدخل « قدس الأقداس » إلا من  
كان طاهرا .

وراح الكاهن الأعظم يحرق البخور ويقرأ :

لقد صعدت إليك .

وطهورى فوق يدي .

ولقد مررت على الإلهة نفوت فطهرتنى تغنوت .

أنا كاهن هذا المعبد وابن كاهنه .

أنا كاهن حضرت لأعمل ما ينبغي على المرء عمله ،  
ولم أحضر لأعمل ما لا ينبغي عمله .

وتقدم هو والملك وإبراهيم إلى مقصورة الإله ، وبدأت رئيسة  
حريم الإله الجميلة اللطيفة ذات اليدين الطاهرتين والصوت المحبوب  
تعنى وتهز يدها السستروم « الشخصيفة » .

تقدم الكاهن الأعظم إلى مقصورة الإله وحل رباطها وهو يقول :  
— طرحت أرضا كل ما على من شرور .

وفتح الكاهن الأعظم الباب وراح يبخر بالطيب حية الأوريوس  
المقدسة حامية الإله ، وتقدم نحو قدس الأقداس في خشوع فلما  
وقعت عيناه على تمثال الإلهة خر ساجدا وقبل الأرض ، ثم انطرح على  
بطنه وعاد يقبل الأرض ، ثم أخذ يحى الإله بأنشودة .  
ركع الملك للإله أما إبراهيم فظل منتصباً وراح يسبح بحمد الله  
ويقدس له ويستغفره .

وقال الكاهن في ببرات مرتجفة عامرة بالإيمان :

— سيزدان عرشك وتسمو أرديتك ويقف آلهة السماء العظام بين  
يديك . سيأتون من السماء وينزلون من الآفاق ليلقوا إليك السمع .  
وأخذ يدنو من المقعد الكبير حيث يقوم تمثال ست ، ويقول دون  
أن يرفع رأسه :

— سلام على الإله ، سلام على الإله ، الروح الحية التي تقهر  
أعداءها . إن روحك معك وعصاك إلى جانبك .  
وإني لطاهر .

وأخذ في لباس الإله وهو يقول :

— الثوب الأبيض يأتي .. الثوب الأخضر يأتي ..  
وزين الكاهن تمثال الإله بالصولجان وعصا الحكم والسطوط  
والأساور والخلخال ، ووضع فوق رأسه ريشتين وهو يقول :  
— لقد انتصرت على أعدائك وصرت أبهى الآلهة والأرواح المنيرة  
جميعا .

وقد تمثال الإله قلادة وتميمة وشرطتين أحمرتين وآخرين أخضرين  
وثلاثين أبيضين .

ثم راح الكاهن يتقهقر دون أن يولى الإله ظهره . وغادر الملك  
وإبراهيم قدس الأقداس ، وأعلق الكاهن الباب خلفه وهو يقول :

— تحوت يحضر .. تحوت يحضر .. تحوت يحضر . تحوت  
يحضر .. ما من شرير أو شريرة يدخل هذا المعبد . سيفلق بتاح الباب  
ويحكم إغلاقه تحوت ، سيفعل الباب ويحكم إغلاقه بالرياح

وانتهى الاحتفال الدينى ، وعاد إبراهيم إلى غرفته يفكر فى دين  
القوم ويسترجع صور تماثيلهم العجيبة وأساطيرهم ، إنه يرى بعين  
خياله إلهة الحرب « سخمت » ذات رأس اللبوة ، إنها مثل عشتار عند  
النابليين عندما تكون إلهة الحرب ؛ فاسية متعطشة إلى الدماء لا يعرف  
قلها الرحمة .

إن عشتار هاك فى بابل تجمع بين الحرب والحب واللذة ، أما هنا  
فى مصر فإن « سخمت » للحرب و « باست » للمرح واللذة ، و  
« بس » مقوس الساقين للحب ، فما أكثر الآلهة عند المصريين . إن  
لكل شىء إله ، حتى الجبال لهن إلهة تحميهن وهى على هيئة فرس  
نهر تسير منتصبة على ساقها الحلفتين وهى إحدى يديها علامة

هيوغليفية ترمز للحماية !

والآلهة المصريين يتزوجون ويعجبون وأحياناً يأتون بأبناء غير شرعيين ، وقد يسر قبول هذه المعتقدات أن القوم يعتقدون أن آلهتهم كانوا من قبل ملوكا يحكمون على الأرض قبل أن يذهبوا إلى السماء .  
السماء ؟ إنها مرة كامراً اشترت على جسدها الكواكب والمجوم ، ومرة كبقرة يحملها الإله « شو » وتسندها أرواح أخرى وعلى بطنها المزين بالبحوم تسير سفينة الشمس مرتين !

كيف تستقيم مثل هذه السذاجة مع اعتقاد الناس بالخلود والبعث والحساب والثواب والعقاب ! إن في دين القوم ملامح عقيدة سماوية قيمة طفت عليها الأساطير لما طال على الناس الأمد وقست قلوبهم .  
وتذكر إبراهيم أن الملك قال له مرة : « إن وحى الإله فى كل الناس » وقال له الكاهن أكثر من مرة : « أصغ إلى الإله الذى فىك » و « اتبع وحى الإله الذى فىك » . كيف يجتمع مثل هذا الفهم مع الآلهة الكثيرة التى تستعير رعوس العجول وأفراس البحر والقطط واللبؤات والقرودة والتماسيح ؟

وجاء النيل ودخل الكاهن الأعظم يغتسل قبل أن يحمل الكتاب المقدس ويطلق به إلى إبراهيم ، وراح يفكر فى الآيات التى يختارها ليتلوها على ذلك الرجل الفطن الحليم الذى يتمتع بمسطق سليم ، والذى تندفق الحكمة من فيه كسلاسل الذهب .

ودخل الكاهن الأعظم على إبراهيم يحمل الكتاب المقدس بين يديه فى إجلال وتوقير ، ثم قال :

— كنت أغتسل فإن الآلهة تعنسل سبع مرات إذا أرادت أن تقرأ فى

الكتاب المقدس .

وصمت إبراهيم ، أثر أن يترث حتى يعلم ما عند القوم وإن أنكر في نفسه أن الآلهة تفتسل وتقرأ ، وأن ثم آلهة غير الله ، تعالى الله عما يصفون .

وجلس الكاهن الأعظم وقال :

— سأقرأ لك الآيات التي تروى كيف احتالت إيزيس حتى عرفت الاسم الأعظم للإله ، إن من يعرف الاسم الأعظم تسحر له قوى الكون وتتهتك أمام عينيه حجب الغيب ويستطيع أن يفعل ما يريد .  
وصمت الكاهن قليلا ، ثم راح يقرأ :

— في العصور الغارقة في القدم ظهر إله الشمس « رع » على الأرض ليحكم العالم ، فثار عليه الآلهة والناس ، ولكن « رع » انتصر عليهم وحكم رمنا طويلا في أمن وسلام كملك على الناس والآلهة جميعا .

واستتب له الملك طالما كان مستمتعا بجميع قواه ، بيد أن شبابه لم يكن حالذا هدت فيه الشيخوخة ، فبيست أعضاؤه واستحالت عظامه إلى فضة ولحمه إلى ذهب وشعره إلى لارورد .

ونارت عليه رعيته ، وكان من الثائرين عليه الإلهة إيزيس وكانت أوسع حيلة وأدهى من ملايين البشر وملايين الآلهة وملايين الأرواح . كانت تعرف كل ما في السماء وكل ما في الأرض مثل الإله « رع » نفسه ، ما عدا شيئا واحدا لم تكن تعرفه وكان ذلك يحد من قوتها ، ألا وهو الاسم الأعظم : الاسم السري للإله رع .

كان رع ذا الأسماء الكثيرة يحتفظ باسمه الأعظم سرا إذ كانت

قوته مستمدة منه ، وكانت إيريس تحاول جاهدة أن تعرف هذا الاسم ، حتى إذا بلغ الإله من الكبر عتيا وسال لعبه من فمه وسقط لهيبه على الأرض ، عجنته إيريس بيدها مع التراب الذى امتزج به وصاغت منه دودة مكرمة .

وأقبل « رع » الكريم وهو يتألق تحف به آلهة القصر وراح يسير كعادته كل يوم ، فألقت إيريس الدودة المكرمة فى طريقه فلدغته ، فصرخ الإله المقدس فمه وشق صوت جلالته أجواز السماء ، وصاح مجمع آلهته « ماذا ؟ ماذا ؟ » وصاحت آلهته : « ما الخبر ؟ ما الخبر ؟ » فلم يجد لسانه ليحييهم وأخذت شفتاه تختلجان وأعضاؤه ترتعد واخترق السم لحمه كما يخترق انيل منكه .

ولما عاود قلب الإله العظيم هدوءه نادى حاشيته قائلا . « تعالوا إلى أنتم يا من خرجتم من جسمى ، أيها الآلهة الذين خلقتم منى ، لكي أحيطكم حبرا بما حدث : لقد لدغنى شيء فاجع مؤلم لم يعرفه قلبى ولم تره عيائى ولم تصعه يداى ولا أعرفه من بين كل ماصعته . إني لم أدق أبدا ألما شبيها بهذا الألم ولا يوجد ما هو أشد إيلا ما منه .

أنا عظيم ابن عظيم ، أنا ماء الحياة الذى تدفق من إله ، أنا ساحر ابن ساحر ، لقد ابتدع أبى اسمى وإن لى لأسماء كثيرة وأشكالا عدة ، وإن شكلى فى كل إله .

لقد حدثنى أبى وأمى باسمى بيد أنه مخبوء فى جسمى حتى لا يتغلب على ساحر أو ساحرة ، لقد خرجت أنظر ما صنعت يداى وأحتال فى القطرين اللذين خلقتهما وإذا بشيء لدغنى لا أعرفه . ليست هى البار وليس هو الماء . إن قلبى مفعم باللهيب المتقد وجسمى يرتعد

وجميع أعضائي تسرى فيها البرودة .  
والآن أدعو إلى أبناء الآلهة الذين يستطيعون الكلام بما يفهم  
وفيفد ، والذين لهم فم ذو معرفة وحكمة ، من بلغت حكمتهم عنان  
السماء .

عند ذلك حضر إليه أبناء الآلهة كل منهم مفعم بعمه ، وحصرت إيزيس  
بحكمتها وغمها الذى هو أنفاس الحياة وحديثها الذى يطرد الآلام ،  
وأخذت تقول : « ماذا .. ماذا أيها الأب الإلهي ؟ ما خطبك ؟ أدودة  
سست لك كل هذا الألم ؟ أشق عصا طاعتك ابن من أبائك ؟ إذن  
لأنتقم من بسحر مستمر ، ولأجعله يتلاشى أمام رؤية أشعتك .  
خبرني باسمك أيها الأب الإلهي . فمن يرق باسمك يبقى حيا إلى  
الأبد .

— أنا الذى خلقت السماء والأرض وأرست الجبال وأشأت ما  
عليها .

أنا الذى خلقت الماء ووهت العجل للنقرة . أنا الذى خلقت  
السماء وأسرار الأفقيين ووصعت أرواح الآلهة فيها .  
أنا الذى إذا فتحت عيني كان النور ، وإذا ما أغمضتهما كان  
الظلام ، أنا من يحرق ماء النيل بأمرى ، أنا من صعت الساعات  
فكانت الأيام .

ولم يخرج السم ولم يتعاف الإله فقالت له إيزيس :  
— إن اسمك ليس بين ما ذكرت من أسماء ، فانطق به حتى يخرج  
السم من جسدك ، فإن من يطلق بالاسم الأعظم يحيا .  
واشتد سريان السم فكان ألكى من لهيب النار ، ولم يعد روع بقادر



على أن يتحمل الآلام فقال لإيريس :  
— قربي أذنك مني يا أحتي حتى يتقل اسمي من جسمي إلى  
جسمك .

وباح رع لإيريس بالسر الخطير .  
وراح الكاهن الأعظم يقرأ في كتبه المقدسة وإبراهيم يصفى  
ويتعجب فإن في تلك الأساطير بصيصاً من نور الحق ، لمحات من  
قدرة الله الخالق الذي بنى السماء وطحن الأرض وجعل فيها رواسي  
وجبالاً ، وخلق الليل والنهار وجعل الشمس والقمر حساباً ، بيد أن  
ذلك الصيغ من الحق ضاع في رحمة ما جاءت به عقول الكهنة !  
واجتمع الملك وإبراهيم والكهنة ، ودار الحوار حول الآلهة  
والقرايين فقال إبراهيم :

— يا قوم اعدوا الله ما لكم من إله غيره . وما من إله إلا إله واحد  
هو خالق كل شيء .

— أتأمرنا أن نعد « رع » وحده الذي أبعد العواصف وأزحى المطر  
وحطم السحاب ؟ من يشرف على كل الآلهة ولا يشرف عليه إله ما ؟  
من سوى الناس بأصابعه و ...

فقال إبراهيم :

— إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار .  
— و « بتاح » و « أريس » و « ست » وآلهتنا الأخرى ؟  
— ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر ، إني لكم منذر مبین .  
— أتجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ آلهة السماء وآلهة الأرض ؟  
— لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا . وما كان معه من إله إذن لذهب  
( هاجر المصرية )

كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون .. إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستحيوا لكم إن كنتم صادقين . ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها ؟ ..

— ألهك يا إبراهيم خير من آلهتنا ؟ أيستطيع وحده أن يرعى السماء والأرض ، ويزحى السحاب ، وينزل من السماء ماء ، ويرسل الصياء ، ويشرف على الفنايين ويقود الجيوش فى الحرب ويزن أعمال البشر بعد الموت ؟

— أم خلق السماوات والأرض وأرسل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تستوا شجرها ؟ أإله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون . أم جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا ؟ أإله مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون . أم يحجب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ؟ أإله مع الله ؟ قليلا ما تدكرون . أم يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرى بين يدي رحمته ؟ أإله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون . أم يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ ومن يرزقكم من السماء والأرض ؟ أإله مع الله ؟ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين . قل لا يعلم من فى السماوات والأرض الغيب إلا الله وحده وما يشعرون بأين يبعثون .

— إذا كان إلهك وحده لا شريك له فمن الذى يرفع السماء معه ؟ — ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ... الله الذى رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس

والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدير الأمر بفصل الآيات لعلكم بقاء  
ربكم توقنون .

— وكيف تتقرب إلى ربك ؟ إنك مذ كنت بيننا لم تقدم له طعاما  
ولا شرابا ولم تنحر له قربانا .

— أتقرب إلى الله بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف  
والنهي عن المنكر .

— والذبايح ؟

— لى ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم .

واستمر الحوار حتى انتصف الليل ، فقام الملك والكهنة واصرفوا  
وهم فى حيرة من أمرهم .

لم يستقر إبراهيم في أوريس بل استأذن الملك في أن يسافر إلى عين شمس ومنف ليقابل كهنة « رع » و « بتاح » ، ولو كان الأمر استتب للهكسوس في مصر العليا لاستأذن في الذهاب إلى طيبة لمقابلة كهنة « آمون » ، فقد كان يرجو أن يبلغ رسالات ربه إلى الكهنة وأن يدعوهم إلى عبادة رب العالمين .

كان إبراهيم بطمع في إسلام القوم ، فقد استطاع بنفاذ بصيرته أن يحدد في عقائدهم التي رحررت بالحرافات ، وبصت بالأساطير بقايا عقيدة سماوية تعرف أن لهذا الكون إلها خلق الناس جميعا ، إلها يدعو إلى مكارم الأخلاق ويثيب المحسن على إحسانه ويجازي المسيء على إساءته ، إلها قادرا على بعث من في القبور ، وهو مالك يوم الدين .

أطلقوا على ذلك الإله « آتوم » ثم « رع » ثم « بتاح » ، وقالوا إنه خلق الإنسان من طين ، ورموا إليه بالشمس المموجة مرة ، وبالصقر في الجنوب مرة ، فقد حيل للقوم أن الصقر رفيق الشمس في علوها ، وأنه لا بد أن تكون الشمس صقرا مثله ، تطير عبر السماوات كل يوم ، وأطلقوا على ذلك الإله اسم « حور » وصوروه على هيئة قرص الشمس ذي الجناحين المنشورين .

كان القوم يعتقدون أن ثم إلها ، أيا كان اسمه ، قد خلق الناس

والشمس والقمر والنجوم وإن كانت الأساطير قد جعلت من صفاته  
آلهة تارة أو جعلت الآلهة صورا مه تارة أخرى ، فقد كان الآلهة  
جميعا صورا لبتاح ، وإن أوجدوا بصر الأعين وسمع الآذان وتنفس  
الأناف لتصل جميعها إلى القلب الذى يصدر كل قرار ، ليقوم اللسان  
بإعلان فكر القلب .

كان متاح هو القلب فى كل صدر واللسان فى كل فم ، وكان  
أرريس هو الذى يرعى الموتى ويحاسب البشر يوم البعث . إن القوم  
يؤمنون بالقيامة ، بالحياة بعد الموت ، بينا كان البابليون لا يؤمنون إلا  
بالعالم السفلى . فالأمر أيسر فى وادى النيل منه فى بلاد ما بين النهرين  
فى إقناع القوم أن الله خالق كل شىء وأنه قسب المؤس ولسانه وأنه قادر  
على أن يبعث من فى القبور دون إقامة تماثيل لهم ، أو بذل جهد  
للمحافظة على أحسامهم بالصلوات والقرايس والسحر .

وركب إبراهيم وسارة ولوط وإلغازر الدمشقى ومن معهم من  
المؤمنين قوارب فى الليل ، وكانوا على علم بالأنهار ولكن هذا الهر  
بدا لهم غريبا ، فهو يحرى من الجنوب إلى الشمال بينا كانت كل  
الأنهار التى عرفوها تحرى من الشمال إلى الجنوب .

كانت زهور اللوتس تغطى سطح الماء والتيار يحرف أمامه أجمات  
البردى ، والطيور المائية ترهف بأجحتها فى السماء والشمس ترسل  
أشعتها قمتلأ الكون سنى وضياء .

ومد إبراهيم عليه إلى الأرض السوداء المعتدة على جانبي الليل .  
كانت أشجار السحيل على مدى النهر ، وقامت ها وهماك أشجار  
الحميز والسط والتين والليمون واكتسى الوادى بحلة حصراء ، فسبح

إبراهيم لله رب العالمين .

وبلغ ومن معه أهرام الحيزة وكان كل شيء هادئا ، كان المعبد حاويا وما كانت الدبائح تنحر ولا الصلوات تتلى ولا الابتهالات ترتل . إن الملوك العظام الذين بنوا هذه الأهرام لصيانة أجسامهم من البلى قد أوقفوا على قبورهم ربع كل ما كانوا يملكون ، وعينوا كهنة جنازين يصلون عليهم حتى قيام الساعة لتقيهم صلاتهم شر الجوع والعطش والبرد في الحياة الآخرة ، وتمكنهم من الاشتراك في أعياد السنة والاحتفالات الدينية . كانوا لا يريدون أن يحرموا في الآخرة ما كانوا ينعمون به في الدنيا .

وسأل سائل من كانوا مع إبراهيم :

— لماذا ينتم هذه الأهرام ؟

فرد عليه كاهن كان يرافقهم :

— لكيما تخلد أجسام الملوك وتبقى سليمة حتى تعود إليها الروح

يوم يعيشون .

— إن من خلق السماوات والأرض قادر على أن يعثنا حلقا جديدا

إذا كنا عطاما ورفاتا .

قال الكاهن :

— وقد أقيم الهرم فوق جثمان الملك ، ليحيى فرعون أباه إله

الشمس عندما يبرغ من أفقه ، وليتمكن من رؤية رب الأفق عندما يطلع في عرض السماء .

قال إبراهيم :

— لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

قال الكاهن :

— إن الفراعين لا يموتون بل يأتون معظمين فى الأفق ، وما سافروا  
أمواتا بل سافروا أحياء ، سافروا ليعيشوا ، فهم يفرون من الموت ،  
ويتحدون بإله الشمس إذ هم من نسل الآلهة .

— إذا كان هذا حال الملوك ، فما مآل الناس ؟

— يصبحون بعد الموت فى رعاية أزرير .

— ومن يقدم القرايين لأرواحهم ؟

— أسرهم ومعارفهم وجيرانهم .

— وإذا انقرضت أسرهم وداق معارفهم الموت وعاب جيرانهم فى

القبور ؟

فشرد الكاهن قليلا ثم قال :

— لا بد أن للخلود طريقا آخر غير طريق القرايين .

فقال إبراهيم :

— من يعمل سوعا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا .

ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون  
الجنة ولا يظلمون نفيرا .

وانطلقوا إلى « عين شمس » وكانت أشبه بمعبد كبير ، ولا غرو  
فهى المدينة المقدسة التى ولد فيها الآلهة . كانت المسلات قائمة فى  
كل مكان ترمز لرع إله الشمس ، فذكرت إبراهيم وسارة ولوط بأبراج  
أور التى شيدت لسين إله القمر — وقد غصت الشوارع بالكهنة  
والمصلين .

وأشرف إبراهيم ومن معه على معبد الشمس الكبير ، وكان يقوم

وسط فناء واسع ويحيط به مر ححرى . كان عبارة عن مسلة حجرية فوق قاعدة عالية ، وتتألق قمة المسلة المدببة المموهة بالذهب فى أشعة الشمس المشرقة . وأمام المسلة كان المديح الضخم ، وكانت القرايين تقدم إلى الشمس فى الهواء الطلق .

دما إبراهيم ومن معه من المعبد فإذا بجانبه سفينة كبيرة بنيت جدرانها من اللس . إنها السفينة التى يعتقد القوم أن إله الشمس يسبح بها فى السماء كل يوم .

وعندما تطلع الشمس من المشرق فى الصباح وتطرّد الظلام ، تهلّل الكائنات الحية ، وتعلن القردة وهى حيوانات تحوت إله الحكمة ، تعلن برفع أيديها شروق الكوكب ذى العم .

وفى جانب من الممر الذى يفضى إلى قاعدة المسلة رأى إبراهيم نقوشا ذات ألوان راهية على الحدران تعرض ما يجرى فى فصول السنة المختلفة من تكاثر السات وتناسل الحيوان ومن أعمال الناس .

وأصغى إبراهيم ومن معه إلى تمجيدات « رع » إله الشمس من كهنة عين شمس :

— الصلاة لك يا رع عبد الشروق وأتوم عند الغروب ، إنك تشرق وتشرق وتسطع وتسطع متوجا كملك الآلهة . أنت رب السماء ورب الأرض من خلق الكائنات العليا والسفلى والنجوم والبشر .

أيها الإله الأحـد الذى كان منذ البدء ، من أنشأ العالم وخلق البشر ، من أنزل من السماء ماء وأحرى الليل ، من خلق الماء وأحيا ما فيه ، من أرسى الحبال وخلق الإنسان والدواب .

أصغى إبراهيم وهو يعجب من أمر هؤلاء القوم كيف قبلت عقولهم



التي سمت إلى مثل هذا التوحيد أن تعبد العجل والقرد والحبة  
والتمساح ، وأن تعتقد أن أرواح الآلهة تحل فيها ؟

كيف تصورت هذه العقول أن الإله يركب سفينة فاخرة يعبر بها  
السماء ؟ وأن للإله زوجة وابنا وأنه يعيش بين أسرته كما يعيش الناس ؟  
واجتمع إبراهيم وصحبه بكنهة عين شمس ودار الحوار واحتدمت  
المناقشات ، قال إبراهيم :

— ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء .. ما تعبدون من دون الله إلا  
أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم  
إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه .

وقال كبير كهنه « رع » :

— إنا نعبد « رع » الذي خلق السماوات والأرض والذي كان منذ  
البدء وخلق الناس .

— الله الذي خلق السماوات والأرض .. والشمس والقمر والنجوم  
مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين .

— إن رع يشرق علينا من أفقه ، فمن أين يشرق ربك ؟

— ربى لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف  
الخبير .. لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء  
وكيل .

وتدفق إبراهيم في الحديث وكان قوى الحجة يجذب القلوب  
وألقى إليه الكهنة أسماهم ولم يثوروا فقد تفتحت نفوسهم لدعوته  
ومالوا إلى دين التوحيد .

ثم انطلق إبراهيم ومن معه إلى منف والتقى بكنهتها وسمع صلواتهم

التي يرفعونها إلى « بتاح » الذي خلق إله الشمس وبرأ الآلهة وعرف  
الأسماء كلها .

ودارت الماشقات بين إبراهيم وصحبه وبين كهنة منف ، ولم  
تستخدم المناقشة ولم يثر الكهنة فإن دعوة إبراهيم كانت ترفعهم من  
الطبيعة إلى ما فوق الطبيعة ، كانت تدعوهم إلى التحرر من عبادة أصنام  
لا تضر ولا تنفع إلى عبادة إله واحد . له ما في السماوات وما في  
الأرض وما بينهما وما تحت الثرى .. وسع كل شيء علما .. لا إله إلا  
هو له الحمد في الأولى والآخرة .

وداع أمر إبراهيم بين الناس وإنكاره القرابين . إنه يقول إن الله لا  
يأكل ولا يشرب ، وأن التقرب إلى الله إنما يكون بالتقوى ، فامتنع  
الناس عن إرسال الهدايا إلى المعابد ، وأحس الكهنة خطر هذه الدعوة  
على مصالحهم فتأهبوا المناجزة لها .

ولما بعث دعوة إبراهيم كهنة آمون قالوا للناس إنها دعوة وفدت  
عليهم من بلاد الأعداء من أواريس ، وما قصد بها إلا النيل من آمون  
والتمكين لـ « ست » إله الهكسوس .

كان كهنة آمون مترفيس يملكون الصباغ ويكنزون الذهب  
والفضة ، وكان لهم على الناس سلطان ونفوذ ، فإذا انتشرت دعوة  
إبراهيم التي تقول إن المرء يستطيع أن يعد ربه دون وساطة كاهن  
ودون تقديم الهدايا للمعبد أو نذر الدور للإله ، فستذهب ربحهم  
ويتقوض سلطانهم .

بذر إبراهيم بذرة التوحيد وبذر معها بذور الثورة على كهنة آمون ،  
فراح الكهنة في أواريس وعين شمس وصف يجمعون الآلهة المتناثرة

فى إله واحد فجعلوا بتاح ورع وأزريس إلهها واحدا ، إلا أنهم لم يعتقوا دين إبراهيم خشية أن تدول دولتهم .

رحب الشعب بالتوحيد ورحب ملك الهكسوس بالدين الجديد ، إلا أن مصائر الأمة كانت كلها فى قبضة يد الكهنة ، وما كان الكهنة ليفرطوا فى سلطانهم أو يتنارلوا عن نفوذهم بنفوس طيبة .

وامتأذن إبراهيم فى الرحيل بعد أن أيقن أن الدين فى وادى النيل آل إلى سلطان الكهان ، وأن مصر ليست مهذا صالحا للرسالة وإن كان فى ديانة القوم بعض ما فى عقيدة التوحيد .

وأعطى الملك إبراهيم أنعاما وهدايا وخيرات وفيرة ، ووهب لسارة هاجر التى كانت بالأمس أميرة منف عظيمة الرشاقة سيدة القطرين .

وانطلقت قافلة إبراهيم من أواريس ، وكانت الأنعام والأعصام والجمال والحمير تثير الغبار والعبيد يسرون خلف القافلة . كانت قافلة تم عن ثراء عريض ، وما دار بخلد إبراهيم فى تلك اللحظة أن أتمس ما عاد به من مصر هى تلك الجارية التى وهبها الملك لسارة ، تلك الحارية السمرء الجميلة ، هاجر المصرية التى أراد الله أن يربط بيه ويبها الأسباب ليتم بوره ، إن هذا لشيء يراد .

وسار إبراهيم على رأس القافلة يسبح لله . إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حبيبا ولم يك من المشركين ، شاكرا لأعমে اجتياه وهداه إلى صراط مستقيم .

خرجت هاجر من أواريس وهي تحس أنها تتمزق من الحزن ، فقد تخلت عنها الآلهة جميعا فسقطت في الأسر وتركت قصورها ومجدها وعزها لقوم آخرين .

أعرض عنها بتاح ولم يحم عرشها رع ولم ينافع عنها حور المدايع عن أبيه ، وساقها أعداؤها أسيرة ذليلة إلى أواريس . لقد كانت تسمى الموت ولكن أزييس لم يرحب بها في مملكته ، إنها لم تتم يوما أن تدفن في أيلدوس ولكنها في هذا اليوم تتلف على أن تدفن في أرض مصر .

رفعت عينيها إلى السماء فحبس لسانها في حلقها وحرس صميرها ، فما كانت تدري لأي إله تنهل وقد خاصمتها الآلهة ، حتى دست : الإله الشرير طردها من أواريس .

كانت الشمس ساطعة ترسل أشعتها الذهبية فتير السبل وتسدد الظلام ، بيد أن هاجر كانت لا ترى شيئا .. كانت مشغولة بالتبه الذي تضرب فيه ، مشغولة بالضياح الواسع العريض ، كانت كالعريق الذي لا يجد من ينتشله ولا ينعم بالراحة في أحضان الموت .

وانسابت القافلة في أرض جوش ، ثم حطت رحالها فقام إبراهيم للصلاة واصطف المؤمنين خلفه . ونظرت هاجر أول الأمر في غير

أكثرات وسرعان ما وجدت نفسها ترقب القوم في اهتمام ، إنهم يصلون في الخلاء لا معبد ولا مذهب ولا كهان ولا إطلاق بحور ، إلا أنها أحست إحساسا عميقا أن الأسباب قد اتصلت بينهم وبين السماء . ترى أى إله هذا الذى يعبدونه ويقفون بين يديه هكذا خاشعين ؟ إنها لم تر تمثالا يخرون له ساجدين ، ولكنها رأتهم يركعون ويسجدون ويجهرون بالدعوات وقد تألق في وجوههم نور لم تر مثله في وجوه الكهنة العظام ولا رؤساء أسرار السماء . ودخلت هاجر على سارة في خيمتها وسألتها عن ذلك الإله الذى يعبدون ؟ فقالت لها سارة :

— إنه الله الذى لا إله إلا هو خالق السماء والأرض ، يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير .

— ومتى حكم على الأرض ؟

— ما كان ملكا أرضيا في زمن من الأزمان . إنه قديم قدم الأزل ، إنه الأول لا أحد قبله والآخر لا أحد بعده . الله الذى خلق السماوات ومن فى الأرض .. يعلم ما فى السماوات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون .. والله عليم بذات الصدور .. ومن يتوكل على الله فإن الله عسى عرير حكيم .. والله يرق من يشاء بغير حساب .. وإن الله لهو العسى الحميد .. وأن الله يبعث من فى القبور .. ليجزى الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب .

— أتعبدون إلها لا ترونه ؟

— إن كنا لا نراه فهو يرانا . إنه معنا فى كل وقت وهو معنا فى كل مكان يسمع سرنا ونجوانا . ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا

خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ، إن الله بكل شيء عليم .

— أيرعى وحده السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم  
والعواصف والرياح والأنهار ومن يغربون في العرب ؟

— من يغربون في الغرب ؟

— من يذهبون ولا يعودون .

— تقصدين الموتى ؟

— إننا نقول إنهم أحياء كأزريس الذي قام بعد الموت .

— ونحن نقول : إنهم أحياء عند ربهم يرزقون .

— أيرعى وحده هذا الكون الواسع العريض ؟

— ما هذا الكون في ملك الله إلا كثرة رمال في صحراء شاسعة .

لله ملك السماوات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير .

— إن لم يكن إلهكم ملكا على الأرض ولم تروه ولم تسمعوا صوته

فكيف عرفتموه وآمنتم به ؟

— إن الله يصطفى رسلا مبشرين ومدرين لئلا يكون للناس على الله

حجة بعد الرسل .

— أو تصدقون الرسل ؟

— إلههم يحسنون الحسن ويتبحون القبيح ويقولون لنا .. سيروا في

الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على

كل شيء قدير .. انظروا ما في السماء والأرض . أهلا ينظرون إلى الإبل

كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف

نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت .. سريهم آياتنا في الآفاق وفي

أنفسهم .

إنهم يفتحون أبصارنا وبصائرنا على آيات الله وعلى قدرته وعلى بدائع صنعته حتى نحس الله في أنفسنا .

وأذن بالرحيل وانطلقت العير وإبراهيم على رأس القافلة تتردد أنفاسه تسبيحا في معبد الكون . كانت القافلة تموج موجا بالإماء والعبيد والأنعام والأغنام والجمال والحمير ، وكانت الهدايا الفاحرة والذهب والفضة على ظهور الدواب . كانت قافلة قوية غنية بيد أن قلب إبراهيم لم يتعلق بمتاع الدنيا لحظة ، بل كان يتجه بكل كيانه آناء الليل وأطراف النهار إلى الله رب العالمين .

وانسابت القافلة في سيناء في الفضاء العريض وأخذت هاجر تقلب وجهها في الكون فخيّل إليها أنها ترى هذه الدنيا لأول مرة ، إنها تستشف جمالا رائعا في قصور منف وعين شمس وأواريس . امتلأت جوارحها حشوعا لم تحس مثله في معابد رع وبتاح وأوزيريس والآلهة الأخرى ، وكان صفير الرياح أوقع في نفسها من تراتيل المرتلين وعناء المغنيات وصلصلة الشخاشيح .

لقد كان الكاهن الأعظم يحدثها عن الإله الذي في نفسها والخور يتصاعد والقرايين تقدم على المذابح وتمائيل الآلهة أمام عبيها . فلم تحس يوما أن الله في أعماقها كإحساسها في تلك اللحظة التي حلت من الكاهن والبخور والمدبح والتماثيل .

إنها قريبة من الله تشعر بوجوده أكثر مما كانت تشعر بوجود رع وبتاح وأوزيريس وإن كانت ترى تماثيلهم ، وإن كانت القرايين تقدم إليهم ، وإن كان الكهنة يضمخونهم بالعطور المجلوبة من الأرض

## المقدسة !

وبامت هاجر فرأت فى المنام رؤى مجنحة ، رأت نفسها روحا هفهاة تسبح فى بحر من النور ، ورأت أن ماء طاهرا غسل صدرها وأزال الأدران عن قلبها ، وأن طيبا مس جسدها له عبير يفوق عبير عطور الأرض طرا .

و قامت من نومها وهى سعيدة بما رأت ، ولكن سعادتها انقلبت إلى دهشة عندما أحسّت رائحة الطيب التى شمعتها فى حلمها تملأ أنفها ، وراحت تشم نفسها وهى فى حيرة من أمرها . إنها لم تنطيب مند غادرت أواريس ، منذ وضعها الملك جارية فى يد سارة ، وحتى إن كانت تنطيت فشدّا هذا العطر الذى تشمه الآن يفوق شذا كل العطور التى عرفت طريقها إلى أنفها طول حياتها .

« ترى أما أزال أحلم ؟! أهذا الشذا الدكى وهم من الأوهام ؟ أبلغ تأثير الحلم أن أظل أشم ما كنت أشمه فى مامى حتى بعد بقتنى ؟ » . وسارت هاجر وهى فى حيرة من أمرها إلى حيث كانت سارة ، حتى إذا قالت لها سارة : « ما أطيب ريحك اليوم يا هاجر ! » أيقنت أن ما رآته فى منامها إن هو إلا رؤيا صادقة .

وقضيت الصلاة وجلس إبراهيم يعفه من معه فى أمر دينهم ، فراحت هاجر تصعى إليه متفتحة النفس حاصرة القلب تحس إحساس الفرح الذى أحسسته عندما رأت فى منامها أنها تسبح فى النور ، وأن ماء طاهرا صب فى جوفها فغسل صدرها وأزال أدران فؤادها .

إنها تشعر أنها خلقت خلقا آخر ، أنها ولدت من جديد . وراحت تفكر فى أمرها ؛ لقد حسبت أن الآلهة أرادت بها شرا لما تركتها



تسقط أسيرة في أيدي أعدائها ، فإذا بها ترى الآن أن الله أراد بها  
الرشد ، أراد لها الهداية ، أراد لها أن تكون مؤمنة في قافلة الإيمان .  
أحست أنها كانت سجين في قصر صف وأن الله أطلق سراحها .  
أنها كانت أسيرة أو هام وأن الله حرر روحها وأزال عن عيبيها عشاوة  
الضلالة .

كانت تفتسل قبل أن تذهب إلى المعبد فكان الماء يطهر جسدها ،  
أما روحها فتبقى عارقة في الدنس ، أما اليوم فإن قليلا من الماء يجعل  
روحها تتألق بالنور .

كانت تصعى إلى الكاهن وهو يتلو صلواته وإلى المرتلين وهم  
يرتلون تمجيدات الآلهة وإلى المغنين والمعنيات وهم يترمون بعضمة  
الأرباب دون أن تفعل أو يرتجف قلبها . كانت حاصرة ثم بحسدها  
أما ذهبها فكان يحرق وراء الموائد التي سوف تقيمها لأصحابها ووراء  
رحلات الصيد والمرح التي سوف يحرقون إليها .

كانت سيدة القطرين عظمة الفضل عظمة الرشاقة ، كانت فارغة  
لا تحس سموا وإن قالوا لها إنها من سل الآلهة . أما اليوم فهي عظمة بالله  
قوية بإيمانها عريرة بالروح الجديد الذي سرى في جنباتها . إنها تهلل  
بالفرح وتعمرها سعادة عارمة كلما وقفت بين يدي الله وأحست بفيض  
نوره يغمر قلبها .

أن تكون حارية تنعم بالأس بالله ويتحنى لها نوره ويدخلها في  
رحمته ويحريها جزاء المحسنين أحب إليها من أن تكون أميرة على  
القطرين تحبط في الضلالة ، جرائها في الآخرة حراء الجاهليين .

واطلقت القافلة في طريقها إلى « بيت إبل » وراحت ترقى

مرتفعات جنوب فلسطين . كان الليل حالك الظلام وكانت النجوم  
تتألق في السماء ، وكان الهواء يهب رحاء ، وكان كل شيء حاشعاً لا  
يعكس الكون إلا أخوار الثيران و ثعالب العم و حبيس الإبل ، وأحسست هاجر  
أن الله يتحلى على الكون فنادت هي الظلمات أن لا إله إلا أنت  
سبحانك ، إني كنت من الظالمين .

دخلت القافلة بيت إيل ، وعلى رأسها إبراهيم ، فسجد على قتب  
 بعيره شكراً لله على ما أولاه من نعم . فها هو ذا يعود إلى محرابه  
 ليستأنف دعوته ويبلغ رسالات ربه .

كان إبراهيم مع الله منذ نظر في النجوم في أور ثم منذ خرج إلى  
 حاران ومنها إلى الأرض التي بارك الله فيها للعالمين . فإن كانت سارة  
 قد وقعت أسيرة في أيدي الهكسوس فقد كان ذلك لحكمة لا يعلمها  
 إلا الله ، وقد تقبل ما نزل بسارة بقلب مؤمن يثق أن الخير فيما احتار  
 الله .

إنه يعود من مصر راصياً مرصياً . لقد ذهب إليها بقلب سليم لم  
 يراوده شك في أن الله إنما قاده إلى هاهنا لتتم كلمته . لقد أسسم وجهه  
 لله يوجهه حيث يشاء ، أسلم له وجهه مدأمره بالهروب من أور ثم من  
 حاران .

كان إذا سرغ نزع من الشيطان استعاذ بالله وتوجه إليه بقلبه وروحه  
 ووجدانه ، إنه لم يمس الله لحظة في الليل والنهار ، في الصحراء  
 المترامية والحقول الخضراء ، في قصور الملوك ومعابد البابليين  
 والسوريين والمصريين ، في البر والبحر ، في السر والعلانية ، فأينما  
 كان فإن الله معه يهيم له بصيرته ويرشده إلى الهدى ، ولا غرو فهو حبل  
 الرحمن .

ونظر الكعانيون إلى القافلة وفي عيوبهم دهش وفي قلوبهم خوف ، لقد فرغوا إلى ملك مصر لينقدهم من ذلك الشبح الذي جاء يدعو إلى دين غير دين آبائهم ، يفرق بين المرء وروجه والأخ وأخيه والأب وبنيه ، فإذا ملك مصر يكرم وعادته ويعطيه العبد والإماء والأنعام والأغنام والإبل والحمير ، ويسلح رحاله بأسلحة المراعين الحديثة . كانت رحاله في عدة القتال كثيرا عديدهم ، والأنعام والماشية والإبل تسير في قطار طويل لا يعرف أوله من آخره . إن لإبراهيم اليوم لملكا عظيما ، ولكنه كان يسير متواضعا لله شاكرا لأنعمه . ولم يتسع قلبه لهذا الغنى العريض فقد كان الله يملأ أقطار قلبه ، وكان هو على يقين من أن هذه الأموال إن هي إلا عرص رائل وأن ما عند الله خير وأبقى .

كانت المراعى المحصر تمتد إلى مدى البصر فراحبت الأنعام برعاها ، وحف السوسة إلى الآبار يملأ سقاء القوم وهاجر معهم . لقد كان النيل يجري تحت شرفتها والمعون يرتلون له الأناشيد تمجده وتسبح بحمده ، إلا أنها لم تكن تحس نحو النيل ذلك الشعور العريب الذي يملأ نفسها وهي تنقى بدلوها في العر . إنها تحس كأن بينها وبين البحر ألفة وأن إحساسا عربيا أحادا كله بشوة يربط بينهما .

عادت هاجر تحمل حرتها وهي سعيدة وسارت بين الإماء وهي تصحك ، فقد أسيت أنها كانت أميرة . إنها الآن مؤمنة بالله الذي يملأ نفوس عباده عزة وكرامة وآملا عراضا تسمو بصاحبها فوق هذا الكون وفوق ماديته التي تشد الناس إلى الأرض وتمنعهم أن يحلقوا في السماء .

كانت هاجر راضية لأن الله أراد لها الرشد وهداها إلى عبادته ، وكانت لا تمتناً بحمده على هذه النعمة ، كانت إذا قامت للصلاة جرت على خديها الدموع وإذا سجدت أطالت السجود ، وما دار بحلدها أن الله ما بعث برسوله إبراهيم إلى مصر إلا ليعود بها . فهي الدرة العالية في قافلة الإيمان ، وهي الجوهرة التي بارك الله فيها والتي يعدها ليوم عظيم .

وراحت هاجر ترقى الحبل ، فهناك تحت ظلال غابات البلوط نصب إبراهيم حيامه بالقرب من المحراب . فلما بلغت القمة نظرت شرقاً فإذا وادى الأردن الحصب على صفى النهر . كان كوادى النيل يرهو بحضرته ، كان في وسط الصحراء حبة فيحاء تسر الناطرين ، إلا أن هاجر لم تهلل بالفرح فقد أعرضت عن الدنيا ورببتها . كانت نفسها تنوق إلى حبة الله التي تجرى من تحتها الأنهار خالدة فيها أبداً .

والفتت وراءها فإذا البحر العظيم الذى تقع على شاطئه بلادها المحبوبة تتلاطم أمواجه ، فلم تهف روحها إلى وادى النيل فإبما هي في شوق إلى الله الذى وهبته نفسها

ومدت بصرها إلى الأفق البعيد حيث أطلقت السماء على الأرض وقرص الشمس الأحمر يعوص في الماء ، وتلون الكون بلون الشفق وصبغت حواف السحب الفضية بلون وردى أحاد .

وأحد المطر العجيب يتشكل ويتلون ويتبدل في تتابع يسى العقول ويهز المشاعر وتهلل له النفوس بالمرح الفياض ، وتهيم في روعته الأرواح لتذوب في ملك الله ، وهتفت كل حلجة من حلجات هاجر :

— ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه !

ودخلت الخيمة وجلست إلى جوار سارة وأخذتا بأطراف الحديث ، فقد أحبت كل منهما الأخرى وراحتا تتافسان في عبادة الله .

وشردت هاجر فاحترمت سارة صمتها ولم تبس بكلمة وإن راحت ترقب الانفعالات التي كانت ترتسم على وجهها . ورفت على شفتي هاجر بسمة وسرعان ما انطلقت ضحكة ، فقالت لها سارة :

— ما الذي أضحكك ؟ أضحك الله سك

— تذكرت أني كنت أعبد العجل والقرد والقطة والتمساح والنعان وفرس البحر ، وأنني كنت أعتقد أن روح الآلهة تحل في أحساد هذه الحيوانات فضحكت .

وفي الليل التف الرجال والنساء حول إبراهيم وأنقوا إليه سمعهم فراح يحدثهم عن الله من له ما في السماوات والأرض العني الحميد . من يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ويسحر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى ، العلي الكبير . كان حديثه أحادا بأحد بمحامع القلوب ، وكانت هاجر تصغي إليه بنفس متفتحة تحس كأن فيضا من الحكمة يسكب في وجدانها فيملأ بصيرتها نورا .

وانفض الجمع وقام كل إلى خيمته .

ثم حشع الكون وهت بسائم بدية وعمر المكان نور لطيف ، وسرت همهمات كنسبيح الملائكة ، وبدا أن الأرض تنقي وحي السماء .

وتألق النور في حيمة لوط وعشيتها أمن وسلام ، واشرح صدر لوط

ورقت مشاعره وسمت روحه وتفتح فؤاده ، فقد كان يتلقى ما برل به الروح الأمين .

وتنفس الصبح فانطلق لوط إلى إبراهيم ، من آمن له وهاجر معه إلى الله ليهديه سواء السبيل ، وقال :

— أرسلت إلى أهل سدوم .

— فاصدع بما تؤمر ، وبلغ رسالة ربك .

وراح لوط يجمع أهل بيته ورجاله وعبيده وإماءه وأنعامه وإبراهيم يرقبه في فرح وحب ، فقد اصطفاه الله وأرسله ليدعو أهل سدوم وعمورة إلى الصراط المستقيم وفصله على العالمين .

وحانت ساعة الرحيل فحقق قلب إبراهيم رقة ، فقد تسي لوطا ولم يفترفا أبدا منذ خرجا في سبيل الله من أور ، لم يمارقه في حاران ، وهاجر معه إلى الأرض التي بارك الله فيها للعالمين ، وهبط معه إلى مصر ، وعاد معه إلى بيت إيل ، وكانا أبدا على أهبة الرحيل ليطلقا إلى حيث يشاء الله .

لم تكن لهما إرادة فالإرادة كلها لله ، ولم يكونا ليعلما أين مكابهما في الغد فالعد من عيب الله ، وهو وحده علام الغيوب . لقد أسلما وجهيهما لله والله يحكم بما يريد .

وتعانق السياد ، وراح الرجال يودعون الرجال ، وحمل لوط روحه وابتيه وسار على رأس القافلة إلى الأردن إلى حيث أمره الله ليدعو الناس إلى الهدى والرشاد .

وأوعلت القافلة في الأفق البعيد وإبراهيم يرصدها من فوق الجبل ، حتى إذا غابت عن عييه دخل محرابه وراح يصلي لله ، وأحس أنه صار

فردا بعد أن تركه لوط ، وتحركت الأبوة في أحشائه فأخذ يدعو الله :  
— رب هب لى من الصالحين .

وسمعت سارة بداءه فسرى في جنباتها حزن عميق ، إنها عجوز  
عقيم فأبى يكون لها ولد ؟ وراد أساها أن زوجها الحبيب يشتاق أن  
يكون له ذرية وهى تعجز أن تحقق له ما يتمنى .

فعادت إلى خيمتها كسيرة الفؤاد يترقق الدمع فى عينيها ، ليتها  
تستطيع أن تهتدى إلى ما يرجوه خليل الله ، لقد دعت الله سرا وعلانية  
فى الليل والنهار أن يهب لها من تقر بهم عين زوجها الكريم ، إلا أن الله  
لم يستجب دعاءها إن الله عليم خبير .

ومن حلال دموعها رأت هاجر تصلى لله فى خشوع وعبراتها تسيل  
على خديها ووجهها يتألق ببور الإيمان العميق . فى تلك اللحظة طافت  
بدهن سارة فكرة ؛ إن كانت هى تعجز أن يكون لها ولد فهى تستطيع  
أن تهب لزوجها جاربة من حوارياها ، فإن أنجب منها تحقق له ما  
يرجوه واتحدت هى من المولود ولدا لها .

وعادت تنظر إلى هاجر فى إمعان وشرذ دهنها : « ولماذا هاجر ؟  
لماذا لا تهب زوجها جاربة أخرى ؟ » :

« إن هاجر شابة وصاة مؤمنة تعبد الله محلصة له دينها وتقيم  
الصلاة لذكره . »

« بين الحوارى الآخر عابدات خاشعات مؤمنات ومهين من  
تفوق هاجر حسنا . »

« عاشت هاجر فى بيت الملك فهى ذات فضل ، وهى خير من  
تكون أما لابس صالح من ذرية إبراهيم رسول الله وخليله . »



وهمس في جوفها هامس : « لعل الله أوقعها في الأسر وساقها  
أسيرة إلى أواريس لتوضع في يدي فأهبها إلى الحليل ، لعل الله  
اصطفافها لتكون أما للوارثين » .

ولم تطمئن سارة إلى هواجس نفسها وآثرت أن تنتظر أمر الله في  
هاجر ، فإن أمرها أن تهبها له فعلت وهي راضية النفس مستريحة  
الضمير ، وإن أمرها أن تعرض عن هذا فعلت ، إنها لا تعصى لربها  
أمرًا .

دخل لوط وروجه وابناه الصغیرتان وعبيده وإماؤه ورجالہ ومواشيہ  
مدینة سدوم وكانت تعص بالناس ؛ الرجال والنساء والولدان  
والحواری فی الأسواق یموح بعضهم فی بعض كأنهم جراد منتشر ،  
والدور علی جاسی الطريق ترهو بتهاویلها ورحارفها ، وامتدت وراء  
المدینة وعن یمینها ویسارها حقول خصراء شمرات محتلفة ألوانها تسر  
الناظرین .

كان کل ما فی المدینة یطلق بالثراء العریض ، فانطلق لوط وهو  
یسبح لله لا یجد عسبه إلى ما تزحر به المدینة من غنى ولا یدس قلبه  
الطمع فی متاع الدنیا . فقد هاجر إلى ربہ مدحرج من أور ، وكان  
کل ما یطمع فیہ أن یهدیه الله سواء السبیل ، فإذا بالله یصطفیه ویرسله  
إلی أهل سدوم وعمورة الذین شاعت فیهم الفاحشة ، لئلا یكون ساس  
علی الله حجة .

وراح ینفث وهو یعجب لأمر الناس ، فلم یقابل کأها ولم تقع عیبه  
علی معبد . لقد رأى المعابد والأبراج العالیة فی أور ، ورأى الکهان  
ومعابدهم فی بیت إیل ودارت بیهم وبنی إبراهیم ومن معه  
المناقشات ، ورأى معابد المصریین الفحمة ومسلاتهم وعاداتهم  
وصدواتهم كان یحد الناس فی کل مكان مر به فی سیاحته الروحیة  
یعدون الله علی حرف أو یجعلون لله أندادا ، أما هؤلاء الذین أرسا

إليهم فما كانوا يعرفون الله وما كانوا يبحثون عنه ، فقد صلوا صلاتا بعيدا .

ومرت القافلة على أناس في ناديهم فإذا هم يسبحون من القافلة وكل من فيها وارتفعت ضحكاتهم . ولم يكتموا بالهزاء بل أراد بعضهم أن يعث بيده ليصحك القوم فقام إلى العبد يعث في وجوههم وظهورهم ، فاردادت الضحكات الماحجة ارتماعا وانطلقت الكلمات الماحشة في وجوه القوم كالبحارة أو أشد قسوة .

وانتهز بعضهم غفلة من العبد واتشعلهم بسورة العصب التي هزت كيابهم فسرقوا بعض الأعمام وولوا هاربين ، وأهل سدوم ينظرون ويضحكون مستبشرين .

وتواصى لوط الصبر وسكت عنه غضبه وراح يطر إلى القوم وهو يحرص على هداهم يرجو أن يرحمهم من الظلمات إلى النور ، أن يرفعهم من مهاوى الحسد إلى رفرفات الروح .

إن كانوا سلقوهم بألسنة حداد أو كانوا أشعة على الحير فما جاءهم من قبل رسول ولا ندير ، وقد أرسله الله إليهم ليرشداهم إلى الخير ، ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفورا رحيما .

وصرب لوط حيامه حارح أسوار المدينة وراحت مواشيه ترعى في المراعى المحصر الممتدة على ضفتي نهر الأردن ، وأخذ يقلب وجهه في المكاد ؛ كان بحر الملح يحفص عن كل ما حوله انحفاضا هائلا ، وكانت الآبار الحمر تنتشر هاو هناك ، وكانت سدوم أمام عيبه تنظر مصيرها لا تدري أشر أريد بها أم أراد بها ربها رشدا ؟

ورأى لوط أن يذهب إلى ملك سدوم ليستأذنه في النزول بأرضه ويعاهده على أن يكون حربا على من حاربه ، فهو يذكر ما كان من الكنعانيين لما نزلوا بيت إيل ، فقد ذهبوا إلى ملك مصر وحرصوه على المؤمنين فأرسل حملة دهمتهم بديل فقتلت مواشيهم وأسرت سارة وعانت في حياهم هسادا ، وهو لا يريد أن يقع لهم في سدوم ما وقع لهم في بيت إيل .

انطلق لوط إلى القصر وكان الناس في ياديهم يشربون ويضحكون ويستهنئون بكل من يمر بهم . كانوا غارقين في الدنس يأتون المنكر على أعين الناس !

امتلات نفس لوط بالشحن وأحس أن الأسى يمزقه ، إنه لم يشهد في كل البلاد التي مر بها مثل هذا الفساد . لقد رأى العاهرات المقدسات في معابد عشتار يقدمن أنفسهن قربانا على مديح الشهوة باسم الدين ، ورأى احتمالات تمور بالخلاعة والتهلك والمجون باسم « باست » إله المرح رأس القطعة في مديس ، في الدلتا الشرقية لهر النيل ، رأى في كل بقعة من بقاع الأرض التي ساح فيها أباسا غارقين في الخطايا ، ولكنه لم ير الرجال يأتون الرجال على أعين الناس إلا في سدوم !

فسار وهو يتألم . كان يعلم أنهم قوم مفسدون ولكنه ما كان يحسب أن الفساد امتشرى فيهم إلى هذا الحد ، إلى حد أنهم لا يحافون يوما كان شره مستطيرا .

ورأى في الأسواق ألوانا من الظلم والاضطهاد ، ورأى السادة يصربون العبيد بالسياط ، ورجال الدولة يسومون الناس العذاب

والشهوات الدنيئة تركب في كل مكان ، والنساء يطلقن الزهرات  
حسرة على ما حاق بهن من ظلم عظيم .

ودخل قصر الملك وكان الجود على جانبي الطريق يحملون  
أسلحتهم ، بيد أنهم كانوا كأعجار بخل حاوية ، انطقاً بريق أعينهم أو  
كاد ، وذهبت بضارة شباههم واصمرت حلودهم . فقد امتلصوا  
أنفسهم للشهوات .

وبلغ قاعة العرش فتم تأخذه روعة الرخارف والتهاويل بل أحس  
إشفاقاً على هؤلاء الملوك نارلى القصور الديس يحسبون أنهم  
مخلدون ، وما دار بخلدهم أنهم يولدون للموت ويعمرون للحراب !  
وتقدم من المنث ولم يحر ساجدا بين يديه بل ألقى عليه السلام ،  
ثم أفضى إليه بما جاء يطلبه وهو مرفوع الرأس . فهو يستشعر بكل  
جائحة من جوارحه أن الله معه يشئ أقدامه ، فقبه لم يغفل لحظة عن  
ذكر الله فهو على نور من ربه أرسله بالهدى ودين الحق .

وخرج من قصر الملك وقد عاهده على أن يكون حرباً على من  
يحاربه وأن يصره على أعدائه ، وسار وهو يحمد الله رب السماوات  
والأرض ورب العالمين له الكبرياء فى السماوات والأرض وهو العزيز  
الحكيم .

وبلغ مشارف المدينة فإذا أناس يقطعون السيل يهجمون على  
القوافل فيسلبون الأموال ويسلبون الأولاد ويقتلون الرجال والنساء  
كأنهم الوحوش الضارية ، فقد غلظت أكبادهم ولم تعرف قلوبهم  
الرحمة ، أولئك هم شر البرية .

فذهب إلى حيامه وقام يصلى لله ويدعو ويطلب الدعاء ، ويستعفر

ويطيل الاستغفار ، يرحو رحمة ربه ويسأله أن يعينه على أداء رسالته ،  
فقد بعث إلى أشرار لا يفرقون بين الخبيث والطيب .

وتوكل على الله وانطلق إلى حيث كانوا يعاقرون الخمر ويرتكبون  
المواحش ويطلقون ضحكات الحلاعة والمجون وقال لهم :

— ألا تتقون ؟ إني لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعوا .

والتمت بعضهم إلى بعض يصحكون ، وقال لهم أحوهم لوط :

\* — وما أسألكم عليه من أجر إن أجزى إلا على رب العالمين .

فقالوا له وهم يستهزئون :

— أبشرا ما واحدا تنعه إنا إذا لقى صلال وسعر .

— إني رسول الله إليكم ، ربكم رب السماوات والأرض الذي

فطرهن وأنا على ذلك من الشاهدين .

— بل أنت كذاب أشر .

— أنأتون الذكران من العالمين . وتندرون ما خلق لكم ربكم من

أزواجكم ؟ بل أنتم قوم عادون .

— لئن لم تنته يا لوط لتكون من المخرجين .

— إني لعملكم من القالين .

ورفع عينيه إلى السماء وقال :

— رب نجني وأهلي مما يعملون .

ومرت الأيام ولوط يذره بطش الله فتماروا بالدر ، إنه لا ينقطع

عن استنكار ما يفعلون ، كن يذهب إلى ياديهم ويقول :

— أنأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ؟ إنكم

سأبون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون .

وأعرضوا عنه وهم يستهزئون وقالوا :  
— قلوبنا في أكمة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر .  
وضاقوا به فأذوه فكان يقول لهم :

— ولصبرن على ما آذيتموا وعلى الله فليتوكل المتوكلون .

ولم يقنط لوط . كان يدعوهم إلى الله ويحرفهم عذابه فكاسوا  
يضعون أصابعهم في آذانهم ويفرون منه وهم يسحرون ، لا يصدقون  
أن الله قادر على أن يرسل عليهم الطوفان فيأخذهم كما أخذ قوم نوح .  
ومرت أسون ولوط يدعو قومه إلى الهدية وتأتي قلوبهم . إنهم  
كأنوا قوم سوء فاسقين . وتآقت نفس إبراهيم إلى تسم أخبار لوط  
الذي آمن له وهاجر معه وآتاه الله حكما وعلمًا ، فدعا إبراهيم إليغار  
الدمشقي وكيل بيته وأمره أن يطلق لياثيه بحبر لوط وقومه ، فحرج  
إليغار من بيت إيل قاصدا سدوم .

فبلغها مع هبوط الظلام فزل عن ظهر حماره وربطه ثم دخل يبحث  
عن مكان يبيت فيه . وتقصى بعض الوقت وخرج فإذا به لا يجد  
حماره ، فأخذ يبحث عنه دون حدوى ويسأل هذا وذلك فلم يرشده  
إليه أحد ، بل وجدهم يأمرؤن بالمسكر ويهون عن المعروف ويقبصون  
أيديهم ، سوا الله فأسأهم أنفسهم إنهم قوم فاسقون .

وفي الصباح حرج إليغار إلى السوق وكانت الحوايت عاصة  
بالناس والدواب في عدو ورواح على الصريق ، فأخذ يطر وهو يعجب  
فأبكر تصرفات القوم !

وحانت منه الثفانة فإذا به يرى حماره الذي سرق منه بالأمس وقد  
اعتلى ظهره رحل من القوم ، فهرع إليغار إليه وأخذ يتلاييه والثف

حولهما الناس يظرون ، وحاول أكثر من واحد منهم أن يطلق الرجل من قبضة الإيعاز ، إلا أن الإيعاز قبض عليه بيد من حديد وطلب أن يذهبوا بهما إلى من يقضى بينهما بالعدل .

ووقف الإيعاز ومن سرق حماره أمام قاضى سدوم وراح الإيعاز يقص على القاضى قصته ، ولما انتهى منها كان على يقين أن القاضى سيقم الحد على السارق لا تأخذه فيه رحمة ، فالفضية واضحة لا لبس فيها ولا غموض .

ووقف سارق الحمار يقول للقاضى :

— وجدت الحمار فى الطريق فأحدثه وآوته وأطعمته ، وإبنى أطلب أجر إيوائه وثمر طعامه .

وتأهب القاضى ليطبق بالحكم فأرهب الإيعاز سمعه ، فلما نطق القاضى بحكمه ارتسم على وجه الإيعاز الدهون ، إنه لا يصدق أذنيه ، فما كان ينتظر حتى من قاضى سدوم مثل ذلك الحكم ، فقد حكم القاضى بأن يدفع الإيعاز للسارق أجر إيواء حماره وثمر طعامه !

سار الإيعاز وهو مطرق حزين ، فقد رأى فى بلاد الله أشرا را محرمين ولكنه لم ير قوما فاسقين ظالمين كافرين كقوم لوط ، ترى كيف يجادل لوط مثل هؤلاء المفسدين ؟ أهلكون إليه السمع أم يستهزئون به ؟

— وبلغ الإيعاز حيام لوط فما إن رآه لوط حتى هرع إليه يستقله ويرحب به ويسأله عن إبراهيم . وأحد الرحلان يتناحيان بالمعروف ، ثم خرج لوط ومعه الإيعاز ليدعوا قومه إلى الله ، قال :

— يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، يا قوم اتبعواي أهدكم



سبيل الرشاد ، يا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع ، يا قوم لا يحرمكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح ، يا قوم ما لى أدعوكم إلى النجاة وتدعونى إلى النار ؟ يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول رب العالمين .

وقال إليعازر :

— يا قوم اتبعوا المرسلين ، يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء .

— إنا بالذى آمتم به كافرون .

— يا قوم إنى أخاف عليكم عذاب يوم شديد .

— اثنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين .

— إلا تؤمنوا يعدكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم .

— لئن اتبعناك إنا إذا لخاسرون .

— إياكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ،

أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى نادىكم الممكر .

فما كان جواب قومه إلا أن قالوا :

— اثنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين .

قام إبراهيم ومن معه للصلاة على قمة الجبل في بيت إيل وقد بدأ  
الظلام يحسّر عن الكون ، وأنفاس النهار البدية تتردد في حباته ،  
وبحوم السماء الصافية تسبح لله مع المستعفرين بالأسحار ، وعق  
المكان بروائح زكية لكأنما ملئ ما بين السماء والأرض مسكا .  
وسكنت أبدان الأبرار ، واستعرت القلوب بذكر الله واتصلت به  
واستارت بأبواره ، وتفتحت الأفقذة لتلقى الحكمة التي تسكب من  
السماء لثملاً للجوانح وتثير البصائر .

وقامت هاجر تصلى ووجهها يتهلل بورا فقد وهبت نفسها لله  
ودافت حلاوة محنته ولم تعرف الوحشة بعد أن عرفته . كانت  
تستأنس به وتطيل السهر معه فطهر قلبها وملأه محبة وأما .

صارت تحب الله وتحب من يحبه فأتسع فؤادها لكل المؤمنين وكل  
ما تقع عليه عيناها في الأرض أو في السماء . كانت ترى قدرته في  
البحر إذا هدا وفي البحر إذا تلاطمت أمواجه وارتفعت كالحبال ، في  
السماء إذا صمت وتلاأت فيها الحجوم وفي السماء إذا تلذت بالعيوم ،  
في الأرض إذا أنتت ررعا محتلفا ألوانه وفي الأرض إذا قامت فيها  
انحنا الجرداء الشاهقة البيض والحرر محتف ألوانها وغرايب سود .  
كانت تستعفر الله آناء الليل وأطراف النهار ، حرمت على عيبيها  
لديد النوم وكيف نام وقد تعلمت من رسول الله أنما هي أنفاس تعد

وأيام تنقصى وعمر يقضى ، ثم لقاء الله .  
إنها وصلت حلها بحول الله .. وبانت تخشى أن يطلع على قلبها  
فيجده مشغولاً بسواه ، أعرضت عن الدنيا وزيتها ونسيت أيام كانت  
أميرة في صف . ولم تعد تلك الأيام تخطر على قلبها أو تطوف بها ،  
وإن استرجع ذهبها ذكريات تلك الأيام لحظة سارعت بحمد الله الذي  
أخرجها من الظلمات وأبَار لها سبيله .

كانت في حيام إبراهيم تحس في كل شيء رحابة : رحابة في  
النفس ورحابة في الروح ورحابة في البصيرة ورحابة في القلب رحابة  
كادت تنسع للأرض والسماء . وعمرتها سعادة فياضة فقد تعلمت أن  
آدم لما عصى أوامر ربه كان سجين نفسه المعذبة وإن كان في الجنة ،  
وأن إبراهيم لما أُلقي في النار كان في سلام ، لأنه أسلم وجهه لله رب  
العالمين

لا القصور الفاخرة ولا الرياض الراهرة ، ولا المال الممدود ولا  
الجاه العريض ، ولا السلطان الممين ولا التحكم في الرقاب يجلب  
السعادة ، إنما الحنة في النفس المطمئنة الراضية المرصية ، هي أن  
تعيش في سلام مع السلام .

وقامت هاجر تشرف على الإمام تشاركهن أعمالهن وترعاهن  
وتحوطنهن بحبها الكبير ، وذهب إليغارر الدمشقي ليشرف على  
العبيد ، وآوت سارة إلى حيمتها لترعى شؤون القبيلة وتعد العدة  
لاستقبال الصيف ، فما انقطع وفود الصيف ليلة إلى حيام رسول الله  
الكريم .

انصرف الرجال والنساء وبقي إبراهيم وحده في المحراب يصلي لله

ودموعه تجرى على خديه ، ورق قلبه وصفت نفسه وسمت روحه لتتصل بالسماء ، فإذا به يحس ما كان يحسه عندما يتلقى وحى الله .

— ارفع عينيك وانظر إلى المشارق والمغارب . وسوف يعطيك الله هذه الأرض ويورثها ذريتك .

ونظر إبراهيم من مكانه إلى مشارق الأرض ومغاربها ، إلى الهلال الخصيب وأرض الكنعانيين وأرض الحجاز ووادي النيل ، إنه قد ساح سياحته الروحية في كل هذه الأرض إلا الحجار ، ترى أيا أمره ربه أن يخرج إليه ؟

ورن في أذنيه صوت الوحي واصحاح .

— وسيجعل الله في ذريتك النبوة والكتاب . اضرب في الأرض حيث يشاء الله .

— هذا رحمة من ربي .

وعده الله أن يعطيه مشارق الأرض ومغاربها ، وكان وعد الله حقا ومن أصدق من الله قيلا ؟ ووعدته أن تكون الأرض لذريته من بعده ولا يحلف الله وعده . لقد قل ربه صلاته ودعائه ووعدته أن يهبه من الصالحين .

وراح إبراهيم يفكر ممن تأتى ذريته وسارة عمجور عقيم ؟ لو أن ذريته الموعودة كانت من سارة لما تأخر وعد الله فهي معه منذ تروجا في أور قل أن يؤمر بتليغ الرسالة بسنين ، أيام كان يقلب وجهه في ملكوت السماوات والأرض ليكون من الموقبين .

إنه أسلم وجهه لله وأطاعه مد أمره أن يخرج من أور ثم من حاران وبخاه من نار المكديس . ولم تذهب نفسه شعاعا يوم وقعت سارة في

الأمر فقد كان على علم أن هذه إرادة الله ومشيتته وأن الله تعالى فعال لما يريد .

إن حكمة هبوطه إلى مصر لم تتضح بعد لعبيه إلا أنه كان على يقين أن ذهابه إلى مصر لم يكن عبثاً ، فما ساقه الله إليها ليحادل كهانا لم يؤمنوا برسالاته ولا ليعود بأموال وأنعام وعبيد ، بل لا بد أن يكون لوفوده عليها شأن أعمق من ذلك وعزم على ألا يفكر ممن تأتي ذريته وتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره .

لقد أوحى إليه أن اضرب في الأرض وها هو ذا يكاد يستقر في بيت إيل ورسالاته لم تتم بعد . إن الله يأمره أن يخرج ليشر ديه في المشارق والمغرب فليس ديه الله لأهل حاران وحدهم ، ولا لأهل سورية ولا لأهل فلسطين ولا لأهل مصر ، بل للناس كافة لا فضل لقوم على قوم إلا بالتقوى .

وراح يفكر فيمن معه من المسلمين ، إن منهم من خرج معه من أور ومنهم من آمن له في حاران ، ومنهم إليعازر الدمشقي وهاجر المصرية ، إنهم مؤمنون من بلاد دخلها شرح الله صدرهم للإيمان فآمنوا وأتم نعمته عليهم ، فإن استقر في بيت إيل فس تبلغ رسالة ربه المشارق والمغرب ، وسيكون للناس حجة على الله فما بعث إليهم رسولا .

أمره الله أن يضرب في الأرض ليدعو الناس إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة والله يهدي من يريد .

ودهب إبراهيم إلى سارة وأبلغها ما أوحى الله إليه ، قال لها إن الله وعده أن الأرض يرثها ذريته من بعده فتهللت أسارير سارة بالفرح ، فقد

كانت تحس نياط قلبها تتمرق كلما سمعت روجها الحبيب يتهلل إلى ربه ويدعوه بالأسحار ودلوك الشمس وغسق الليل : « رب هب لى من الصالحين » ، فإذا بره يستحيب له ويعده بدرية بعدد نجوم السماء وذرات الرمال !

سيهب الله لروحها من الصالحين ، سيكون له الولد الذى طالما اشتهاه فى أور وحاران وفى كل بقعة من بقاع الأرض وطقتها قدماء . لقد كانت تحس ما يقاسه زوجها من حرمان كلما ارتفعت فى الحيام صرحات وليد ، وما أكثر الصرحات الحسية التى تجاوزت فى المصاء لتملأ فراغ القلوب .

وسدت سارة أن ترضع ألف طفل يوم ترضع غلامها . علامها ؟ إنها عجوز عقيم . كيف تلد وهى عجوز عقيم ؟ إن الله بشر روحها بالذرية ولم يقل له إن هذه الذرية منها ، من أساء بطها ، لعل هذه الذرية تخرج من بطن آخر ، بطن غير بطن الزوجة التى أمصت شبابها كنه مع زوجها دون أن يقدر الله لها أن تحمل .

إنها هى العقبة فى تحقيق وعد الله ، فقد أبى إبراهيم أن يتحد زوجة ثانية ، وإن كان من حقه ما دامت هى لم تلد أن يتحد زوجة أخرى تسمحها الولد ويكون ذلك الولد ولده وولدها ، ولكنه يحبها وعزير عليه أن يطعمها فى كبرياتها .

إنها هى العقبة فى أن يكون لزوجها ذرية ، أنانيتها وحها نفسها هما اللذان حرما روحها ما يتمناه ، صار الأمر واضحا بعد أن أعلن الله وعده ، فإن كانت مؤمنة حقا وتحب الله ورسوله أكثر من حبها نفسها فلتهب له جارية من حواريتها ليتحقق وعد الله .

كم يشق على نفسها أن تقدم بيدها امرأة أخرى إلى روحها ليجب  
مها درية ترثه وتصح تلك الدرية آل إبراهيم ، وإنه لآلم لنفسها وأوجع  
لقلها أن تكون عقبة في سبيل إرادة الله وهي المؤمنة التي وهبت روحها  
لرب السماوات والأرض رب العالمين .

لو أن الله أعد مشيئته لصدعت لأمره راضية النفس مستريحة  
الصمير ، أما أن تقل على عمل لا تعرف مغيبته ولا تعرف إن كان الله  
يتقبله بقبول حسن أم أنه يرعب عنه فذلك ما يجعلها في حيرة من أمرها  
لا تدرى أيا ن سيبها .

ودخلت عليها هاجر يتهلل وجهها بورا فأحدث تحذجها طويلا ،  
إن قلبها ليهمو إليها ، وإنها لعلى يقين من أنها أصلح من تحب لروحها  
الدرية الصالحة إن كتب الله عليها ألا تكون الدرية منها . إن شعورا  
حميا يهتف بها أنها الموعودة وأن الله ما ساق إبراهيم إلى مصر إلا ليعود  
بها لثتم إرادته ويكون وعد الله معولا ، إلا أنها أصمت أدنى سريرتها  
عن تلك الهتافات ، إنها تنتظر أن يعلن الله مشيئته واصحة كفتق الصبح  
تسدها وهي ناعمة البال ، فليس لها من الأمر شيء وإلى الله ترجع  
الأمر .

وأذن إبراهيم بالرحيل هرفت الحيام ، وراح إليعارر الدمشقى  
يشرف على العبيد وهم يسوقون قطعان الإبل والماشية والعسم ،  
وراحت هاجر تشرف على الإماء وتسهر على راحتهن وكات أراف  
بهن من الأم الحنون .

وسار إبراهيم على رأس القافلة التي أمر الله أن تصرب في الأرض  
لتعبد للملا أن لا إله إلا الله ، واسابت والقلوات تردد تسبيحها حتى

أشرفت على حيرون ( الخليل ) .

وكانت سارة تنظر إلى المشارق والمغارب ، إلى الأرض التي سوف ترثها ذرية إبراهيم وهي قرية العين ، فقد راضت نفسها على الرضا سواء أكانت هذه الذرية الصالحة منها أم ممن يشاء الله من عباده .

ولاحت بلوطات عمرا بأوراقها الوارفة الظلال فأمر إبراهيم أن يحط الرحال تحتها ، ونصبت الخيام وذهبت سارة لتسترجح وما لبثت أن دخلت عليها هاجر ووجهها يتألق بنور الإيمان ، فعادت همسات النفس تهمس : « إنها الموعودة ، إن الله أراد أن يشرفها وأن يربط بين بلادها وبين أنبيائه الأسباب » ، فرفعت سارة رأسها إلى السماء وقالت في إيمان عميق :

— ستجدني إن شاء الله من الصابرين .



كانت سدوم تموج بالشباب إذا رأيتهم حسبتهم جنودا صاعدين ،  
كانوا فارعى الطول معتولى العضلات لا يكفون عن الصياح والشحار  
والقتال كأنهم وحوش فى غابة .

ونظر ملك سدوم إلى الشباب القوي الذى تموج به مدينته فخطرت  
له فكرة . إن الآشوريين قد هزموهم منذ اثنتى عشرة سنة ومرضوا عليه  
وعلى من حوله الحزينة ، وإنه ليعث بها إلى بلاد ما بين النهرين كل عام  
وهو صاعر ، فلماذا لا يثور هو ومن حوله من الملوك على هذا الخزي  
والعار ؟ ولكن أيسكت كدر لعومر ملك عيلام على هذا العصيان ؟  
يسكت أو لا يسكت إن سدوم وعمورة فى معة بفضل قوة رجالهما !  
وأرسل بارع ملك سدوم إلى برشاع ملك عمورة وشان ملك أدمه  
وإلى ملك صوبيم ، وراح يرين لهم العصيان حتى تعاهدوا على أن  
يشقوا عصا الطاعة وأن يفضوا عنهم ذلك الذل المهين .

ولأول مرة منذ اثنتى عشرة سنة لم تخرج الجزية من دائرة الأردن  
إلى بلاد الآشوريين ، وانتفخت أوداج الملوك الأربعة زهوا وراحوا  
يشنون روح الحماسة فى الشباب ويعبثونهم لموقعة حرية كبيرة إذا  
تحركت جيوش الآشوريين لتعيدهم إلى الخزي الذى ذاقوا مرارته  
سنين .

وغرق الشباب فى اللذة حتى آذاهم ، كانت سدوم تموج بالتترف

والفسق فالخمرور تجرى كالأنهار والفاحشة تمارس فى المحالس ما سبقهم بها أحد من العالمين ، كانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء إنهم قوم فاسقون .

وراح لوط يحوس حلال المدينة يهاهم عن المحشاء التى فشت فيهم ويخوفهم الله وعذابه ويدعوهم إلى سواء السبيل ، فكاسوا يستهزئون به .

كان يقول لهم إنهم يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأمعام ، وأن النار منوى لهم فما كان يزيدهم ذلك إلا كفورا .

ومسه التعب وضاق صدره واكتوى قلبه بالأسى ودب فيه اليأس .  
لقد قال لقومه كما قال هود لقومه : ﴿ يا قوم اعدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون . يا قوم لا أسألكم عليه أجرا إن أحرى إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون ؟ ﴾ ويا قوم استمعوا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويردكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين ﴿ .  
فكذبوه كما كذب الرسل من قبله ، فأت يحشى أن يحقق بقومه ما حاق بقوم هود .

وبلع الأشوريين أن ملوك الأردن أبوا أن يدفعوا الجزية ، فاجتمع كدر لعومر ملك عيلام وتدعال ملك جوييم وامرافل ملك شعار وأريوك ملك الأسار ينشاورون فيما يفعلون لتأديب العصاة ، فاستقر رأيهم على إرسال جيش حرار لإحصاع ملوك سورية وصرب كل من تمرد على سلطانهم .

وخرج الجيش فى جنود لا عد لها ، واهتزت الأرض واطلق الأشوريون يحضعون العماليق ويعيثون فى المدن فسادا ، فريقا يقتلون

وفريقا يأسرون .

ونظر إبراهيم من حبرون فرأى حدود الآشوريين يتدفقون كحراد منتشر ، كانوا هم طريقهم إلى سدوم ولكنه أخذ أهنته فإن اعتدوا عليه فسيقاتل الذين يقاتلونه ولن يدهمه أحد على عرة كما فعل جنود مصر ليلة أعاروا على خيامه وساقوا سارة أسيرة إلى أواريس

— إنه رسول السلام يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولكن إذا كتب عليه القتال فسيقاتل ، فانه يقول : ﴿ فَإِنْ قَاتَلَكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ، فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا ﴾ .

وَمَرَّ الْحَيْشُ دُونَ أَنْ يَمِيلَ عَلَى خِيَامِهِ ، وَأَنْطَلَقَ الْجُنُودُ إِلَى الْوَادِي حَتَّى إِذَا بَلَغُوا عَمَقَ السَّيْمِ عَسَكُرُوا فِي حَفْرَةِ الْقَارِ عَلَى أَبْوَابِ سَدُومَ .  
ولقد عاهد لوط ملك سدوم على أن يحارب من يحاربه ، وها هي دى جيوش الآشوريين تفرع أبواب المدينة ، أيوفى بعهده وأهنها فاسقون يستحقون العذاب العليط ؟ أيحرج لنصرة أناس قد يكون الله قد سلط عليهم هذه الحيوش بدوئهم ؟ أينفض عهده ويحلّ بهم وبين أعدائهم ؟

إن الله أرسله نبيا ليعلم الناس مكارم الأخلاق ، إن عاهد فعليه أن يصدق ما عاهد الله عليه ، أن يوفى بالعهد إن العهد كان مستولا ، وانضم لوط ورجاله إلى ملك سدوم .

وحرج ملوك دائرة الأردن الخمسة لقتال ملوك الآشوريين وكانوا يأملون في النصر ، فسدوم موقع حصين وهم أعرف بمسالكها ودروبها من الواقدين عليها للسلب والنهب واستعباد الشعوب .

ونظر ملوك الأردن إلى جنودهم في رهو فقد كانوا أقوياء الأجسام  
يبدون كالليوث . ونظر لوط إليهم في إشفاق فقد كان يرى تلك الأجسام  
القوية حلت من الروح ، نخر فيها سوس الفساد ، لا تحارب في سبيل الله  
ولا تحارب في سبيل الشيطان . إنها إنما تحارب خوفا من أن يتحفظها  
الموت وهي تريد أن تحيا لتستريد من الخبائث والشهوات المنحرفة التي  
صارت لا تستطيع الفكاك من عبوديتها وسلطانها .

ومشى الجنود إلى الخنود ودارت رحي معركة رهية ، السهام  
تتطاير ، والحرايب تعوص في الصدور والقلوب ، والدماء تسيل أهارا ،  
والخناجر ترتفع لتهوى تشق البطون ، وصرخات معروعة وأبين  
وحشرة ، وأجساد ترتطم بالأرض وكروقر ، وأوامر تصدر ، وشعل  
كل عن أحبه بنفسه التي يحوم حولها الفرع الأكبر .

ولى النهار وألقى في قلوب سدوم الرعب ، وأخذ الآشوريون  
يرحمون ويتقدمون ويصيقون على السدوميين الخناق ، ولاحت الهزيمة  
لما فر بارع ملك سدوم وأطلق برشاع منك عمورة ساقية للريح فولى  
جنود الأردن الأدبار .

وئس لوط ورجاله وراحوا يقاتلون في صراوة ، إلا أن الله لم يؤيدهم  
بصره فما كانوا يقاتلون في سبيله بل كانوا يقاتلون في سبيل كرامتهم ،  
واستمرت المعركة دائرة بين لوط ورجاله وبين جيوش ملوك آشور ،  
ورجحت كفة الآشوريين وسقط لوط أسيرا في أيديهم .

وفتحت أبواب المدينة أمام الغزاة بعد أن قتل حمايتها أو فروا إلى الجبال  
مرعويين . ودخل الغزاة وعاثوا في مدينة الفساد فسادا فسيوا

النساء ونهبوا الدور وساقوا أمامهم الأعمام والأمرى والإبل والأعنام . ثم خرجوا من سدوم وقد ثار الغبار والناس يتدافعون بالمناكب ويموج بعضهم في بعض كأنما جاء يوم النشور .

وسبق الأمرى رمرا ، وكان لوط يسير مطرق الرأس حزيناً لا يدري أن روجه وابتيه وقعه في أيدي الآشوريين . ولم يستسلم ليأسه فسرعان ما توجه إلى ربه بحمده ويسبح له فأحس قوة تسرى في روحه ووجد لنفسه عزماً .

وحاء رجل يسعى إلى حبرون ، رحل من رجال لوط فر من الأمر فهرع إلى إبراهيم وقال له :

— النجدة النجدة ، لقد وقع لوط أسيراً في أيدي الآشوريين .

وتحرك إبراهيم سريعاً ، لم يدرك تخلده لحظة أن يترك سبي الله في أيدي أعداء الله ، إنه لوط الذي تنهأ في أور ، ابن أخيه الذي آمن به . إلا أنه كان في تلك اللحظة أكثر من ابن أخيه ، إنه سبي أرسله الله ليبليغ رسالته فإن كان في ضيق فحق عليه نصره .

وخرج إبراهيم في ثلاثمائة وثمانية عشر من الرجال والعبيد في عدة انتقاء ، وانطلقوا في أثر الجيش الذي كاد في طريقه إلى بلاده بما حمل من أسلاب وغنائم وأسرى .

وطويت الأرض تحت أقدام رواحل إبراهيم ومن معه وانقصت حمسة أيام وأدبر النهار ، ولاح معسكر جيش الآشوريين فقد نزلوا يستريحون وسط الحمال التي ينبع منها نهر الأردن .

وانتظر إبراهيم حتى جن الليل فقسم رجاله قسمين ، قسماً بقيادته

وقسما بقيادة الإيعازر الدمشقي ، ثم أمر بالرحف باسم الله وعلى بركة الله فقد كان يعتمد على مفاجأة عدوه وعلى نصر الله .

كان الآشوريين يعربدون في خيامهم وقد أدارت الخمر رءوسهم وسقط فريق منهم على فراشهم يعطون في نومهم ، وكالأطياف اسل إبراهيم ورجاله إلى المعسكر وراحوا يدحون السكارى ويكتمون أنفاسهم .

وأذهلت المفاجأة العدو ودب الدعر في المعسكر فهام الملوك والجنود على وجوههم مفروعين . فروا لا يلوون على شيء وإبراهيم ورجاله في أثرهم حتى شمال دمشق ، وانتصروا عليهم نصرا مؤزرا .

وخلص إبراهيم لوطا وروجته وابنتيه والرجال والنساء من الأسر ، وعاد منتصرا يسوق المواشي والإبل والعصم ، فقد غنم أموال القوم وكل ما في معسكرهم من متاع .

وطار نأ انتصار إبراهيم إلى سدوم فخرج ملك سدوم لاستقبال المنتصر عند عودته المظفرة .

عاد ملك سدوم من الجبال التي فر إليها ليستقبل إبراهيم المنتصر ، كان في رية الدنيا وأبنتها يحوط به ورراؤه وكبار قومه الدين ولوا الأديار إلى عمق السديم .

وبلع إبراهيم ومن معه الوادي الملكي فإذا علك سدوم يستقبه في ترحيب ويقول له :

— أعطى رعتي وحذ العائم كلها لك .

— ما خرجت إلا لله ، كل شيء هو لك ، لم آخذ شيئا إلا ما أكله

العيد .

— خذ الأموال ، خذ ما شئت ودع لي رعتي .

— لا آخذ شيئا فقد أغناني الله من فضله .

وعاد لوط ووجهه وابتاه إلى سلوم مع من أنقذ من قومهم من

الأسر ، وذهب إبراهيم إلى حبرون ليتم الله نعمته عليه .

سجدت هاجر شكرا لله وأطالت السجود ، فوقوع لوط في الأسر وتخليص إبراهيم الرحال والنساء والعبيد من أيدي ملوك الآشوريين أهاح لديها الذكريات . إن إطلاق سراح لوط ومن معه من أسرهم قد أعاد إليهم كرامتهم ، أما هي فقد أحيها الله بأسرها . كان الأسر نعمة عليها وبركة تستحق الحمد ، إذ أكرمها الله وهداها إلى الإيمان وجعلها من عباده ، وإن كل من في السماوات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا .

رفعت هاجر رأسها فإذا بالدموع تملأ عينيها ، فقد راصب نفسها على الأسى بالله ومآحاته والتسريح له حين تصنع وحين تمسى وآناء الليل وأطراف النهار وبالأسحار وقل العروب ، كانت تحس أن الله يعمرها سوره وأنه سميع قريب ، فتموج فيها مشاعر حب عظيم وحواف شديد وتحزى على خديها العبرات ويرل قلبها خشوع عميق .

كانت تعدد الله لذاته لا تطمع في عرص الحياة الدنيا ، إنها تريد الآخرة لا تريد أن تدل وتحزى يوم يجمع الله الناس ليوم لا ريب فيه ، بلى إن الله يحزى من شكر ، نعمة من عبده والله عليم بالمتقين .

حشع قلب هاجر لله وحشيت ربه فرضى الله عنها ورضيت عنه ، وأراد الله أن يحريها جراء الشاكرين وأن يرفع قدرها فوق نساء عصرها



فأوحى إلى سارة أن تزوج هاجر من حليله إبراهيم<sup>(١)</sup> .  
أعلن الله مشيئته واصحة كفلق الصبح أن يتزوج إبراهيم هاجر  
ليتحقق وعده ، ليأتى السبل المبارك الذى يرث مشارق الأرض  
ومعاريها .

إنها لتضحية تفوق قدرة البشر أن تدفع روجة عزيزة مكرمة يديها  
امرأة أخرى إلى فراش زوجها الذى تحبه من أعماق فؤادها ، إنها لتضحية  
عظمى أن تنازل عن مركزها السامى كزوجة وحيدة لرسول الله لامرأة  
أخرى أبما كانت تلك المرأة . إنها سيدة القبيلة وستشاركها فى زوجها  
جارية من حوارياها ؛ ولكن سارة كانت كفتا للتضحية ، عرفت الله  
وآمنت به وتوكلت عليه وأسلمت وجهها ، فإن أمرها بأمر وحت  
عليها طاعته وهى راضية ، فله الأمر وهو فعال لما يريد .

ولم تفكر لحظة أن تكتم ما أمرها الله به حتى لا يأتحم قلبها ، فالإيمان  
نقى سريرتها وهياها لأن تؤثر غيرها على نفسها دون أن تنرم أو تضيق  
عما تفعل ، وذهبت إلى حبيبها وقد شرح الله قلبها وقالت :  
— إني أهب لك هاجر عسى أن يرقنا الله منها ذرية .

وأتى إبراهيم فقالت له زوجته :

— إني أهبها لك ليتحقق وعد الله .

وأتى إبراهيم فقد وعده الله أن يهب له ذرية ترث مشارق الأرض

(١) قال يوسيفوس المؤرخ اليهودى الذى عاش فى القرن الأول بعد الميلاد  
« وأحصرت سارة بأمر الله إلى فراشه إحدى حوارياها النصرىات المسماه هاجر  
عسى الله أن يرقق منها ذرية » .

ومغاريها وكان وعده مأثيا ، فאלله لا يخلف وعده وهو قادر على أن يهب له من الصالحين من روجه سارة التي شعف بها حبا .  
وقالت له سارة :

— وما تشاء إلا أن يشاء الله ؛ إن الله كان عليما حكيما .

وأيقن إبراهيم أن الله أمر بزواجه هاجر فأطاع أمر الله ، وبسبب هاجر لم يزل بالذرية التي وعده الله أن تترث المشارق والمغارب والله خير الوارثين .

وحملت هاجر فتهللت القبيلة بالفرح وراح إبراهيم يصلي شكرا لله ودموعه تغسل لحيته ، فقد صدق الله وعده ووهب له على الكبر ما في بطن جاريته بعد أن عاش فردا مذحرج من أور ، وإن ظل لوط الذي تبناه إلى جواره دائما قبل أن يرسله الله نبيا إلى أهل سدوم .

وفرحت سارة فقد تلقت على يديها مئات الولدان الذين ولدوا في القبيلة ، بيد أن ذلك الذي ستلقاه وهو يرل من بطن هاجر يختلف عن الولدان جميعا فهو ابنها وابن إبراهيم الحبيب

هذا من فصل ربي لأشكر أم أكرم . وخرت سارة ساجدة لله رب العالمين ، ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غني حميد .

وراحت هاجر تقوم الليل تصلي لله ما استطاعت وتحمده حمدا كثيرا وتنتهل إليه أن يتقبل دعائها ، فقد من الله عليها بنعمة كبرى ، نعمة ما كانت تجد نفسها قادرة على أن تنفي الله حقه من الشكر عليها ، فكانت عيناها تفيض بالدمع وهي تقول : رب أورعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ ، رب اجعلني من الصالحين ، رب هب لي من

لذلك ذرية طيبة والحمد لله رب العالمين .  
 ونامت هاجر وهي قريبة العين تحمد الله أن اصطفاها لتنجب ذرية  
 لحيله ، وإذا بهاتف يأتيها في منامها ويقول لها :  
 — يا هاجر ! قد سمع الله صراعتك وسبب لك ولدا فسميه  
 إسماعيل ، أى المسموع من الله ، لأن الله استمع لصلاتك وسيباركه الله  
 ويكثر نسله تكثيرا .

وقامت من نومها حافقة القلب مشرحة الصدر فما زال الكلام الذى  
 سمعته يرن في أذنيها عددا كتسبيح الملائكة ، وإدراوائح أطيب من المسك  
 تنتشر في الخيمة .

وتهلل وجهها بالفرح فقد بشرها الله بإسماعيل وبأنه سيكون مباركا  
 لا يحصى نسله ، وخرت ساجدة لله شكرا ، إنها كانت شكورا ولكن  
 أكثر الناس لا يشكرون .

كانت أميرة في صف وكانت عاية أمامها أن ينتصر زوجها على  
 الهكسوس لتصبح سيدة القطرين تحال في قصرها ستين ثم تذهب كما  
 ذهبت مئات الملكات من قبلها كأن لم تكن بالأمس ، إلا أن الله أرادها  
 الهداية فأوقعها في الأسر ودفعها إلى قوم مؤمنين ، فشكرت الله وفتحت  
 له قلبها ليبدد ظلامه بوره ، وسارت في طريقه وأعمق فؤادها بمحنته  
 وأمست تقضى الليالي تدعوه ونسج بحمده وتأنس به ، فحراها الله  
 جزاء الشاكرين .

أتاها في الدنيا حسنة فجعلها أما لابن رسوله الكريم الذى وعده أن  
 يورثه المشارق والمغارب ، وسيؤيتها في الآخرة حسنة فتكون مع المتكئين  
 على الأرائك في الجنة مع إبراهيم .

وجاء اليوم الموعود وأشرقَت الدنيا بنور ربها ، وأحسَّت هاجر بالآلام  
الوضع فهرعت إليها سارة مستبشرة قد جعل الله قلبها فارغا من الحمد ،  
وكانت تحس إحساسا صادقا أنها ستتلقى أبها الحبيب على يديها .  
ونزل بالخيمة سكية وأمن وسلام ، وراح إبراهيم يصلي لله في محرابه  
ويدعوه دعاء حارا ويسجد له ويطلب السجود ، وانبعث من الخيمة  
صوت إسماعيل فإذا بقلب إبراهيم ميمص رقة وحبا ورحمة ، وإذا  
بالعبرات تطفرف إلى مآقيه ، إن إبراهيم لحليم أواه منيب  
الحمد لله الذى صدقنا وعده ، الحمد لله الذى له ما فى السموات وما  
فى الأرض ، له الحمد فى الدنيا وفى الآخرة وهو الحكيم الخبير . واندمع  
إبراهيم إلى الخيمة وهو يقول :

— رب إني أعيدته بك وذريته من الشيطان الرجيم .

وحملت سارة إسماعيل بين يديها فى رفق وحنان وقدمته إلى الشيخ  
الحليل ، الشيخ الذى كان يدعو فى حاران وفى دمشق وفى بيت إيل وفى  
أواريس وفى منف وفى حبرون : رب هب لى من الصالحين ، فاستجاب  
له ربه ووهب له إسماعيل .

وألقي إبراهيم أول نظرة على أبه الحبيب ، على أبه الموعود ، فإذا  
بقلبه يتهلل بالفرح ، وإذا بينابيع اركة تتفجر فيه ، وإذا بكل حلجة من  
خلجاته تلثم الوليد . وحاست منه التمامة إلى هاجر فإذا وجهها يتهلل بنور  
عجيب .

وقال إبراهيم وهاجر وسارة :

— الحمد لله الذى فصصا على كثير من المؤمنين .

وخرّوا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون .  
وفي ذات يوم جلس إبراهيم على باب خيمته ينتظر الضيفان كعادته  
وكان إسماعيل في حجره ، وإذا بالهواء يرق وبروائح أطيب من كل طيب  
الأرض تفوح في الجو ، وإذا بنفسه تصمو وإذا به يتنبأ لاستقبال وحي  
السماء .

وأوحى الله إليه :

— قد سمعت لك في إسماعيل ، إلى أباركه وأبارك ذريته ، يلد اثنتي  
عشرة أسباطاً أما وأجعله أمة عظيمة .

وقال إبراهيم وهو يضم ابنه إليه في حنان :

— تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير .

انتصر إبراهيم على كدر لعومر وأبى أن يأخذ من ملك سدوم حيطا أو  
شراك بعل أو شيئا مما هو له فقد أغناه الله من فصله ، وما خرج للعرو  
ابتغاء الغنائم والأسلاب بل خرج عاضبا لله ليقض نبيه من الأسر .

كان خليل الرحمن يمثل مشيئة الله على الأرض ، عاش مع من حوله  
من الملوك في ود و سلام وجسح إلى السلم لما جنحوا لها ، أما من جاءوا  
معتدين فقد حق عليه قتالهم إن الله لا يحب المعتدين ، ولولا دفع الله الناس  
بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين .

وعاد لوط إلى قومه يدعوهم إلى عبادة الله لا إله إلا هو ويحذرهم  
غضب الله إن عذاب الله شديد . كذبت عاد فكيف كان عذاب الله ؟  
أرسل عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر تنزع الناس كأنهم أعجاز  
نخل منقر . وكذبت ثمود بالنذر ، فأرسل عليهم صيحة واحدة فكانوا  
كهشيم المحتظر .

وعكف لوط يدعوهم إلى الرشاد ، ألا يجحدوا بآيات ربهم وألا  
يعصوه وألا يتبعوا شهواتهم ، إنه يخاف عليهم أن ينزل بهم ما نزل بقوم  
نوح وقوم هود وقوم صالح ، فاتخذوه هزوا فقال لهم :

— استهزؤا إن الله مخرج ما تحذرون .

دعاهم فلم يزددهم دعاؤه إلا فرارا ، وأندرهم فما رادهم إلا نفورا ،

وضاقوا به فقالوا :

— اثنا بعداب الله إن كنت من الصادقين .

لظالما قالوا له اثنا ما تخوفنا به ، اثنا عذاب الله ، ولظالما قالوا مهديدين : أخرجوا آل لوط من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون . بيد أن لوطا كان يرجو لهم الهداية ، يرجو أن يتوبوا من العساد وأن يعودوا إلى الله متطهرين ، إلا أن القوم كانوا مفسدين ، فلما يئس لوط من هدايتهم قال :

— رب انصرني على القوم المفسدين .

كان ذلك في سدوم ، أما في حبرون فقد كان إبراهيم وهاجر وسارة يشكرون الله كثيرا أن منّ عليهم بإسماعيل واستمع لدعائهم فيه وبشرهم بأن يجعله أمة عظيمة وأن يلد اثنتي عشرة أساطا أما ، وما كان يكدر صفو أبي الضيفان إلا أن الصيفان لم يقدوا إلى خيامه فقد حبسوا عنه خمس عشرة ليلة فشق ذلك عليه .

ورأى إبراهيم رجالا قادمين فسرهم ، ولما دنوا منه قالوا :

— سلاما !

قال :

— سلام !

ورأى ضيفا لم يضيف مثلهم حسنا وجمالا تتهلل وجوههم بالنور ، فراغ إلى أهله وقال :

— لا يخدم هؤلاء القوم أحد إلا أنا بيدي .

وحاء بعجل سمين فدبحه ثم شواه وحمله إلى الصيف وقربه إليهم وحلس لياكل معهم ، وقامت سارة تخدمهم فأمسكوا أيديهم عنه

فقال لهم :

— ألا تأكلون ؟

— يا إبراهيم إنا لا نأكل طعاما إلا بثمر .

— فإن لهذا ثمتنا .

— وما ثمنه ؟

— تذكرون اسم الله على أوله وتحمدونه على آخره .

فنظر أحدهم إلى الآخر فقال :

— حق لهذا أن يتخذه ربه خليلا .

فلما رأى أيديهم لا تصل إلى العجل الحنيذ الذي حده وشواه على الحجر المحمي إكراما لهم ، بكرهم وأوجس منهم خيفة حين لم يأكلوا من طعامه ، ونظرت سارة إلى إبراهيم وضحكت لتخفف من روعه وقالت :

— عجا لأضيافنا هؤلاء ، إنا نخدمهم بأنفسنا تكرمة لهم وهم لا يأكلون طعامنا .

وقال الأضياف لإبراهيم :

— لا تخف إنا رسل ربك أرسلنا إلى قوم لوط .

استنصر لوط ربه ، دعاه لينصره على القوم الفاسدين فبعث الله رسله لنصرته ، والتفت رسل الله إلى سارة وبشروها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب .

فالت :

— ياويلتى ! أألد وأنا عجور وهذا بعلى شيخا ؟ إن هذا لشيء

عجيب .



قالوا :

— أتعجبين من أمر الله ؟ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد .

فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى بإسحاق وأمن ما كان يخاف قال :

— الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق ، إن رضى لسميع الدعاء .

وراح يجادل فى قوم لوط ، كان قلبه يفيض رحمة حتى على العصاة ، إن الله يريد أن يأخذهم بذنوبهم وهو يرحو رحمة الله . إن إبراهيم حلیم أواه منيب .

قالوا :

— إنا مهلكو أهل هذه القرية ، إن أهلها كانوا طالمين .

— أرايتم إن كان فيهم محسون من المسلمين ؟

قالوا :

— وإن كان فيهم محسون لى نعدهم .

— وأربعون ؟

— وأربعون .

— وثلاثون ؟

— وثلاثون .

— وعشرون ؟

— وعشرون .

— وعشرة ؟

— وإن كانوا عشرة .

قال إبراهيم :

— ما من قوم لا يكون فيهم عشرة فيهم خير .

فراح رسل الله يؤكدون أن قوم لوط ليس فيهم عشرة مؤمنون  
وقالوا :

— يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب  
غير مردود .

وأشفق إبراهيم على لوط فقال :

— إن فيها لوطا .

— نحن أعلم بما فيها ، لسحيبه وأهله إلا امرأته كانت في العابرين .  
ومصت رسل الله نحو سدوم ، وبلغوا باب المدينة ونظروا فرأوا ابنة  
لوط عند الهر تستقي من الماء لأهلها . كان النهار قد انتصف والشمس  
ترسل أشعتها الحامية والآبار الحمر متشرة في المدينة وحولها بعض ما  
نفثت من القار ، فابطلق رسل الله إلى ابنة لوط وقالوا :

— يا جارية هل من منزل ؟

— نعم .

نظرت إليهم وكانوا شبانا لم تر أحسن منهم منظرا فخشيت عليهم من  
قومها ، إهم كانوا قوم سوء معسدين ، فقالت لهم :

— مكانكم لا تدخلوا حتى آتيكم .

وأتت أباهما فقالت :

— يا أبتاه أراذك فتيان على باب المدينة ما رأيت وجوه قوم هي

أحسن منهم ، لا يأخذهم قومك فيمضوهم .

وذهب لوط إليهم فقالوا له :

— إنا متضيفوك الليلة .

فانطلق بهم وهو يتلفت ، فسألوهم عما يريه فقال :

— ما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية ؟

— وما أمرهم ؟

— والله ما أعلم على ظهر الأرض أناسا أحث منهم ، أشهد بالله أنها

لشر قرية في الأرض عملا .

وبلغ لوط وأضيافه داره ودخل لم يعلم بهم إلا أهل بيته ، واسلت

امراة لوط إلى قومها في ناديتهم وقالت .

— إن في بيت لوط رجالا ما رأيت مثلهم ومثل وجوههم حسا .

فجاء قومه يهرعون إليه فلما رأهم قال :

— هذا يوم عصيب .

وخرج لقومه فإذا بهم يراودونه عن ضيفه وقالوا له :

— ألم ننئك عن أن تضيف الرجال ؟

— يا قوم إن كنتم تريدون الزواح فهؤلاء باقى هن أطهر لكم ،

فاتقوا الله ولا تحرون في ضيى أليس مكم رحل رشيد ؟

قالوا :

— لقد علمت ما لنا في باتك من حق . وإلك لتعلم ما نريد .

فقال لوط :

— لو أن لى مكم قوة أو آوى إلى ركن شديد .

لو أن له انصارا يصرونه عليهم أو عشيرة تمنعه منهم لحال بينهم

وبين ما جاعوا يريدونه من أصيافه ، ولكنه لا أنصار له ولا عشيرة تمعه .  
ليس معه إلا الله والله ذو بأس شديد .

ودخل لوط وأعلق الباب خلفه لما ضاق بهم درعا ووقف حلف الباب  
يحاول أن يمنع القوم من الدخول على ضيعه ، وتكاثر القوم وكادوا  
يحطمون الباب واستولى على لوط الخزع فقال له الصيغان :  
— يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك . يا لوط إنا مهلكو أهل  
هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين .

فقال لوط :

— أهلكوهم .. أهلكوهم الساعة .

— إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب ؟

وفتح الباب ودخلوا يتصايحون ، وطمس الله أعينهم فحملوا  
يلتمسون الخيطان وهم لا يبصرون .

وقالوا للوط :

— فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد .

وفي السحر أسرى لوط بأهله وأحد معه زوجته على كره منها ، إنها  
لا تصدق أن الله سيأخذ سدوم بدينها . وفي الصبح جاء أمر الله فثارت  
الآبار الحمر وألقت حممها وجعل الله قري سدوم عاليها سافلها وأمطر  
عليها حجارة من سجيل منصود .

والثفت امرأة لوط تنظر وكان قلبها مشدودا إلى القوم الفاسدين ،  
إنها ترى وعد الله يتحقق وكانت من الساخرين ، وأصابها حجارة  
السماء إنها كانت من الهالكين .

ووقف إبراهيم ينظر ، إن الله يعمل على سدوم سافلها ..

والمؤتكة أهوى . فعشها ما عشى . هذا بدير من البدر ، صارت  
سدوم عرة كعاد الأولى وثمود وقوم نوح من قبل .. لهم كانوا هم أظلم  
وأظغى .

ورأى إبراهيم لوطا وأهله قادمين إلا امرأته كانت من العابرين ، كانوا  
تسعة . إنه كان يجادل ربه في قوم فاسقين ، قوم لا خير فيهم ، لهم عذاب  
أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون .

لم يس إبراهيم بيتا لله منذ بعث في أور ، كانت المعابد في بلاد ما بين  
النهرين في أيدي كهنة سين ومردوخ وشماس وعشتار ، وكانت الهياكل  
في سورية في أيدي كهنة بعل والآلهة الأخرى وكانت المعابد في مصر في  
أيدي كهنة ست وبتاح وأوزيريس وباسنت وآمون . لقد كان يسي في كل  
بقعة من بقاع الأرض تطوُّها قدماء محرابا ، وإنه ليحشى أن يضل  
المؤمنون بهذه المخاريب فيحسبون أن كل محراب أقيم لإله فيجعلون لله  
أننادا ، كما حصل الدين من قلوبهم لما حاولوا تجسيد صفات الله فأصبحت  
كل صفة من صفاته إلهًا يعبد لذاته ، فمعلوا لله شركاء !

كان يدعو إلى عبادة الله الواحد القهار أينما كان ، وكان الناس يقيمون  
في قلوبهم هياكل لله ، بيد أن الله لم يكن له بيت تقام فيه الشعائر بينما أقام  
المشركون لألهتهم معابد وهياكل انتشرت في الأرض ، إن الله لا بد أن  
يكون له مار يهدي المؤمنين الصاريين في بيداء الحياة سواء السبيل .  
أنتهى رسالة إبراهيم بدعوة الناس إلى عبادة رب السماء والأرض رب  
العالمين ؟ أيكفى بالمخاريب التي أقامها على قمم الجبال وفي السهول  
والوديان ؟ ألا يكون لله بيت يسبح له فيه بالغدو والآصال رجال لا  
تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ؟

وإن أراد أن يسي هذا البيت أيسمح له كهنة حبرون أو كهنة بيت إيل أو كهنة أى إله من الآلهة المنتشرين في المدن والبلاد ما بين النهرين إلى وادى النيل أن يقيم بيتا لله ليقتضى على نفودهم وعلى الثراء العايش الذى ينعمون به ؟

أمره الله أن يضرب في المشارق والمغارب ، أن يضرب في الأرض التى سترتها دريته . والمشارق والمغرب ليست بيت إيل ولا حبرون ولا بابل ولا مصر وحسب فالخوب لا يزا من مفتوحا أمامه . إنه لم يطلق في سياحته الروحانية إلى الحجاز وهو الذى أمر أن يجوب الآفاق يدعو الله رب العالمين .

لمادا يستقر في حبرون ؟ أليس شئون المؤمنين ؟ أليكون إلى جوار سارة ؟

إن شئون المؤمنين يمكن أن يهض بها لوط بعد أن عاد إلى حبرون ، وسارة لن تشده إلى الأرض وقد وهب نفسه وذريته لله . إنه هاجر إلى ربه منذ حرج من أور وستستمر هجرته ما استمرت أنفاسه تتردد بين حبيه .

وأوحى الله إليه أن تحُد هاجر وإسماعيل وأخرج إلى حيث أريك ، فحمل هاجر وإسماعيل وهو رضيع وانطلق إلى الحبوب ، إلى الأرض التى أراد الله أن يبارك فيها للعالمين .

ونزل خليل الله وهاجر وإسماعيل بواد غير ذى ررع يطل عليه جبل قبيس ، لا ماء ولا شجر ولا دوحة ولا ظل ولا أنفاس حياة ، لم يكن بالوادي أحد إلا الله والذين أمر بحروجهم ليعلی كلمته ويتم بوره .

ونظر إبراهيم فإذا بريرة : إنها بيت الله المحرم قد أتى عليه الصوفان (١)  
فأنزل هاجر وإسماعيل فوق البريرة وراح يصنع لهما سكنا . ومكث  
إبراهيم معهما ما شاء الله له أن يمكث ثم وضع عدما جرابا فيه غر وسفاة  
فيها ماء وذهب مطلقا ، فضعته هاجر وقالت :

— يا إبراهيم أين تذهب وتركنا في هذا الوادي الذي ليس فيه أئيس  
ولا شيء ؟

وسار إبراهيم لا يلتفت إليها ، إنه يوسع من خطوه فقلبه يكاد يتفطر .  
إن الله وهب له إسماعيل على الكبر ، وها هو ذا الله يأمره أن يتركه في هذه  
الفلاة التي لا يطير في سمائها طير ولا يدب على أرضها إنس ولا حيوان  
ولا ينبت فيها ررع ولا يحلب فيها ضرع . إن الله قد ابتلاه فصر على ما  
أصابه إن ذلك من عزم الأمور .

وراحت هاجر تهول خلفه وتقول :

— يا إبراهيم أين يذهب وتركنا في هذا الوادي الذي ليس فيه أئيس  
ولا شيء ؟

ولم يحر إبراهيم جوابا فهو داهب إلى الله وإنه يتركها الله لتتحقق  
مشيئته ، إن الله فعال لما يريد .

وانطلق إبراهيم لا يلوى على شيء . كان قلبه يفيض بالرحمة وهاجر  
تحرك شجونه وهي تهول في أثره وتقول له :

— يا إبراهيم أين تذهب وتركنا في هذا الوادي الذي ليس فيه أئيس

---

(١) يعتقد الصائفة أن إدريس أول من بنى بيت الله الحرام في مكة ، وأب الطومان  
أتى عليه « انظر التذليل » .



ولا شيء !

أنيس !؟ أليس الله أنيسك يا هاجر ؟ ألم يملأ عليك خيمتك أنسا ؟ أم يملأ بصيرتك نورا والكون غارق في الظلام ؟ أيكون بلا أنيس من كان الله أنيسه ؟ أيشكو الوحدة من كان الله معه ؟ ما هذا الفزع يا هاجر ؟ ألا يطمئن قلبك بذكر الله ؟ إن كان هذا الوادى ليس فيه شيء فإن الله قادر على أن يفتح عليكم بركات من السماء والأرض .

وجعل إبراهيم لا يلتفت إليها حتى إذا ما عاد نور الله إلى فؤادها قالت :

— الله أمرك بهذا ؟

قال :

— نعم .

فاطمأن قلب هاجر ، إن كان الله قد أمره بأن يحملها هي وابنها إلى هذا الوادى فإن الله يريد أن يتم نعمته عليها وعلى ابنتها ، فقالت فى ثقة :

— فإذا لا يضيعنا .

وذهب عنها الروع وعادت إلى العريش مرفوعة الرأس لم تذرف دمعة ولم ترتعد فرائصها من الخوف ، كانت الجبال من حولها شاذخة هائلة تبعث الوحشة فى العوس إلا أن هاجر برل بقلبها أمس وسلام . وانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الشية حيث لا يرىانه استقبل بوجهه البيت ورفع يديه وقال :

— ربنا إني أسكنت من ذريتى بواد عمى ررع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون .

( هاجر المصرية )

وجلس تهاجر ترصع انها وتمد عيبيها إلى ما حولها ؛ كانت الحبال تطل عليها من كل مكان ، جبل قبيس .. الصفا .. المروة .. السماء فوقها .. والأرض حولها ما جت بحار من الرمال .

وحيم على المكان سيكون عميق واثالث على ذهبها الذكريات ، إنها كانت في قصرها في منف ومن حولها الوصيفات والخدم وديا صاحبة إلا أنها كانت ديا بلا روح ، ديا بلا أمل ، لا يملأ فراغها إلا الطعام والشراب وأناشيد المعنن وترتيلات الكهان ، أماها وهى وحيدة بلا حدم ولا وصيفات ، ولا أنيس ولا جليس ، ولا أعانى ولا ترتيلات ، فهى تحس تعاطفا مع الكون ، يملأ الله حياتها أسا ويحيش صدرها بآمال عريضة مشرقة ، فقد وعداها الله أن يجعل إسماعيل أمة عظيمة وأن يولد له اثنا عشر رجلا .

إن كان الله قد جاء بها من قصور مصر إلى هذا الوادى المقدس فإنه أراد أن يشرفها ، وأن يحقق ما وعداها به ، أن يكون ما شاء ، إن الله فعال لما يريد .

وإن كانت شأت في القصور فما ذلك إلا لتعلم كيف تربي ابنا الذى اصطفاه الله ليكون أباً لأمة عظيمة ، وإن كانت وقعت في الأسر وتحملت الشدائد فما ذلك إلا لتعلم ابنا كيف يصير على الشدائد . إن الله قد كيّف حياتها لتنهض بعبء عظيم ، عبء تشقة إسماعيل .

وراحت تهاجر تأكل من حراب القمر وتشرب من الماء ، حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنا وراح يتلبط .

وبظرت إليه وهو يتلوى من العطش فأحست بباط قلبها تتمزق وكاد عبقها يطيش ، إنها لا تستطيع أن تنظر إلى حبيبها وهو يبكى من الألم ،

إن كبدها تكاد أن تنفطر .

وجعلت تلثف فوجدت الصفا أقرب جبل إليها فهرعت إليه وقامت عليه ، ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدا ؟ فلم تر أحدا فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادى رفعت طرف درعها ثم سعت سعى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادى ، ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحدا ؟

وراحت تسعى بين الصفا والمروة سبع مرات تلثف على رؤية أحد يقذفها من الموت عطشا ، وما دار بخلدتها في تلك اللحظة التي استولى عليها فيها الخزع أن ملايين المؤمنين على مر السنين سيسعون بين الصفا والمروة سبعة أشواط ، تخليدا لذكرى ما كان في ذلك السعى من بركة . ولما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت .

— صه !

تريد نفسها ، ثم أصاحت السمع فسمعت الصوت أيضا ، فانطلقت إلى حيث كان انها فإذا بالماء قد ظهر عند قدميه ، فجعلت تحوضه في فرح وتعرف الماء في سقاتها .

وشربت وأرصعت ولدها وإذا بالملك عند زمزم فقال لها :

— لا تخافى الضيعة فإن هذا بيت الله الحرام ، ينيه هذا الغلام وأبوه وإن الله لا يضيع أهله .

وتهللت هاجر بمرح فياض فقد حملها الله إلى بيته الحرام ، إلى بيته المبارك الذى سييسه انها وخليل الرحمن ، إنها تعيش في القعة الطاهرة ، في الأرض التى بارك الله فيها للعالمين .

ونزلت رفقة من جُرحهم في طريق أسفل مكة ، ورأوا طائرا يحوم في

الجو فقالوا :

— إن هذا الطائر ليدور على ماء ، لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء  
وأرسلوا من يرى الخير .

وأقبل غلامان من العماليق يريدان بعيرا لهما قد أخطأه وقد  
عطشا ، وكان أهلها بعرفة فظرا بطير يهوى قبل الوادى فاستكرا ذلك  
وقالا :

— أنى يكون هذا الطير على غير ماء ؟

— كما ترى . هذا الطير يذهب إلى غير ماء .

قال الآخر :

— فأمهل .

ويظن فإذا الطير يرد ويصدر ؛ إنه يرد الماء ويصدر عنه ، فاتبعوا  
الواردة مها حتى وقفا على أنى قبيس فنظرا إلى الماء وإلى العريش فإذا  
بهاجر عند الماء .

وحاء رسول جُرهم إلى هاجر وقال لها :

— أتأذنين لنا أن ننزل عندكم ؟

ف قالت فى ترحيب وحزم :

— نعم ولكن لا حق لكم فى الماء .

— نعم .

وهبط الغلامان من فوق جبل قبيس إلى الوادى واتطلقا إلى هاجر  
وقالا :

— لمن هذا الماء ؟

قالت :

— لي ولا بني .

فقال في دهش فعهدهما بالوادي قريب وليس به ماء :

— ومن حفره ؟

قالت :

— سقيا لله .

الله ؟ ونظر أحدهما إلى الآخر فما كانا يعرفان الله ، بيد أنهما أحسا

إحساسا جليلا ملأ قلوبهما خشية وقالوا :

— أتأذنين لنا أن ننزل عندكم ؟

— نعم ولكن لا حق لكم في الماء .

وجاءت جرهم برجالها ونسائها وأطفالها وإبلها وبعيرها وغنمها ،

وجاء العماليق برجالهم ونسائهم وأطفالهم وإبلهم وغنمهم ، وإذا

بالوادي الذي ليس فيه ررع ولا ضرع ولا أيس ولا شيء يسض بالحياة

قد فتح الله عليه بركات من السماء والأرض .

وخرت هاجر ساحدة لله وكل خلعة من خلجاتها تحمده وتسبح

له : إن ربي رحيم ودود .

لم يستقر إبراهيم في حبرون فقد أمره الله أن يضرب في مشارق الأرض ومغاربها ليدعو الناس إلى عبادة الله وحده ، وقد كان الناس أمة واحدة يتكلمون لغة واحدة وما كان الاختلاف في اللغة إلا كاختلاف اللهجات في القبائل في الإقليم الواحد .

لم ينظر إبراهيم إلى عشيرته على أنها أفصل عشائر الأرض طرا ، ولم يفتح قلبه لمدينة دون مدينة ، فالناس أمام الله سواسية لا فصل لأحد على أحد إلا بالتقوى ، والأرض كلها لله . وقد تعلق قلبه بربه وامتلاً بمحبته فكان سواء لديه أي حبرون كان أم كان في بيت إيل أم في أواريس أم في مسقط رأسه أور .

كان قلبه لا يهفو إلا لله ، وكان يضرب في مشارق الأرض ومغاربها ليدعو إلى الله ، وهو يعلم أن الأمر كله لله إن شاء أنعم على قوم بالإيمان وإن شاء طمس على قلوبهم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ .

رفع إبراهيم حيامه من حبرون وانطلق هو وأهل بيته وعشيرته ورجاله وعبيده وإماؤه وإبله وأنعامه وأعصامه إلى الجنوب ، فلا استقرار يفسد النفوس كالماء إن وقف عن الجريان أس إن يحشى أن تتحول رسالته إلى ملك عضوض وهو يرى الممالك من حوله تمر فيها السوس ،

فالعرب<sup>(١)</sup> أغاروا على بلاد سومر وأسسوا مملكة بابل ، وأغاروا على مصر وأسسوا مملكة الهكسوس ، وأغاروا على سورية وأسسوا مملكة قوية في ماري ومملكة أخرى في جرار .

كانت جرار عاصمة مملكة قوية قامت في أرض فلسطين قبل أن يطلق عليها ذلك الاسم ، أغار عليها العرب الرعاة كما أغاروا على ممالك الشرق الأوسط واستأصلوا شعبها واستقروا فيها وانتقلوا من أمة بدوية إلى أمة حربية لها سلطان ونفوذ .

وأطلق على كل ملك من ملوك جرار اسم أبيمالك أى أبى الملك ، كما أطلق على كل من حكم مصر اسم فرعون . إن إبراهيم يرى لمالك تنهاى من حونه ، ويرى أن الله يذهب أقواما ويورث الأرض أقواما آخرين . إنه لا يريد ملكا أرضيا بل يريد أن تظل مملكة السماء لله يرثها عباده الصالحون .

ونزلت قبيلة إبراهيم بين قادش وصور على طريق القوافل بين البادية والحضر ؛ ليتصل إبراهيم بالناس إذا هب لدعوته ولهبىء لنفسه ولقومه جو العزلة ليتصنوا بالله ليفتح عليهم بركات من الأرض والسماء .  
وذهب إبراهيم إلى جرار وكانت مدينة حصينة تموج بالحنود وتقوم

(١) يطلق المؤرخون على هؤلاء العرب اسم الساميين ، ولا يرجع تاريخ استخدام كلمة سامية للدلالة على بعض اللغات ثم على بعض الأقوام إلا إلى عام ١٧٨١ عندما استخدمها العالم الألماني شلوتنسر لتدليل على لغات الدين يسسون إلى سام بن نوح ، وكانوا يعيشون في بلاد العرب وبلاد النهرين بسورية وفلسطين

فيها الحصون والقصور . أما المعابد التي انتشرت في بابل ومصر ،  
والهياكل التي أقيمت في بيت إيل وحبرون ، والكهان الذين كاسوا  
يسيطرون على منابع الثروات والعمود فما كان لهم فيها من أثر .  
وبلغ إبراهيم قصر أبيمالك وكان قصرا هائلا له شرفات زينت  
بالزخارف والتهاويل كشرفات قصور دمشق وأواريس ، وكان الحراس  
يقفون عند باب القصر في أيديهم الرماح شدت حول أوساطهم أحزمة  
بها الخناجر ، والتفت حول دقوسهم اللحي ، وأطلت من عيونهم ضراوة  
المقاتلين .

دخل إبراهيم ثابت الخطو فوقعت عيانه على الزخارف التي زين بها  
القصر وكانت محاكاة للزخارف التي رآها في دمشق ، أما التماثيل فكانت  
من صنع مصر رأى مثلها في أرض جوشن وفي أواريس وفي منف . بيد  
أنها كانت تحاط هناك براسم و قدسية أما هنا في قصر أبيمالك فقد  
وضعت للزينة . كانت تماثيل لا معنى لها أكثر من أنها قطع فنية !  
وسار في ردهات القصر يقوده رجل من رجال الملك ، وكان ساكنا  
مهيبا لم تختلج فيه خلدجة حتى إن رجل الملك رمقه في دهش ، فما من  
أحد دنا من قاعة العرش إلا اضطرب وغاض لونه وراعت نظراته .  
كان إبراهيم خليل ملك السماوات والأرض وما يسيما ، رسول رب  
العالمين عند ذى العرش مكينا ، فكيف يخشى عبدا من عباد ربه وقد  
وعده الله بالتأييد ، والله يؤيد بصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولى  
الأبصار .

لم يعرف الخوف طريقه إلى قلبه عندما قال لقومه : ﴿ يا قوم إني  
بريء مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض



حيما وما أنا من المشركين ﴿ ولم يرتخف فرقا يوم وقف أمام التمرود يحادله ويقول له : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ وظل ثابت الحما حين أمر التمرود بإلقائه في النار ، ولم تذهب نفسه شعاعا إذ دخل على ملك مصر في قصره بأواريس . إنه يدخل على جباري الأرض بسلطان جبار السماء ، أو ترتعد فرائصه من أيمالكك بعد بعد أن رأى كيف أمطر ربه قوم لوط حجارة من سجيل مضود ، وجعل عاليها سافلها ؟ (١) .

ودخل قاعة العرش وكان أيمالكك فوق عرشه وعلى رأسه التاج وفي يده الصولجان يحف به رجال دولته ، وكان فيكول رئيس جيشه عرس يساره ، وما كان ثم رئيس للكهنة ولا كاهن لأسرار السماء ؛ فما كان القوم يؤمنون ببعث ولا عشتار ، وما كانوا تعلموا بعد كيف يتملقون الشعوب باعتناق دياناتها ، فقد أبادوا أهل البلاد الأصليين عن بكرة أبيهم .

وحر الرجل الذي دخل مع إبراهيم ساجدا بين يدي أيمالكك ، ووقف إبراهيم مرفوع الرأس وقال في رقة :  
— سلاما .

---

(١) جاء في التوراة أن إبراهيم حاف أن يعطش به أيمالكك من أجل سارة ، فقال لسارة : قولي إنك أحتي ، وأرسل أيمالكك وأحد سارة ولكن الله حذر أيمالكك في المنام من أنه ميت إن اقترب منها . وجاء في التوراة أن مثل ذلك حدث مع ملك مصر ، وقد وجدت أن ذلك لا يتفق مع حلال إبراهيم وشجاعته فأسقطت الحادثتين وإن ورد في إحدهما حديث سوى مشكوك في صحته .  
راجع تذييل الجزء الأول .

وراح الرجال يتلفت بعضهم إلى بعض ويعجبون من ذلك الشيخ  
الوقور الذى أرى أن يسجد بين يدى أى الملك ، ولم يستطع الملك أن  
يكتم ثورته فقال فى غضب :

— لماذا لا تسجد ؟

— لم أكن لأسجد إلا لله .

— ومن هو الله الذى تسجد له ؟

— الله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض وويل للكافرين من  
عذاب شديد . الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن  
سبيل الله ويعونها عوجاً أولئك فى ضلال بعيد .

— وآين الله هذا ؟

— إياه معنا يسمع ويرى . ﴿ الله الذى خلق السماوات والأرض  
وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ﴾ . وسحر لكم  
الملك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم النهار ﴾ . وسحر لكم الشمس  
والقمر دائبين وسحر لكم الليل والنهار ﴾ . وآناكم من كل ما سألتموه وإن  
تعلوا نعمة الله لا تحصوها .. ﴿

وراح إبراهيم يدعوهم إلى الله وهم يجادلونه ، ولم يشندوا معه بل  
قالوا قولاً معروفاً ومالت قلوبهم إليه فقد كان يجادلهم بلسانهم .. وما  
أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدى من  
يشاء وهو العزيز الحكيم .

وحفر إبراهيم يثراً حيث نزل وبني محراباً لله وأقام على باب خيمته  
يتنظر الصيف ويدعو العادين والراغبين إلى دين الله ، فأمن له كثيرون  
وانتشر دين الله فى الآفاق .

وجاء عبيد أبيمالك وأرادوا أن يقتصبوا الشر من إبراهيم وقومه ، وكادت أن تشب حرب بين أتاع إبراهيم وعبيد الملك لولا أن تحلم إبراهيم الخليم وخلي بينهم وبين الشر .

ورأى أبيمالك أن إبراهيم أصبح في منعة وقوة وأنه لو أراد أن يشب على الحكم لا يترعه منه ، فقرر أن يعقد معه حلما ليصون عرشه الذي أصبح في مهب الرمح .

وخرج أبيمالك وفيكول إلى حيث برل إبراهيم فاستقبلهما بالترحاب وصيفهما وأكرمهما غاية الإكرام ، وقال الملك :

— إن الله معك يا إبراهيم وهو يبارك كل ما تفعل ، وقد جئتك لتحلف لي بالله ألا تعدرني ولا بدربني من بعدى . إلى رحمت بك يا إبراهيم في بلادى ووسعك في أرضى فملت فيها من المعربين المكرمين . — أقسم لك .. فمس نكت فأثما يكث على نفسه .

وتهلل الملك وقائد جيشه بالفرح فقد عاهدهم إبراهيم على حسن الحوار وعلى ألا يغدر بهم ولا بذريتهم ، وإن إبراهيم لمن الصادقين .

والتفت إبراهيم إلى الملك وقال :

— اغتصب عبيدك البئر التى حفرتها .

فالتفت أبيمالك إلى فيكول قائد جيشه وقال :

— أسمعتم شيئا عن هذا من قبل ؟

— لا يا مولاي .

قال أبيمالك :

— والله ما سمعت بهذا من قبل اليوم فلماذا لم تقل لي ؟

كان الملك صتيلا أمام الشيخ المهيب ، حاء من قصره إلى الصحراء

ليحطب وده ويلتمس منه أن يعاهده على صيانة عرشه ، ذل جبار الأرض لرسول جبار السماء .

وأهدى إبراهيم للملك بعض الأنعام والأعنام فتقبلها شاكرا إلا أن أيمالك لاحظ أن سبع نعاج من الغنم وقفت وحدها بعيدة عن القطيع فالتفت إلى إبراهيم وقال :

— ما أمر هذه النعاج السبع ؟

قال إبراهيم وهو يشير إلى القطيع :

— هذه هدية أهديها لك .

ثم أشار إلى النعاج السبع وقال :

— أما هذه فإني أعطيكمها لتكون شهادة لي بأني حمرت هذه البئر .

فقال أيمالك :

— البئر لك .

وعاد أيمالك ورئيس جيشه سعيدين بالميثاق الذي أبرماه مع إبراهيم رسول الله ، الرجل الذي يؤيده ربه في كل ما يفعل ، وانطلق إبراهيم إلى بئر سبع وهو يشكر الله فقد عادت إليه البئر دون أن يشن حربا أو يهريق دما .

ركب إبراهيم راحلته منطلقا إلى الخوب إلى حيث أسكن هاجر وإسماعيل ، إن الله أمره أن يسكن ابنه ذلك الوادى القفر يوم كان إسماعيل رضيعا ، فلم تشهد هاجر مولد إسحاق الذى من الله عليه به بعد أن وهب له إسماعيل بثلاث عشرة سنة .

لم يكن بين سارة وهاجر غصصة ولم تحس سارة غيرة من هاجر . كانت سارة مؤمنة تتلقى أوامر الله راضية ، وقد جزاها الله جراء الشاكرين فوهب لها إسحاق وهى عحور عقيم . ولم ير إسماعيل أحاه الوليد بعد ولم تسمع هاجر بمولده .

حتى إبراهيم إسحاق وهو ابن ثمانية أيام ، وأقام وليمة لعشيرته وجيرانه وأطعم كل من استطاع أن يطعمه شكرا لله ، وها هو ذا يخرج ليزور إسماعيل ويزور أمه ، فقد كان إبراهيم رحيما يحبها من كل قلبه . وكان إسماعيل قريبا إلى مؤاده فهو ابنه البكر الذى استمع الله لدعائه فيه وأمر بخروجه إلى الأرض التى يريد أن يبارك فيها للعالمين ، ليتم الله وعده .

لقد تركه وأمه بواد غير ذى ررع عند بيت الله المحرم ، ولم يصع عندهما غير جراب به تمر وسقاء فيه ماء ، وكان يعلم علم اليقين أن التمر لا يكفى هاجر إلا أياما قليلة وأن الماء يبعد وشيكا وليس بالمكان أحد وليس به ماء . ولم يشعل قلبه بأمرهما فقد أمره الله أن يتركهما بذلك

المكان فكان عليه أن يطيع أمر الله وعلى الله أن يتولاهما برحمته .  
 إن الله قادر على أن يرزقهما وهو لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو  
 القوي العزيز . لقد اتقت هاجر الله فجعل لها محرجا ورزقها من حيث لا  
 تحتسب . فحر لها زمزم فكانت بركة ، تبارك الله رب العالمين .  
 وراح إبراهيم يفكر في هاجر وإذا بحكمة هبوطه إلى مصر تتضح  
 لعييه . لقد وقعت سارة في الأسر فهبط إلى مصر دون أن يتبرم أو يصيق  
 بمشيمة الله . كان يؤمن في قرارة نفسه أن الله ما قاده إلى مصر إلا لحكمة  
 لا يعلمها إلا هو وإذا بحكمة الله تتحلى له وهو يضرب في اليبداء أقرب  
 ما يكون إلى ربه . إن الله إنما قاده إلى مصر ليعود هاجر ليهب له منها درية  
 صالحة ، وقد ولدت له هاجر بكره احبيب ، ذلك فضل الله يؤتيه من  
 يشاء والله ذو الفضل العظيم .

وتذكر سارة وإسحاق ، تذكر النعم التي أسبغها الله عليه ، لقد  
 صكت سارة وجهها لما بشرها رسل ربها بإسحاق وتهللت بالفرح  
 وضحكت ملء شديها بعد أن تحقق وعد الله ووهب لها إسحاق .  
 أكانت سارة في شك من قدرة الله يوم صكت وجهها أم أدهلتها المفاجأة  
 عن أمرها ؟

كانت هاجر شابة وصاعدة تمرور بالحياة فإن قضى الله بأن يسي بها  
 إبراهيم فقد كانت خريئة بأن تلد له الابن الموعود . أما سارة فقد كانت  
 عجورا غقيما . كانت عاقرا فكانت الشرى مذهلة لها جعلتها تصت  
 وجهها وتعجب من أمر الله حتى إن رسل ربها قالوا لها : « أتعجبر من  
 أمر الله ؟ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد » .  
 إسحاق معها الصلح ، وقد بشر رسل الرحمن سارة بإسحاق

فأصاحت ضاحكة السن مذ ولدته ، وهل هالك ما هو أفرح للقلب من أن تلد عجور عقيم بعد اليأس ؟ لقد فاضت نعمة الله على إبراهيم وعلى أهل بيته .

وراحت الشمس تغرب عن يمينه وكان العسق في لون الأرجوان وانتشر اللون الأحمر في رقعة السماء وراح يتشكل في روعة تملأ النفس انهارا والقلب حشوعا . إنه ليشهد في الأفق آية من آيات الله بديع السماوات والأرض . وفاصت جوانح إبراهيم بالعواطف المشوبة فسجد على قتب بعيره وقال :

— رب أوردنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على .

واستأنف رحلته يسهر مع الله ويسرى مع الله وقد وجه وجهه شطر الأرض التى أرسل الله إليها الرسل من قبله : ﴿ وإلى عاد أخاهم هودا قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون . يا قوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجرى إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون ؟ وما قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين . قالوا يا هود ما جفتنا بينة وما نحن بنار كى آهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين . إن نقول إلا اعتراك بعض آهتنا بسوء ، قال إني أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون . من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون . إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم . فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستحلف ربي قوما غيركم ولا تضرونه شيئا إن ربي على كل شئ حفيظ .

﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون . وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون .

وإذا بطشتم بطشتم جبارين • فاتقوا الله وأطيعون • واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون • أمدكم بأنعام وبنين • وجنات وعيون • إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم • قالوا : سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين • إن هذا إلا خلق الأولين • وما نحن بمعدين • فكذبوه فأهلكناهم إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين •

﴿ كذبت ثمود المرسلين • إذا قال لهم أحوهم صالح ألا تتقون • إني لكم رسول أمين • فاتقوا الله وأطيعون • ولا أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين • أتتركون فى ما ههنا آمنين • فى جنات وعيون • وررع ونخل طلعها هضيم • وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين • فاتقوا الله وأطيعون • ولا تطيعوا أمر المسرفين • الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون • قالوا إنما أنت من المسحurin • ما أنت إلا بشر مثلنا فات بآية إن كنت من الصادقين • ﴾ .

وفكر إبراهيم . إن ابنه إسماعيل يشب بين أقوام أسلافهم قوم هود وقوم صالح ، كانوا أناسا ذوى قوة وبأس اتخذوا مصانع لعلهم يخلدون ، ونحتوا من الجبال بيوتا فارهين ، وأنعم الله عليهم بجنات وعيون ، فلم يشكروا نعمة الله فحاق بهم عذاب غليظ مثل العذاب الذى نزل بقوم لوط .

إنه يرتحف فرقا من خشية الله كلما تذكر كيف أن الله أمطر عليهم مطرا فساء مطر المذريين . إنه يرجو من كل قلبه أن يرحم الله إسماعيل وإسحاق من مثل ذلك العذاب العليط .

وبعد أيام وصل إبراهيم إلى جبل قبيس ووقف ينظر إلى الوادى الذى ترك فيه هاجر وابنه إسماعيل . كان الوقت ليلا وكانت النيران تنبعث من



كل مكان حول زمزم وكان عريش هاجر في مكانه فوق الربوة الحمراء عند بيت الله الحرام ، فانشرح صدر إبراهيم وترقرق الدمع في عينيه . إنه يشهد رحمة الله وبركاته يسبعا على أهل بيته .

لقد كانت هاجر منذ أهداها ملك مصر إلى سارة حيرا وبركة عليه ،  
إيها مباركة جاءها الملك عند زمزم فقال لها : لا تنحاي الضيقة فإن هذا  
البيت الحرام بينه هذا العلام وأبوه ، وإن الله لا يضيع أهله . إيها مؤمنة  
شاكرة والله لا يضيع أجر المحسنين

وَيُسْكِنُ اللَّيْلُ رَاحَ إِبْرَاهِيمَ بِأُحَى رَبِّهِ وَيَدْعُوهُ :

— ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَتَنِيَّ أَنْ بَعْدَ الْأَوْصَامَ ۖ ﴾  
 رَبِّ إِنِّي أَصْلَحْتُ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَهَمَّ اتَّبِعُنِي فَأُبْرِئَ مِنْكَ وَمِنْ عَصَائِي فَإِنَّكَ  
 غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿ ۱۰ ﴾ .

وراح يهبط إلى الوادي وهو يقول :

— ﴿رَبِّ انك تعلم ما نخشى وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء﴾ . الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء ﴿

وأناح بالقرب من العريش وذهب حافق القلب شاعت فيه رقة  
وحنان إلى حيث كانت هاجر وإسماعيل ، ولم يدخل بل وقف يستأذن  
فأبته قادم بليل . ومن أذنيه صوت هاجر رقيقا وهي تقرأ مع ابها الحبيب  
في صحف إبراهيم فأفعم فؤاد خليل الرحمن بالرصاص ، ذرية بعضها من  
بعض يهدي الله الشاكرين إلى صراط مستقيم .

وحتى إبراهيم إسماعيل وعمر أبو الضيفان البحائر وأولم وليمة عظيمة ،  
وجاء من نزلوا عند هاجر يشاركون رسول الله سروره ، ودار الحديث

(هاجر المصرية)

حول الله وترددت في جبات الوادى أنفاس طاهرة تسبح لله في الغدو والآصال وعند دلوك الشمس وفي غسق الليل وبالأسحار .

وكان إسماعيل يخرج إلى البرية مع أترابه وكان شعوقا بالصيد يجد متعته في أن يعدو حلف العرلان يرميها بسهامه ، وكان يتהלل بالفرح كلما سقطت في يده فريسة . ثم يعود إلى العريش يحمل صيد يومه ويجلس يصغى إلى أبيه ويتلقى منه الحكمة فتتبر جسات كياه بور لطيف يملأ النفس أمنا ويعيص على الروح بالسلام .

وفي يوم انطلق إسماعيل مع إخوانه للقصص في الصحراء وبلعوا أقصى ما كانوا يصلون إليه ، وإذا بإسماعيل يفوتهم ويتوغل في اليباء فراحوا يحوفونه الساع ، ولكنه سار لا يلوى على شيء ولم يتعه أحد منهم فهم يعرفونه متأبدا حششا شديدا لا يشبه شيء عما عزم أن يفعله .

ووقف من حرجوا معه يطرون وفغروا أفواههم دهشة ، إن الأفق البعيد يطبق عليه . ترى ماذا يفعل هناك ؟ لقد ذهب أكثر من مرة ثم عاد دون أن ينيس بكلمة أو يفضى بسر .

وراح إسماعيل ينظر .. إنه يرى حيادا وحشية تجري في الفلاة . ولم تكن الحياد قد استؤنست بعد وإن فكرة أن يمتطي جوادا من تلك الجياد تملأ رأسه . إنه يفكر في الوسيلة التي يعتلى بها ظهر جواد منها .

أخذ يعدو خلف الحياد فكانت الحياد إذا أحست به أطلقت سيقاها للريح ، وكانت أنفاسه تنهر دون أن يصل إليها . إنها حياد عربية عر محجلة تمر به مر السحاب .

وجرى بالقرب منه جواد أشهب فعدا إلى جواره وتمكن من أن يتشبت بعرقه ، وراح يحرى معه ثم قفز على ظهره ، ولم يستقر به المقام

طويلاً فقد أخذ الجواد يشب في الهواء ويضرب العضاء برجليه الخلفيتين ويحاول محاولة أن يلقبه عن ظهره . ونجح الجواد في أن يطرح إسماعيل أرضاً دون أن يسلس له قياده .

وهب إسماعيل وهو يتسم ولم يدب اليأس إلى قلبه فسيعاود محاولته . كان اعتلاؤه ظهر الجواد حلماً يراوده ، أمية من أمياته ، فإذا به يحقق حلمه ، ولئن لم يستقر على ظهر الجواد إلا للحظات إن الخوف ذهب عنه وتحطم الحاجر الذي كان يحول بينه وبين تحقيق ما يتمنى ، وسيأتي اليوم الذي يستقر فيه على ظهر جواد ويعود به إلى قومه .

وتحدث إبراهيم وهاجر حديثاً يفيض رقة وعدوبة عن ابهما الموعود . لقد بشر الملك هاجر بأن الله سيجعله أمة عظيمة ، ولقد أوحى الله إلى حليبه أنه سيشارك في سله ، فكان أمر اختيار زوجة لإسماعيل يشعل بال الشيخ الجليل والأم الحصون . قالت هاجر : إن حُرهم كانوا معها ومع ابها وأنهم آسوها وكانوا لهما خير جيران ، وأهم يحبون إسماعيل ويحبون أن يزوجه منهم .

فقال إبراهيم :

— وما تشاعون إلا أن يشاء الله .

غرس إبراهيم في بئر سبع أثلا ، وهو شجر فاره دائم الخضرة ، وبنى محرابا يصلى فيه لله . لقد أبرم معه أيمالك وفيكول رئيس وزرائه ووزير حريته معاهدة سلام . . إنهم جحوا للسلم فجنح إبراهيم لها وراح يعبد ربه الذى أكرمه فجعل الملوك يخطبون وده ورضاه .

ونظر إبراهيم إلى خيامه وأنعامه وأغنامه ورعاته وعبيده ، لقد أغناه الله من فضله . وإن خيامه لتسع لإسماعيل وأمه ، وإن قلب سارة التقية التى آمنت بإله إبراهيم قبل أن يؤمن به أحد غيرها لتسع لإسماعيل وأمه ، فقد نشأت في كنف خليل الرحمن وتعلمت أما الحياة الدنيا لعب وهو وربة وأن ما عند الله خير وأبقى ، ولكن الله أمر أن يسكن خليله إسماعيل وأمه عند بيته المحرم ليتحقق وعد الله ، ليكون لذرية إبراهيم المشارق والمغرب .

خرج إسماعيل من حيام أبيه وهو طفل رضيع ، وصدع إبراهيم لأمر الله وإن كان قلبه تعلق بأبيه وشغف به حبا أراد الله أن يشب الغلام بعيدا عن تدليل القبيلة ، أراد له أن يتنسم مند نعمة أطعماره الحرية وأن يتوكل على الله وأن يعتمد بعد الله على نفسه في تحصيل رزقه ورزق أمه . وانشرح صدر إبراهيم وهو يعيد إلى ذاكرته مآزاة في عريش أحب الناس إليه ليلة هبط من جبل قيس إلى حيث كانت هاجر وإسماعيل . كان إسماعيل يقرأ في صحف أبيه التى أنزلها الله عليه لتكون نورا وهدى

للناس .

إن هاجر عميقة الإيمان رقيقة الوجدان ، وإنها لعل علم ورادها الإيمان حكمة ، فإن حرم إسماعيل حكمة أبيه فلم تنزل له حكمة هاجر ورحمة الله الذي آتى إبراهيم رشده ، إن الله قادر على أن يعلمه ما لم يكن يعلم .

ولقد اصطفى الله هاجر وزوجها إبراهيم . أراد أن تكون أم إسماعيل مؤمنة حامدة صابرة ترجو لقاء ربها وتقيم الصلاة وتطيع الله ورسوله ، إن الله كان بعباده خبيراً بصيراً .

ورن في أذنيه صوتها يوم تركها هي وابنها في الصحراء لا ماء ولا أنيس : « الله أمرك بذلك ؟ » « نعم » « إذن لن يصيغنا » لو وزع إيمانك يا أم إسماعيل على أهل الأرض جميعاً لوسعهم .  
« إن إسماعيل قد سمعت لك فيه ، إنى أباركه وأكثره وأجعله أمة عظيمة لأنه من ذريتك » .

وهفت نفس إبراهيم إلى إسماعيل وإن كان توة عائداً من عنده . لقد جلس إليه يجاذبه الحديث . حدثه عن الله وقدرته وعلمه الصلاة واستمع إلى حديثه عن الصحراء والصيد والقصص . وكان يصفى إلى ابنه وإلى فصاحته وهو منشراح الصدر مشرق النفس لكأنما كان يصفى إلى نفسه وقد ارتد شاباً يتأجج بالحماس .

وصرح خياله فإذا به يرى أمة مؤمنة انتشرت في البطاح حول عرش هاجر وإسماعيل ، أمة عظيمة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، خير أمة أخرجت للناس ، فتهلل وجهه بالفرح وأشرق وجهه بالابتسام . ألم يعده ربه وعداً حسناً ؟

وجاء إسحاق يجرى ومن حوله العبيد ، كان غلاما فطم بالأمس لما يتجاوز الثالثة من عمره وقد احتملت القبيلة لذلك احتفالا عظيما تحرت فيه العجول والكباش والطيوس . ولم ير إسحاق أخاه فقد ولد بعد أن أمر الله إبراهيم أن يسكن إسماعيل عند بيته المحرم باثنتي عشرة سنة .

وفتح إبراهيم ذراعيه يستقبل إسحاق ثم حمله وضمه إليه في حنان وقبله وإذا به يشرد ؛ إن الله أكرمه ووهب له على الكبر إسماعيل وإسحاق ، إن الله يهب البنين والبنات للناس جميعا بيد أن الله من عليه هما ليجعل فيهما وفي ذريتهما الحكمة والكتاب والنبوة ، اصطفاهما ليكونا نورا للعالمين ، فعليه أن يظهرهما وأن يغرس فيهما الإيمان العميق وخشية الله الواحد القهار وأهما وذريتهما إلى ربهم راجعون .

كان إسماعيل يخرج إلى صحراء الحجاز يصطاد ، وكان إسحاق يلهو في كنف أبيه عند بئر سبع . بعدت بينهما الشقة ولكن إبراهيم كان يرجو أن يكون بينهما مودة ورحمة ، أن يتعاونوا على إعلاء كلمة الله في المشارق والمغرب ، ألا يكون بينهما ذلك التنافس الذي ينخر في عظام ممالك الأرض فيجعلها تتهاوى وتتهار .

إن مملكة الله تقوم على أعمدة المحبة والإيثار ، وعلى أكتاف عباد مخلصين أقوياء : ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم رجما سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ﴾ فراح إبراهيم يدعو الله ألا ينزع الشيطان بينهما ﴿ إن الله لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم ﴾ .

ورأى إبراهيم أن يأتي بإسماعيل في الفينة بعد الفينة إلى خيامه ، وأن يحمل إسحاق وسارة إلى حيث أسكن هاجر وابنها ليؤلف بين قلوبهم .

فإن كان الله قضى لحكمة رآها أن يعاد بين إسماعيل وإسحاق في الأرض ليورث ذريتهما مشارق الأرض ومعارها فإن أفئدة المؤمنين لا بد أن تتقارب ، يجمعها بعضها إلى بعض حب إله واحد ﴿ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ﴾ .

ولم يستقر إسحاق طويلا في أحضان أبيه فقد أراد أن ينطلق إلى البشر ليلعب مع غلمان القبيلة ، فتركه إبراهيم يذهب وهو يرقبه وبين جنباته حب فياض وكان من الشاكرين .

وابتعد إسحاق عن أبيه . إبراهيم يتبعه بعبيه وإذا به يرى المكان في وصوح . كان الأثل قارها وأرف الظلال والأعنام والأغنام كثيرة لا يكاد يحصيها العد والعبيد والرحال كجراد منتشر . إنه غنى وعند إليعازر الدمشقي أمين بيته أموال كثيرة من الذهب والفضة ، ولكنه لن يورث إسماعيل وإسحاق أشياء من عرض الدنيا فهو يعلم أن الأنبياء لا يورثون وأن ما يتركونه صدقة . ولكن أين هذه الأموال مما يعدكم الله به ؟ لقد وعد الله أن يورث إسماعيل وإسحاق وذريتهما المشارق والمغرب وأن يجعل فيهم الحكمة والكتاب والسوة .

لن يختصم الأخوان في ميراث ولن يغنى بعضهم على بعض ، سيهديهما الله إلى الطيب من القول وإلى صراط الحميد .

عرف إبراهيم الاستقرار بعد أن صرب في مشارق الأرض ومعارها وثار في نفسه سؤال : ترى هل انتهت رسالته ؟ هل أتم الله عليه نعمته بعد أن وهب له إسماعيل وإسحاق ؟

إنه لم ي شك من أن رسالته انتهت فإن إله القمر سين وإله الشمس شماش وإلهة اللذة والحرب عشتار وإله الفس بتاح وإله الشمس رع

وآلهة الوثنيين ما تزال تنتشر معابدهم وهيكلهم في بلاد ما بين النهرين وسورية ووادي النيل ، بينما ليس لله الواحد القهار بيت يعبد فيه ويسبح له في الغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله .

لقد بنى محرابا لله في كل مكان حل فيه ولكنها محاريب متواضعة ، بينما معابد الوثنيين شاحخة سامقة فارغة تباشر فيها المناسك وتحرق فيها المراسيم . أليكون حب هؤلاء الوثنيين آلهتهم التي لا تضر ولا تنفع أعظم من حب المؤمنين الله الواحد القهار ؟

لم يأمره الله بأن يسي له بيتا ولم يبي له الأرض التي بارك فيها للعالمين ، وما كان له أن يقدم على شيء جليل الخطر مثل هذا قبل أن يأذن له ربه ، ذلك هو الفضل الكبير .

وتذكر ما رآه في « سمروايم » أيام هاجر من أور ؛ لقد رأى الوثنيين يقدمون أبكار آبائهم قربانا لآلهتهم كفارة عن معاصيهم ، وإنه يرى الوثنيين من الكنعانيين يذبحون أبكار آبائهم زلفى لأربابهم . أليكون إيمانهم بآلهتهم أعمق من إيمان المؤمنين بالله الذي لا إله غيره رب السماء ورب الأرض رب العالمين ؟

أنتم رسالته وفي الأرض من هو أكثر إيمانا بإلهه منه هو من وضع إيمانه مكان الاحتبار فوق ؟ إنه ألقى في النار وأمر الله النار أن تكون بردا وسلاما عليه ، أليكون إلقاؤه في النار أوحى لقلبه من دبح ابنه وتقديمه قربانا إلى ربه ؟

أليذبح إسماعيل بيديه ؟ ذلك هو البلاء العظيم . أليذبح حبيبه الذي شعف به حبا ؟ إن إسماعيل هو بكره وإن السفراويين يحرقون أبكار آبائهم على مذبح آلهتهم ، وإن الكنعانيين الوثنيين يقدمون أبكار آبائهم



محروقة لأربابهم ، ولم يفكر إبراهيم في دبح إسحاق إذ كانت العادة أن يكون القربان الابن البكر وقد بشر الله إبراهيم بإسحاق ومن بعده يعقوب ، لقد كتب الله له الحياة .

إن أمره الله بذبح إسماعيل فسيطيع وسيجده الله إن شاء الله من الصابرين .

لم تكن السماء والأرض وما بينهما لتسع لله . ولكن قلب إبراهيم اتسع لله فقد كان من المؤمنين حقا ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون .

انقلب إسماعيل إلى قومه مسرورا يمتطي صهوة جواده فقد استطاع بالصبر والعزيمة أن يروض جوادا برياً وأن يخصه لإرادته على أن يسلس له قياده فكان أول إنسان يركب حصانا .

أطلق في الوادي يعدو صوب الخيام ، وسمع الناس وقع حوافر الخواد فخرجوا يظفرون فرأوا إسماعيل يركب فرسا يسابق الريح ، قففروا أفواههم من الدهش ورمقوه في إعجاب وإن فر بعضهم إلى الخلال مرعوبين .

وترجل إسماعيل عن الخواد وراح يمسح ناصيته يديه ويربت على ظهره في حنان وحب ، وقومه يظفرون من بعيد لا يجرؤ أحدهم على أن يذب من الخواد خشية أن يثور فحاة ويعود إلى طبعه الوحشي فيبعث في المكان فسادا ، يقر بطون العلماء ويقتلع الخيام ويلقي الرعب والفرع في قلوب الشيوخ والعجائز والنساء .

وجمع أحدهم أطراف شجاعته و تقدم من الخواد في حرص شديد ، ثم مد يده يمسح بها ظهره وتأهب ليطلق ساقبه للريح إذا بدرت من الخواد بادرة غدر أو غضب .

واستقرت يد الرجل على ظهر الخواد واطمأن قلبه الواجف شيئا ما واقترب وفي عييه قلق وإسماعيل يشحبه بإتسامة ليعتل الخواد ، ولكن الرجل اكتفى بتمرير يده على جسم الخواد واعتبر ذلك نصرا .

وصهل الجواد وتبهنس فاتسعت أعين الناس رعباً وتأهبوا للفرار ،  
ولكن إسماعيل مسح يده وقاده إلى بئر رمزم وسقاه ثم عاد به إلى خيمته .  
كانت هاجر ترقب ابها في إعجاب . لقد كان يرعى الغنم مع أترابه  
من القلمان ولكن همته لم تقتصر على رعى الغنم بل راح يضرب في  
حوف الصحراء وحده ، وحدره الرجال أن تقتك به السباع وخوفه  
أن تتحطمه الشياطين ولكنه أصم أذنيه عن تحويفهم .

واشرح صدر هاجر إذ اتخذ ابنها لنفسه سيلاً غير مسيل قومه ، فلم  
يؤثر الدعة ولم يؤثر السلامة بل فكر ودبر وعقد العزم وعض . فكان حرياً  
أن يتنصر .

استطاع ابها الشاب أن يستأس الخيل وأن يدللها لقومه ليركبوها  
وربة وتحمل أثقالهم إلى بلد لم يكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، إن الله  
رعوف بالعباد .

كانت هاجر ترقب إسماعيل ومشاعر الحب والإعجاب تفيض من  
قلها الكبير حتى تملأ وجدانها فرحاً وسروراً ، كانت ترى فيه رعيماً  
لقومه ، أبا لأمة عظيمة ، أمة مؤمنة بالله رب العالمين .

وأقلع الخوف من قلوب القوم وأقبل شبابهم على الحصان حتى إذا  
استأنسوا به تشجع بعضهم فركبه ، وداعبت قلوبهم أسية أن يكون لكل  
مهم حصان مثله ، وفي عماية الصبح خرج إسماعيل على ظهر جواده  
وحوله شباب الحى ، حرجوا إلى الصحراء ليصطادوا الجياد .

كان شباب العمالة يحلمون بما يفعلونه بعد أن يستولوا على الخيل ،  
قال بعضهم إنه سيطلق بحصانه إلى سورية ، وقال آخر إنه سيطلق به إلى  
مصر ، وقال ثالث إنه سيطلق به إلى أهله في بلاد بابل ، حتى إذا توعلوا

في الصحراء ورأوا الجياد تفرح في الخلاء وضعدوا أنفسهم تحت إمرة إسماعيل بوجههم كيف يشاء فهو أعرف بهم بذلك الأمر الخطير .

وراح إسماعيل يعدو بخواده حلف الجياد يسوقها إلى حيث وقف الشباب متحفزين ، وانقضى النهار بين كروفر وجهاد في سبيل الاستيلاء على الخيل حتى إذا مالت الشمس للغروب عاد الشباب على ظهور جيادهم يرفعون رؤوسهم في حيلاء ، ولا غرو فهم أول كتيبة من الفرسان تسير على وجه الأرض . يزيد لها شرفاً أن على رأسها إسماعيل بن إبراهيم عبد الله ورسوله .

وربطوا الجياد في ناحية من الخيام وحلّسوا يتسامرون . وقال أحد المخاربين الشيوخ : ستجعلنا هذه الجياد أولى قوة وبأس نستطيع أن نقهر بها أهل الأرض طراً .

وكانت هاجر في عريشها تفكر في أمر رواج ابنها : إن العماليق يطمعون أن يزوجه منهم ويرغب الجراهمة أن يكحوه امرأة مس سائهم ، وهي تريد لابنها زوجة تصح أن تكون أما للدرية الموعودة التي يبارك الله فيها .

راحت هاجر تبحث عن امرأة تقية تؤمن بالله ورسوله وتحمل ما قد يصيبها من شدة وهي راضية . امرأة تهجر الدنيا وريتها ابتغاء وجه الله وتطمع في ثواب الآخرة يوم يقوم الحساب .

ونظر إسماعيل إلى صدا بت سعد وهي فتاة جميلة من العماليق فأعجته . فذهب إلى أبيها وحطباها ، وسكنت هاجر وإن لم يفتح قلبها للعنة ولم ينشرح لها صدرها ، سكنت ما دام إسماعيل أعجب بها .

وتزوج إسماعيل صدا بت سعد ، ومرت الأيام وإذا بصدا برمة

يعيشها لا تطيق ما هي فيه من حرمان . إن زوجها يتكسب قوسه كل صباح ويخرج للصيد ثم يعود بما رزقه الله ، إنها حياة جافة لا تطاق .  
لم تكن صدا تعلمت ما تعلمته هاجر ، لم تكن على درجة من الصفاء والتقى تؤهلها لتجد في ساعات فراغها فرصة للتفرغ لله والأس به .  
كانت هاجر تحب السعادة في التسييح والتعميد وتهلل بالفرح كلما تحلى عليها الله برحمته ؛ أما صدا فكانت تبحث عن السعادة في زينة الحياة الدنيا وكان الوادى الذى تعيش فيه جافا نصبت فيه متع الحياة .  
كان الله غاية هاجر مشرح صدرها ، وكانت الدنيا غاية صدا فألقتها في سجنها الذى أطبق عليها وصاق عليها الخناق ، حتى لودت أن تصعد على جبل قيس وتشكو للأرض والسمااء ما هي فيه من صيق وشظف عيش .

رأت هاجر كمر كيتها ( امرأة ابنها ) بالنعمة التى أنعم الله بها عليه فأمسكت على مصض ، ولم تشأ أن تنقص عيش ابنها ما دام راضيا عن عيشه . فاتخذت لها محرابا بعيدا عن بيت ابنها تعبد الله الذى قدر مهدى .  
وجاء إبراهيم يزور هاجر وابنه وروجة ابنه فهو لا يقطع كثيرا عن زيارتهم ليشد الأواصر بين إسماعيل وإسحاق وبين سارة وهاجر ، وتبادل أهل بيته الزيارات . ولكن هذه كانت أول مرة يزور إسماعيل بعد رواجه . ووقف إبراهيم أمام بيت إسماعيل وقال :

— السلام عليكم يا أهل البيت .

فلم ترد عليه صدا .

وأقبلت عليه تحديق فيه ولم يكن في نظرتها ود ولا ترحيب ، قال لها :

— هل من منزل ؟

— لا .

— كيف طعامكم ولبكم وما شئتمكم ؟

— نحن في صيق . أما الطعام فلا طعام ، وأما الشاة فلا تحلب الشاة بعد الشتاء المضير ( اللن ) ، وأما الماء فعلى ما ترى من العلف .

— فأين رب البيت ؟

— في حاجته .

— فإذا جاء فأقرئيه السلام وقولي : عبر عتبة بيتك .

وانطلق إبراهيم إلى حيث كانت هاجر ودخل عليها المحراب فألفاها ساجدة لله تسبح بحمده وتقدس له .

رأى إبراهيم أن روجة إسماعيل فظة غليظة القلب لا تصلح أن تكون أما للذرية الصالحة التي سوف تحمل رسالة الله إلى المشارق والمغرب ، فأمر ابنه أن يغير عتبة بيته ، أن يطلقها .

وطلق إسماعيل صدا بت سعد ، وطفقت هاجر تفكر في روجة صالحة ، روجة تقية تؤمن بالبعث والحساب وتطمع فيما عند الله من حراء ، فرأت أن تبعث في طلب فتاة من مصر<sup>(١)</sup> ، فتاة حرة أن تؤمن بالله الواحد القهار ، أن تؤمن باليوم الآخر والثواب والعقاب يوم يصع الله الموازين القسط ليوم القيامة .

وأرسلت هاجر إلى مصر .. إلى صديقة من صديقاتها عنف فرسانا

(١) جاء في الإصحاح الحادى والعشرين من التوراة . « وأحدث له أمه زوجة من مصر » وقال ابن هشام إنها عاتكة بنت عمرو الجرهمي وقال الواقدي إنها شاملة بنت مهلهل .

ليعودوا بمصرية يكون لها شرف رواح إسماعيل . وانطلق الفرسان على ظهور جيادهم ليهرؤا أعين المصريين وهم يجوسون بها حلال بلادهم . وبلغ الفرسان أرض مصر ورحب بهم ملك الهكسوس ، كانوا من العماليق وكان ملك مصر منهم ، ولم يغادروا قصره قبل أن يتفقوا معه على أن يمدوا جيشه بالخليل ، بالسلاح الرهيب الذى يجعل جوده فى حصون متحركة .

وعاد الفرسان إلى محراب هاجر بعد أن بهروا أنظار العالم بخيولهم ، وقدموا إليها الفتاة المصرية التى جاءت معهم لتكون راحة لإسماعيل . وتروح إسماعيل الفتاة المصرية . وذات يوم أقبل الأب الرحيم لزيارة ابنه فانطلق إلى بيته فألقى روجه فقال :

— السلام عليكم يا أهل البيت ورحمة الله .

— وعيكم السلام . تفضل .

— هل من منزل ؟

— نعم إن شاء الله ، اتزل رحتك الله فاطعم واشرب .

— ما طعامكم ؟

— اللبن واللحم .

— فما شرابكم ؟

— اللبن والماء .

— هل من حب ؟

— يكون إن شاء الله ونحن فى نعم .

— بارك الله فى طعامكم .

وهبط إبراهيم وانطلق معها إلى زمزم فأخذت تغسل له رأسه فقال

لها :

— أين إسماعيل ؟

— خرج مع أمه يرعيان الغنم .

وعاد معها إلى الدار ، حتى إذا انقلب إسماعيل إلى أهله ورأى أباه

هرع إليه يضمه ويقبله ويرحب به . وقال إبراهيم لابنه :

— أثبت عتة بيتك فيها صلاح المرء .



كان إبراهيم في محرابه يصلي لله ، وكانت هاجر تحمل نابت بن إسماعيل وهي منشروحة الصدر قريرة العين ، عرف قلبها الله وهامت روحها في ملكوته فكانت ترى في كل ما تمد إليه بصرها آية من آياته : في الماء والنار ، في السماء والسحاب ، في الصحراء الجرداء والمروج الخضراء ، في البور والظلام ، في حر الصيف وقر الشتاء . كانت الحقيقة العميقة التي تغلعلت في سويداء قوادها تبع فرح دائم فياض .

ونظرت إلى نابت بن إسماعيل بعين الحكمة التي جلست بصيرتها نعمة الله التي أسبغها عليها . لقد شكرت الله يوم هداها إلى الإسلام ، ولم يصب صدرها حرجا يوم زالت عنها أمة الملك فجزاها الله جزاء موفورا ، روجها من خليله وجعلها أم إسماعيل بكره الحبيب ووعدا أن يجعله أمة عظيمة : ﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ .

لقد وفي الله وعده ومن أوفى بعهده من الله ؟ فوهب لها إسماعيل ومن بعده نابتا . وإن إسماعيل ليعدو ويروح في قومه مهابا فما من أمر يرم إلا إذا وافق عليه ، وما من قرار يتخذ إلا إذا قال رأيته فيه ، فلئن كان لا يزال شابا إن الله وهب له صفات كريمة تجعله زعيما في قومه ، رئيسا لا يتنازع سلطانه منازع . إنه من الأخيار .

ولو أن ابنها ولد في منف لكان أميرا أسيرا في أيدي الهكسوس ولباعوه بثمن خمس دراهم معدودة ، ولكن الله أكرمه فجاء من صلب رسول

كريم ، وأسكنه بواد غير دى زرع ليشب حرا طليقا سليم العطرة ،  
وكرم الله وجهه عن الشرك والوثنية وعبادة آلهة غير الله رب السموات  
والأرض .

ضمت هاجر نابتا إلى صدرها في حب عميق وبظرت من خلال  
الخيمة وشردت فرأت بعين خيالها الوادى يبك بالناس بكًا ، بموج  
بعضهم في بعض . رأت مدينة قائمة عامرة بالمؤمنين ، إنها بكة ، بكة  
المكرمة ، مدينة إسماعيل وذريته من بعده .

وأفاقت من شرودها ومالت على نابت تقبله ، إنه أول الأسباط وقد  
وعدها الله أن يجعل من ذرية إسماعيل اثني عشرة أسباطا أما . ترى  
أيحبب إسماعيل هؤلاء الرؤساء أم يأتون من صلب نابت ؟ سواء أكلوا  
من إسماعيل أم من نابت فإنهم ذرية إبراهيم وذريتها المباركة .

وقاض في الخيمة نور كريم ونزل بها أمن وسلام وانتشرت روائح  
أطيب من ريح المسك وبدا أن الله يوحى لخليله بما يشاء ، وأنزل على  
هاجر ومابت أمنة نعاما يقشاهما ، وانقضى من الوقت ما انقضى وقام  
إبراهيم ووجهه يبيض بالبشر . لقد كان يرى معابد الوثنيين وهياكل  
المشركين فارهة شامخة فكان يستشعر حسرة ، فأبراج سين ومردوخ  
وشماس وعشتار مرتفعة في سماء بابل ، وهياكل بعل منتشرة في سورية ،  
ومسلات آلهة المصريين قائمة أمام المعابد الفرعونية ، يتنا لم يكن لله إلا  
محاريب بناها أيما نزل ، ولم يكن لله بيت مكرم يجتمع به المؤمنون ليقيموا  
شعائر دينهم .

إن إبراهيم يتهلل بشرا فقد أمره الله أن يسي لله يتنا يحج إليه الناس من  
المشارك والمغارب ، وقد هداه إلى مكانه ، الربوة الحمراء التي أنزل

فوقها هاجر وإسماعيل . سأل إبراهيم في انشراح :

— أين إسماعيل ؟

فاستيقظت هاجر من نعاسها وقالت :

— فيم تريد إسماعيل ؟

— أبشرى يا هاجر ، أمرني الله أن أبني له بيتا وأمرني أن يعينني

إسماعيل عليه .

وشرح إبراهيم يبحث عن ابنه ، وشخصت هاجر في السماء تصلي  
شكرا لله أن اصطفى ابها إسماعيل ليكون له شرف بناء بيت الله الذي  
جعله قياما للناس .

وهرع إبراهيم إلى وراء زمزم فوجد إسماعيل يصلح نبلا له فقال له :

— يا إسماعيل إن ربك أمرني أن أبني له بيتا .

فقال له إسماعيل :

— فأطع ربك فيما أمرك .

فقال إبراهيم وهو ينظر إلى ابنه في حب :

— قد أمرك أن تعينني عليه .

واغبط إسماعيل فقد تنقى الحكمة في صحف إبراهيم ، وعاش بين  
قوم يذكرون الله ويسبحون بالعشى والإبكار باسمه العظيم ، وعرف  
أن الله نور السماوات والأرض وأنه في كل شيء وأنه أقرب إليه من جبل  
الوريد . ولكن ما دار بخلده أن يأتي اليوم الذي يشرفه الله فيه بأن يرفع  
القواعد من بيته المحرم فقال وقد امتلأ قلبه بالمرح :

— إذا أفعل .

وليفعل إسماعيل الكثير إن شاء الله ، إنه ابن حليل الرحمن النبي

الصديق وابن هاجر المؤمنة الفاتنة الشاكرة لأنعم الله التي أرسل الله رسوله إلى مصر ليصطفها له من دون نساء العالمين ، ليهب له منها ابنا من الصالحين .

وقام إبراهيم وإسماعيل بتحطيط البيت ، وطوله اثنتان وثلاثون ذراعا وعرضه إحدى وعشرون ذراعا . وشرع إبراهيم وإسماعيل وهاجر ومعهم المؤمنون يقطعون الحجارة من جبل حراء وجبل قبيس ، وراح إبراهيم يقول :

— ﴿ رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر ﴾ .  
فأوحى الله إليه :

— ﴿ ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ﴾ .

وعكفوا على العمل : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل : ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ .

وارتفع النيان وإبراهيم يصكر في الأمة المسلمة لله ، الأمة التي سيجعلها الله من ذريته ودرية إسماعيل ، ففاض قلبه بالرحمة وتملكه الخوف أن يزل هم ما نزل بالأثم التي كفرت بأنعم الله عليهم . إنه يذكر ما حاق بأهل سدوم . فقد أرسل الله عليهم حاصا .. أمطرهم بحجارة من سجيل مفضود .. أنزل عليهم رجزا من السماء عما كانوا يفسقون ،

وترك من سلبوم آية بينة لقوم يعقلون .

وقوم نوح أخذهم الطوفان : ﴿ وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جنار عبيد ﴾ . وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ، ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود ﴾ .

وقال صالح لقومه : ﴿ يا قوم هذه ناقة الله لكم آية فادروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب ﴾ . فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ﴾ . فلما جاء أمر الله نجيها صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن يخزي يومئذ إن ربك هو القوي العزيز ﴾ . وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴾ . كأن لم يعملوا بها ألا إن ثمودا كفروا ربهم ألا بعدا لثمود ﴾ .

إنه يخشى أن يمسق أهل هذا البلد كما مسق قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط فيعذبهم الله بالطوفان أو يتبعهم باللعنة في الدنيا وفي الآخرة أو تأخذهم الصيحة فيصبحوا في ديارهم جاثمين أو يرسل عليهم حاصبا ويمطرهم بحجارة من سجيل ، وكم قسم الله من قرية كانت ظالمة وأنشأ بعدها قوما آخرين .

إن الله قادر على أن يذهبهم ويأتى بخلق جديد ، وهو قادر على أن يعذبهم عذابا عليطا ، ولكن إبراهيم يريد أن يكون بين دريته ودرية إسماعيل وبين الله عهد أن يعفر لهم دنوبهم وأن يرفع عنهم مقتته وعصيه ، وألا يرسل عليهم رجرا من السماء وألا يجعل أسمل ديارهم عاليها ، فرأى أن يجعل في بيت الله حجرا من الحجارة التي أمطر الله بها قوم لوط ليكون علما للناس يبدعون منه طوافهم ، يدكرهم دائما أبدا أن الله قادر على أن يعطشهم وأن يعذبهم عذابا شديدا ، وأن من يستلمه فإيما

يجدد العهد بيه وبين الله على الاستقامة وإغلاق أبواب العذاب : ﴿ سمعنا وأطعنا عفرانك ربنا وإليك المصير • لا يكلف الله مصا إلا وسعها ها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا واعفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ .

وجاء إبراهيم باخضر الأسود وجعله ركنا للبيت ، ثم وصع الركن اليماني وجعل باب البيت أمام رمرم وكان بالأرض غير متبوت ، وجعل قبالة ذلك الباب بابا آخر ، ففى للبيت بابا شرقيا وآخر غربيا ليدخل الناس من باب ويخرجون من الباب الآخر

رأى إبراهيم فى أور وبابل قدس الأقداس ، ورأى المراسيم التى يقوم بها الأورينجاللو عند دخول بيت الصنم ، ورأى فى مصر ما يقوم به الكهان ورؤساء أسرار السماء من مراسيم قبل دخول قدس الأقداس ، إنها طقوس ما أنزل الله بها من سلطان ، طقوس وضعها الكهان ليشرفوا طقتهم ويثروا ثراء فاحشا باسم الإله .

إن الله هو رب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، يدعو عباده وهو قريب ويستجيب دعاءهم ، بيته حرم آمن يحج إليه الناس يدخل إليه من يريد دون وساطة كاهن .. دون سلطان الأرض أو نفوذ المال ، قرب هذا البيت : ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم • هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون • هو الله الخالق البارئ المنصور له الأسماء الحسنى ، يسبح له ما فى السماوات والأرض وهو

العزیز الحکیم ﴿ ١٥١ 》 .

وحفر إبراهيم وإسماعيل عن يمين الداخل من الباب المواجه لزمزم حفرة لتكون خزانة للبيت . وارتفع البناء في السماء تسع أذرع وما كان للبيت سقف ، وأتم إبراهيم وإسماعيل بناء الكعبة ، ووقف إبراهيم في مقامه وأمامه باب الكعبة مفتوح للجميع كرحمة الله وعن يساره رمزم البئر المباركة التي فحرها الله لسقيا زوار بيته ، وراح يدعو الله ودمعه يجري على خديه ، ويشكر الله على أن أتم نعمته عليه وشرفه وشرف ابنه الحبيب إسماعيل بأن يرفعا القواعد من بيته المحرم ، الذي سيجعله الله مثابة للناس وأمنا .

— ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ﴾ . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴿ ١٥٢ 》 .

انقضى من الشهر أيام وكان إبراهيم على علم بالفلك والنجوم والحساب ، كان يعرف أن السنة ثلاثمائة وخمسة وستون يوما وربع اليوم فقد تعلم النظر في النجوم من حده ناحور في أور ، وتعلم منازل الكواكب وناقش كهنة مصر في الدورة الشمسية ، وكان على علم بأن اليوم أربع وعشرون ساعة . وكانت هاجر من مصر ولم تكن من سواد الشعب بل كانت أميرة من صف ، فإن كان سواد الشعب يحسبون أوقات الميضان ومواسم الزراعة فإن ما تعرفه هاجر كان يفوق ما يعرفه عامة الناس ، فقد تعلمت في مدرسة الكهنة الذين كانوا يحسبون المعارف عن الشعب ويدعون أنها من أسرار السماء .

وتلقى إسماعيل عن أبيه وأمه علم الفلك والحساب ، وعلم أن الأهلة موافقت للناس ، وأن الله جعل الليل سكنا والشمس والقمر حسيانا . وعلم إبراهيم وإسماعيل وهاجر القوم الذين نزلوا معهم على ماء زمزم ما يعرفونه عن اليوم والشهر والسنة ، ووصحوا لهم ساعات النهار والليل : الدرور ثم التزوغ ثم الضحى ثم العرالة ثم المهاجرة ثم الروال ثم الدلوك ثم العصر ثم الأصيل ثم الصوب ثم الحدود ثم الغروب ثم الشاهد ثم العسق ثم العتمة ثم المحمة ثم الموهن ثم القطع ثم الخوس ثم الكعبة ثم التبشير ثم الفجر الاول ثم المعترض ثم الأسفار .

﴿ إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق



السموات والأرض منها أربعة حرم ﴿ كان ذلك ما علم إبراهيم المسلمين الذين آمنوا بالله وباليوم الآخر الذين نزلوا مع هاجر وابنه حول ماء زمزم .

بَوَّأَ اللَّهُ لإبراهيم مكان البيت ورفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل وأما بناء الكعبة ، فأمر الله إبراهيم : ﴿ أن لا تشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود ﴾ فراح إبراهيم وإسماعيل وهاجر ومن معهم من المسلمين يغسلون الكعبة بماء زمزم ويظهرون البيت المحرم .

وأمر الله إبراهيم : ﴿ وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بركة الأنعام ﴾ .

ووقف إبراهيم على الحجر واستقبل اليمن ونادى :

— لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك . يأيها الناس كتب

عليكم الحج إلى البيت العتيق .

وارتفعت أصوات تلى :

— لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك .

ثم استقبل المشرق فدعا إلى الله :

— لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، حجوا يا عباد

الله يأيها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق .

وارتفعت أصوات التلبية من المشرق :

— لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك .

ثم استقبل المغرب فدعا إلى الله :

— ليك اللهم لييك ، ليك لا شريك لك لييك ، ألا إن ربكم قد  
اتخذ بيتا وأمركم أن تحجوه ، يأبها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت  
العتيق .

وارتفعت أصوات التلبية من المغرب :

— ليك اللهم لييك ، ليك لا شريك لك لييك .

ثم استقبل الشام فدعا إلى الله :

— ليك اللهم لييك ، ليك لا شريك لك لييك ، حجوا يا عباد

الله ، حجوا إلى البيت العتيق .

وارتفعت أصوات التلبية :

— ليك اللهم لييك ، ليك لا شريك لك لييك ، إن الحمد والنعمة

لك والملك ، لا شريك لك .

وضح الكون بالتلبية وراح الوجود كله يسبح لله ، وهبت على البيت

نسائم من الرحمة ونجى نور الله فإذا بالأفئدة تهوى إلى أول بيت بنى للناس

مباركا وهدى للعالمين .

وأقبل الناس من الشعاب وانحدروا إلى الوادى من الجبال ، أتوا من

كل فج عميق يمشون أو يركبون على ظهور الإبل والحيل والحمير ،

وارتفعت الأصوات بالتلبية :

— ليك اللهم لييك ، ليك لا شريك لك لييك ، إن الحمد والنعمة

لك والملك ، لا شريك لك .

ومست التلبية آذان إبراهيم وهاجر كأنها تلبية ملائكية آتية من

السماء ، فامتألت قلوبهم حشية واعتزت أجسادهم رعدة وسالت

عبراتهم ، شرقت هاجر بدموعها ونشج إبراهيم بالبكاء إنه أواه حلیم

مسيب وحر إسماعيل ساجدا لله رب العالمين .

ووقف إبراهيم مستقبلا بيت الله وأمامه باب الكعبة وعن يساره رمرم وخلفه اصطفى المؤمنين كملاتكة أطهار ، وجعل يدعو الله وهم يرددون الدعاء بعده ، ثم أعلن نية الطواف سبعة أشواط حول البيت . واستلم الحجر الأسود وفعلوا جميعا مثله ، كانوا يعاهدون الله على التوبة ويسألونه المغفرة وألا يحمل عليهم إصرًا كما حمّله على الدين من قبلهم ، وأن يغلّق دونهم أبواب العذاب .

وأتوا إلى الصفا ووقفوا فوقه كما وقفت هاجر يوم نفذ الماء تستقبل الوادئ تطير هل ترى أحدا ، ونورا السعي بين الصفا والمروة سبعة أشواط كما فعلت في ذلك اليوم الذي أنعم الله عليها وعلى ابنها ببشر زمزم . كانت هاجر متفعدة غاية الانفعال إذ غمرها الله بأعمه وكرمه ، أخرجها من الظلمات إلى النور وهداها سواء السبيل ووهب لها إسماعيل وجعلها بركة يوم جاد عليهم بزمزم وكان لها شرف المشاركة في بناء بيته المحرم ، وما خطر لها على قلب أن يجعل سعيها بين الصفا والمروة من شعائر الله ، والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

إن الله اصطفاهما لإبراهيم دون نساء العالمين ، وأمر رسوله أن يسكنها هي وإسماعيل عند بيته المحرم وأن يتركها إلى الله عز وجل ، فوثقت بالله وقالت حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا ﴾ .

وصار سعي هاجر بين الصفا والمروة من شعائر الله ، فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع حيرا فإن الله شاكر

علم . كانت هاجر مؤمنة عميقة الإيمان شاكرة لأنعم الله فجزاها الله خير الجزاء ، أليس الله بأعلم بالشاكرين ؟

وكان الساميون كلما التفتوا إلى البيت قالوا في فرح هياض :  
— بكة .. بكة .

أى البيت البيت ، فقد كانت بكة تطلق على البيت في لغتهم السامية الأولى ، وقد أطلقوا على بيت النعل بعلبك ، وعرفت المدينة التى تكونت حول بيت الله ببكة ، بالبيت المبارك ﴿إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ، والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين﴾

وفى اليوم الثامن من الشهر الذى أطلق عليه ذو الحجة منذ أمر الله إبراهيم أن يؤدى فى الناس بالجمع خرج إبراهيم بالحجيج إلى منى ، ونصبت الخيام هناك فصلى بهم الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة ، ثم بات بهم حتى أصبح فصلى بهم صلاة الفجر ، ثم عدا بهم إلى عرفة فقال بهم هناك ، حتى إذا مالت الشمس جمع بين الصلاتين الظهر والعصر ، ثم راح بهم إلى الموقف من عرفة وأخذوا يدعون ويستهلون ويقولون :

— لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيى ويميت وهو حي لا يموت .

وهبطت الشمس تغوص فى الأفق البعيد وهاجر وإسماعيل يتהלان إلى الله أن يعم نعمته عليهما وأن يتقبل منهما : ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة﴾ ، ﴿ربنا هافر لنا ذنوبنا وكفر عما

سيثاننا وتوفنا مع الأبرار ﴿ ١ 〉 . ﴿ ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين ﴾ .

وراح إبراهيم يناجي ربه :

— ﴿ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبأ وإليك المصير • ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واعفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ .

وغابت الشمس فدفع إبراهيم بمن معه إلى المزدلفة فزلوا هاك ، وكان القمر في ليلته العاشرة يبشر ضيائه على الصحراء المترامية فيبعث في الكون سحرا ، وكان الهواء يهب رخاء فينعش النفوس ، وكانت أفقده الحجاج مشرقة بنور ربها . قد كانت لهم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه .

ونام إبراهيم ورأى في المنام أنه يذبح إسماعيل فهب من نومه مفزوعا وراح يفكر في ذلك البلاء العظيم ، إنه رأى في المنام أنه يذبح ابنه ورؤيا الأنبياء صدق ، وحى من الله . إن السفراويين يقدمون أبقار أبنائهم قربانا إلى آلهتهم ، إلى صنم من الأصنام ، أ يكون إيمان الوثني بصنمه أعمق من إيمان إبراهيم برب السماوات والأرض رب العالمين ؟

وتذكر ذلك اليوم الذي كان مهاجرا فيه من أور إلى حاران ، يوم مر بسفروايم وكان معه أبوه ، فرأى رجلا يتقرب إلى سين يذبح ابنه البكر ثم إحراقه قربانا على مذبح إلهه . وإنه ليرى في هذه اللحظة نظرة أزر إليه : أنتذبح ابنك البكر لإلهك تقربا إليه وزلفى كما يفعل ذلك المؤمن بآلهتنا ؟ لم يكن له ولد في ذلك الوقت ، لم يكن قد رأى إسماعيل ولم يكن قد شغف به حبا . قال يومها في بساطة إنه ليفعل لو كان له ولد وأمره الله بذبحه ، ولكنه يحس اللحظة أن الأمر ليس هينا . إن ناراً تسرى

في أحشائه وحاجر نمرق قلبه وروحه تفيض من الدمع ويحجم عليها حزن أقسى من لسع النار ووخز الحناجر .

أمره الله أن يقدم ابنه المكر قربانا له ، وقد رأى الكنعانيين من حوله يذبحون أبكار آبائهم ليعل وعيره من آهتهم التي لا تملك لنفسها نفعا ولا صرا . أياض هو على الله الملك الحق بأنه لا يصن من كانوا في الضلالة على آهتهم التي ينحتونها بأيديهم بعلذات أكبادهم ؟

أليكون حب السفروايمين والكعابين لأصامهم أشد من حبه لربه العظيم ؟ أليكون إيمانهم بما ينحتون أشد من إيمانه بالله الذي هداه سواء السبيل ، من أمر البار أن تكون بردا وسلاما عليه واتخذة خليلا ؟ إن إيمانه بالله ليس له حدود . إنه ليصدق بما يأمره الله به أيا كان ذلك الأمر ، فإن كانت حكمة الله تحمل عن عقله فهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير .

وأصبح وهو حزين وإن عزم على أن يدبح ابنه البكر إسماعيل قربانا إلى الله ، إنا لله وإنا إليه راجعون . وصلى بالناس الفجر كأعجل ما يصلى أحد من الناس ثم أقامهم بالناس إلى منى

ونظر إبراهيم فإذا جبل ثبير قدنا من إسماعيل وقال :

— يا بني حد الحبل والمدية وانطلق بنا إلى هذا الشعب لحطب أهلك منه .

وانطلق إبراهيم وهو واله حزين تكاد كمدته أن تنفطر وغص حلقه وبزل بروحه حزن ثقیل ، ودنا منه رجل وقال :

— أين تريد أيها الشيخ ؟

فالتفت إبراهيم إلى جبل ثبير وقال :

- أريد هذا الشعب لحاجة لي فيه .  
— والله إلى لأرى الشيطان جاعك في مامك فأمرك بذبح بيك هذا  
فأنت تريد ذبحه .  
وعرفه إبراهيم فقال له :  
— إليك عسى أى عدو الله فوالله لأمضين لأمر ربي .  
ورجعه بسبع حصيات حتى ذهب .  
ويش عدو الله إبليس من إبراهيم فذهب إلى إسماعيل فاعترضه وهو  
وراء إبراهيم يحمل الحبل والشفرة فقال له :  
— هل تدري أين يذهب بك أبوك ؟  
— يحطب أهلنا من هذا الشعب .  
— والله ما يريد إلا أن يذبحك .  
— لم ؟  
— زعم أن ربه أمره بذلك .  
فقال إسماعيل في إيمان :  
— فليفعل ما أمره به ربه ، فسمعا وطاعة .  
ورجعه بسبع حصيات حتى ذهب .  
فذهب إلى هاجر وقال لها :  
— يا أم إسماعيل هل تدريين أين ذهب إبراهيم يا إسماعيل ؟  
— ذهب به يحطبا من هذا الشعب .  
— ما ذهب به إلا ليذبحه .  
— كلا هو أرحم به وأشد حبا له من ذلك .  
— إنه يزعم أن الله أمره بذلك .

— إن كان ربه أمره بذلك فتسلما لأمر الله .

ولم يذهب إلا بعد أن رحمته بسبع حصيات .

وانطلق إبراهيم إلى ثبير واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم فلما خلا  
بابه في الشعب قال وهو يكاد ينوء من الحزن :

— ﴿ يا بنى إني أرى في المنام أني أدبحك فانظر ماذا ترى ﴾ .

قال إسماعيل :

— ﴿ يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾ .

ووقف إبراهيم وقد شرد بصره وحقق قلبه بين جنبيه في شدة  
يستجمع كل إيمانه ويستعين بالله على ذلك البلاء العظيم ، فالأرض تزلزل  
تحت قدميه والخيال تتراقص ويئى يحيم عليها وجوم ، وقال إسماعيل :

— يا أبت إن أردت ذبحي فاشدد رباطي لا يصلحك شيء فيقص  
أخرى ، فإن الموت شديد وإني لا آمن أن أضطرب عنده إذا وجدت  
مسه ، واشحذ شفرتك حتى تحهر عني فترحمي .

وإذا أنت أصحمتني لتدبحي فكسي لوجهي على جبيني ولا تضجعني  
لشقي ، فإنني أخشى إن أنت نظرت في وجهي أن تدركك رافة تحول  
بيك وبين أمر الله قى . وإن رأيت أن نرد قميصي على أمي فإنه عسى  
أن يكون هذا أسلى لها عنى فافعل

وكان إبراهيم يصعق إلى إسماعيل وهو في دهول ، فلم يجزع إسماعيل  
ولم يلك أنباءه بل هو يخاف أن يقص أجره ، يخاف أن تدرك أباه رافة  
فيكص عن أمر الله إن إسماعيل صابر لأمر ربه ، فقال إبراهيم :

— نعم العون أنت يا بنى على أمر الله .

فلما أسلما وتلأ للجبين . ناداه ربه أن يا إبراهيم . قد صدقت الرؤيا إنا



كذلك نجرى المحسنين . إن هذا هو السواء المبين . ومداه الله بديع عظيم .  
فأكب إبراهيم على إسماعيل يقيه الدموع تفسل لحيته ويقول :  
— يا بني اليوم وهبت لى .  
سلام على إبراهيم ، كذلك نجرى المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين .

عاد الناس إلى بكة يستلمون الحجر الأسود ويطوفون ويصلون  
ويركعون ويسجدون وجلس إبراهيم يرقب إسماعيل في حب شديد وإن  
قلبه ليخفق حنانا ويمتلئ زهوا به ، فقد صبر لبلاء الله صبر الصالحين .  
ورن في أذنيه صوت امه وهو يقول : « يا أبت أفعلم ما تؤمر ستحدثني إن  
شاء الله من الصائرين » ، فانهمرت الدموع من عيني إبراهيم وراح يعكر  
فيما ابتلاه الله به منذ كان شابا في أور ، ابتلاه بمردوخ وكان قومه  
يرمزون إليه بكوكب المشتري ، فلما جن عليه ورآه قال هذا ربي ، ولم  
يكن قومه وحدهم الذين ظنوا الكواكب أربابا اعتقد المصريون أن نجم  
الكلب روح إيريس وأن الحمار روح حوريس ، فلما أفل قال : لا أحب  
الآفلين .

وابتلاه بالقمر ، أطلق عليه أهله في أور اسم « نانا » ، وأطلقوا عليه  
في بلاد ما بين النهرين وسورية وسبأ اسم « سين » . فلما رأى القمر  
بارغا قال هذا ربي ، فلما أفل قال ليس لم يهدي ربي لأكوني من القوم  
الضالين .

وابتلاه الله بالشمس وكان قومه يعبدونها وأطلقوا عليها « شماس » ولم  
يكن قومه وحدهم الذين عبدوا الشمس بل عبدها السوريون ، وعبدها  
المصريون باسم « رع » وباسم حور الأفق ، وعبدها الناس في كل مكان  
بأسماء ما أنزل الله بها من سلطان .

﴿ فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر . فلما أفلت قال يا قوم إني برىء مما تشركون \* إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حيماً وما أنا من المشركين ﴾ .

ابتلاه الله بالكوكب والقمر والشمس ، بالعبادات التي كان عليها قومه فتبرأ منها جميعاً واهتدى إلى ربه رب السماء والأرض رب العالمين . وابتلاه الله بقومه . كاد أصنامهم ﴿ فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون ﴾ قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ﴿ وأحجوا النيران وأتوا به لعله يكفر بإله الذي يدعو إليه قبل أن يلقوا به في النار . ابتلاه الله فصبر على بلاء الله ، وألقوا به في النار ولم يتخل عنه ربه وقال يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم . وأرادوا به كيداً فجعلهم ربه الأخصرين .

وابتلاه الله بالهجرة بترك أور إلى حاران وبالخروج من حاران إلى الشام وبالهبوط من الشام إلى مصر ثم بالعودة من مصر إلى أرض الكنعانيين ومن أرض الكنعانيين إلى الحبوب إلى أرض الحجاز ، إنه في سياحة روحية دائمة ، فقد هاجر إلى ربه وصبر على بلاء الله صبر الصالحين .

وابتلاه ربه بأن قال له إني جاعلك للناس إماماً ، قال ومن ذريتي ؟ قال لا ينال عهدي الظالمين .

أن يجعله الله إماماً إن في ذلك لبلاء مبين ، فلا يستطيع أن يهض بالإمامة الحق إلا أولو العزم من لا يضطرب في أيديهم ميران العدل ، من القوى عندهم ضعيف حتى يأخذوا الحق منه ومن الضعيف عندهم قوى حتى يأخذوا الحق له ، من يكون للناس مثلاً وقدرة . وكان إبراهيم خير

إمام .. ولقد اصطفاه الله في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين ، إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين .

وابتلاه ربه بأن جعل البيت مثابة للناس وأما فراح هو وإسماعيل يرفعان القواعد من البيت ويدعوان الله : ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ . ربه واجعلنا مسلمين لك ومن دبرتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت البواب الرحيم . ربه وابعث فيهم رسولا منهم ينلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويركهم إليك أنت العزيز الحكيم ﴿ .

وابتلاه ربه بأن عهد إليه وإلى إسماعيل أن يطهرا بيته للطائفين والقائمين والركع السجود ، فطهرا البيت وأراهما الله مناسكهما وتاب عليهما إنه هو العزيز الحكيم .

وابتلاه ربه بالبلاء المبين فأمره أن يذبح ابنه . ابنه الذي كان يقف في المحراب في حاران وفي دمشق وفي بيت يبل وفي مصر وفي حبرون يدعو الله أن يهبه له ، ابنه الذي استمع الله لدعائه فيه ووهبه له على الكبر وسماه ﴿ إسماعيل ﴾ . ابنه الذي ملأ حياته بهجة وسرورا ، ولكن أياكون ابنه أحب إليه من ربه ؟ أيمسرحه دياه وآخرته ليقبض على ابنه الحبيب ؟ أيعصى أمر ربه ويصم به على من وهبه له ووهب له من بعده إسحاق ؟ أيستطيع أن يهب ابنه الحياة إن أراد الله أن يقبض روحه ؟ إنها إرادة الله ولا راد لقضائه .

أينذبح ابنه بيده ؟ أيكبه لوجهه على حبيه ؟ أيتله للحبسين ويضع الشمرة على عنقه ثم يجذبها جذبة واحدة فإذا إسماعيل في العابرين ؟ إن القلب ليمرق أسي وإن النار لترعى في الحشا وإن الأنفاس لتحتق في

الحلقوم وإن الصدر ليقن كأعما حطت فوقه أثقال الدنيا وإن الدموع لتتججر في العيون وإن الروح لفي كرب شديد ، ولكن الله أمر وما كان إبراهيم ليعصى أمر ربه وإن كان ذلك الأمر أن يستل بيده روح أحب من على وجه الأرض طرا إلى قلبه .

وفدى الله إسماعيل بذبح عظيم والله أرأف بعباده من أنفسهم . أراد الله أن ينسخ عادة تقرب الناس إليه بدبح أبكار أبنائهم ، وأن يختار إيمان إبراهيم الاختيار الأخير ، أن يلوه البلاء المبين .

ففي اليوم العاشر من ذي الحجة صلى إبراهيم المعجر في منى وخرج إلى شعب ثير امتالا لأمر الله ، فاعترضه إبليس ليصده عن طاعة ربه .

وقد رحم إبليس ثلاث مرات ، رحمه في كل مرة بسبع حصيات ، وسيأتى المسلمون من بعد ليرجموه كما رحمه أبوههم إبراهيم .

وصار الرجم من شعائر الحح تشترك فيه اليد مع الروح ، وما من شريعة من شرائع الإسلام إلا ويشترك فيها الجسد والروح تعظيما للجسد ليرفع العنصر الهابط إلى ملكوت السماء ، وليكون له شرف المشاركة في عبادة العظيم المتعال .

وصار ثير مكانا مقدسا . انطلق إليه إبراهيم وإسماعيل ليذبح ابنه تصديقا للرؤيا التي رآها ، وحاطب الله فيه إبراهيم فقال يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ، وفدى إسماعيل بذبح عظيم .

وليأتين الحجاج إلى ثير ، إلى القعة المقدسة التي نادى الله فيها إبراهيم ، حتى الحجاج في الحاهلية قد أتوا إليه تعظيما لشأنه ، ففيه فدى الله أباهم إسماعيل بذبح عظيم .

وكان إسماعيل بركة على الشريعة جمعاء فقد وضح أن الله لا يقر دبح

أبكار الناس وأهم يستطيعون أن يتقربوا إليه بكبش أو بأضحية أخرى ،  
ولن يبال الله لحرمها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم .

وصار المسلمون في العاشر من دى الحجة بعد صلاة الفجر ينحرون  
للّٰه فداء لأنفسهم وذرياتهم ويأكلون من الأصحية ويطعمون البائس  
الفقر أسوة بما فعله أبوهم إبراهيم .

لقد تاب إبراهيم إلى ربه ، وعده حق عبادته وحمده في الغدو  
والآصال ، وساح في الأرض يدعو إلى الله ، وركع لله وسجد له ، وأمر  
بالمعروف ونهى عن المنكر ، وحفظ حدود الله : ﴿ التائبون العابدون  
الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والنهي عن  
المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين ﴾ .

أسلم إبراهيم وجهه لله وآمن بالله وباليوم الآخر و ﴿ كان أمة قانتا لله  
حنيفا ولم يك من المشركين ﴾ وكان صادقا بل صدقا لم يكذب على الله  
أبدا لا في ذات الله ولا في نفسه : ﴿ إن الذين يفترون على الله الكذب  
لا يفلحون ﴾ وصبر على ما ابتلاه الله به صبر الصالحين الأخيار وخشع  
قلبه وعنت حبه للواحد القهار . وكانت كفه كالريح المرسلة فهو أبو  
الضيفان وأبو المتصدقين ، وكان ينذر للرحمن صوما فيصوم ما شاء الله  
له أن يصوم وإن كان يذبح للصيف كل يوم وكل ليلة وفي كل آن .

تزوج سارة وأبى وهو شاب أن يتخذ جارية لتنجب له ذرية ، حتى  
إذا صار شيخا وأمره الله أن يتزوج هاجر أطاع أمر الله . لقد كانت  
العاشة منتشرة في أرجاء الأرض والعاهرات المقدسات في معابد عشتار  
وباسنت وفي كل مكان ، ولكنه تعفف ونأى بنفسه عن الدنس الذي  
كان يفخر به عصره .

﴿ إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والحاشعين والحاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما ﴾ .

﴿ قد أفلح المؤمنون • الذين هم في صلاتهم خاشعون • والذين هم عن اللغو معرضون • والذين هم للزكاة فاعلون • والذين هم لفروجهم حافظون • إلا على أزواجهم أو ما ملكت إيمانهم فإيهم غير ملومين • ممن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون • والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون • والذين هم على صلواتهم يحافظون • أولئك هم الوارثون • الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ .

وذهب النهار وانحدرت الشمس وراء جبال بكّة وسقط الطلام على الوادى والناس يطوفون حول البيت ويركعون ويسجدون ، ووقف إبراهيم في مقامه أمام الكعبة وراح يتلو : ﴿ فسيحان الله حين تمسون وحين تصبحون • وله الحمد في السماوات والأرض وعشيا وحين تظهرون • يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون ﴾ .

﴿ وإذا أنلى إبراهيم ربه بكلمات فاتمهن ﴾ .

﴿ وإبراهيم الذى وفى ﴾ .

﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلا ﴾ .

تأهب خليل الرحمن لمغادرة بكة بعد أن انقضى موسم الحج وعاد الناس إلى ديارهم ، فقد ترك سارة وإسحاق في حبرون قبل أن يمشد الرجال إلى هاجر وإسماعيل وقبل أن يأمره الله برفع القواعد من بيته المحرم .

وكان قد قطع عهدا مع أبيمالك وتعهدا على أن يعيشا في سلام ، أن يكرم أبيمالك وفادة رسول الله وأن يزيله على الرحب والسعة في أرضه وأن يقسم إبراهيم بربه ألا ينافس أبيمالك في ملكه وأن يرعى ذريته من بعده .

وكان قد ررع حول بئر سبع أثلا واستقر به المقام فيها ولكن رعاته وعبيده كانوا في شجار دائم مع عبيد الملك ، فأمر إبراهيم قومه برفع الخيام والعودة إلى حبرون حيث كان رؤساء القبائل يحبونه ويحجلونه ويلتمسون منه البركة .

وأكرم الله هاجر وإسماعيل يوم أمره أن يسكنهما يواد غير دى زرع عد بيته المحرم ، ولم يكن هناك أنيس بل كانت الأرض لله لم يورثها بعد لأحد من عبادته . وفجر لهما بئر رمزم . فاجر لهما الحياة مهرع الناس إليهما يلتمسون النزول عندهما .

وكانت البئر لهاجر وإسماعيل . كانا يملكان عصص الحياة فكانا أساس العمران الذى بدأ يتكون حول بيت الله .



ونظر خليل الرحمن إلى سموح الجبال فرأى البيوت قامت عليها ونصبت الخيام وبدأت تتكون مدينة بكة . إنها مدينة مباركة يذكر فيها اسم الله في الغدو والآصال وفي آناء الليل وأطراف النهار ، إن هذه المدينة تنتشر ببركة هاجر وابنها إسماعيل .

إن إسماعيل يشب زعيما بين قومه ، إنه صادق الوعد من الأخيار ويعيش مع أمه آما في حرم الله لا يخشى أن يعتدى عليه أحد فقد حرم الله الاعتداء حول بيته ، إنها مدينة محرمة يأمن فيها الناس والحيوان والطير ، يأمن فيها كل من تردد بين جنباته روح .

ولو مال خليل الرحمن مع هواه لحمل سارة وإسحاق وقومه إلى بيت الله ولأَمْضى سحابة نهاره وسواد ليله في التهجد والعبادة ، ولكن الله وعده أن يورث ذريته مشارق الأرض ومقارها وأن يجعل فيهم الحكمة والكتاب . وقد تحقق وعد الله في بكة هورث هاجر وإسماعيل الأرض المباركة لا يارعهما فيها مازع ، وستنتشر ذرية إسماعيل في هذه البطاح . فاصبر إن وعد الله حق ولا يستحفت الدين لا يوقون .

أما ابه الآخر فلا يرال عريبا في الأرض يسبح بين بيت إيل وبيت سبع وقادش وشور وحبرون ، لا يملك أرضا ولم يبن بعد بينا لله العلى التقدير يصلى في محرابه ، بينا بيوت آلهة الوثنيين فارهة سامقة تشهد أن الصلاة لا تزال شائعة في الأرض ، إن الأرض يرثها عباد الرحمن الصالحون .

ووقعت عينا خليل الرحمن على هاجر وهى تنظر إلى بيت الله وقد تعلقت فيه كل آمالها ، كانت مهية تعرف في وجهها بضرة النعيم وتشع روحها نورا تفتتح له القلوب . لقد رأى خليل الرحمن ملوك بابل وحاران وجمرار ومصر ولكنه لم ير في أى منهم ذلك الحلال الذى أسفغ

الله على أم إسماعيل .

وودع خليل الرحمن هاجر وإسماعيل وزوجه وبنيه وطاق بالبيت طواف الوداع ، ثم امتطى راحته وخرج في القافلة المطلقة إلى الشام ليعود إلى حبرون ، وكان في شوق شديد إلى سارة وإسحاق .

ليقصن على سارة ما رآه في المنام من دبع إسماعيل وكيف أن الله ناداه في نير وفداه بذبح عظيم ، وليقصن عليها خبر البيت وكيف أمره الله أن يطهر بيته للطائفين والقائمين والركع السجود ، وكيف أمره أن يؤذن في الناس بالحج وكيف أتوا رجالا وعلى كل ضامر من كل فج عميق .

إن أحداثا حليلة قد وقعت منذ غادر سارة إلى حيث أسكن هاجر وإسماعيل قد تكون أجل الأحداث التي وقعت في حياة من اتخذ الله حليلا ، لقد شاركنه سارة كل حياته وهي تشاركه ذكرياته ، فهو يحدثها بين الحين والحين عن جده ناحور وعن أبيه آرر وعن أمه إيمتالي وعن عمه هاران وعن أخيه ناحور ، وإنه ليذكرها عما كان بينه وبين العمود ، وإنها لتذكر له كيف آمنت له وخرجت معه مهاجرة إلى ربها . إن ذكريات السنين تشد أحدهما إلى الآخر ، أيام حاران وليالها ، حروب دمشق ، أول محراب بناه إبراهيم لله العلي القدير ، هجوم جنود المصريين عليهم بالليل ، أمر سارة وهبوط إبراهيم إلى مصر ، عودتهما هاجر وكيف كانت هاجر حيرا وبركة على إبراهيم وأهل بيته فأنجبت له إسماعيل ثم بشر الله سارة بإسحاق .

إن الذكريات التي تربط خليل الرحمن بسارة ذكريات عالية نابضة بالحياة والبركة . إنها قصة أروع كفاح شهدته البشرية ، كفاح مرد آمن بالله الواحد القهار موقف في وجه العالم يحلو حقيقة التوحيد في الأرض

وقد نجح في رسالته ووفى ما أمره الله به .

لقد عرف حليل الرحم قبل أن يغادر حبرون إلى بكة أن ملكة زوجة أخيه ناحور أنجبت ثمانية وأن بتوئيل بن ناحور أنجب رفقة وأن رفقة شبت في حاران جميلة ودبعة ، ففكر أن يبعث إليغارر الدمشقي إلى حاران ليخطبها لإسحاق .

وسوف تسر سارة وتهلل بالفرح عندما يقول لها إبراهيم إن ابهما إسحاق سيتزوج رفقة ابنة عمه ناحور ، فأمنية سارة أن ترى إسحاق زوجا يملأ الدنيا ذرية صالحة ليتحقق وعد الله ، وقد كانت سارة تحب ملكة وإن كانت ملكة وناحور قد أيا أن يهاجرا مع إبراهيم إلى حيث لا يعلمان .

كان إبراهيم باراً بأهله ، فلئن كان في سياحة روحية يجوب المشارق والمغارب إنه كان يتنسم أخبار أخيه . ولم يهمل إبراهيم هاجر وإسماعيل بعد أن أسكنهما عند بيت الله الحرام بل كان يهدف دائماً إلى ربط أواصر الأسرة . ولئن كانت سارة وإسحاق لم يحجا هذه السنة إنه سيحملهما في العام القابل إلى بيت الله ليؤديا شعائر الله . وقد زاره إسماعيل مرات في حبرون وفي بيت إيل وعانق إسماعيل إسحاق في حب شديد حتى إن سارة تأثرت بذلك اللقاء وانهمرت من عينها الدموع .

وخيل إليه أنه يصفى إلى ترتيل سارة في صحفه المطهرة ، صحفه التي أنزلها عليه الله ، وأن صوته عذب ندى كترتيل الملائكة يمس شغاف القلوب ويبلل الروح بالعبرات .

إن صوته يسرى في سكون الليل أشحى من المزامير ويتغلغل في سويداء النفوس فيبعث الخشية في الوجدان ويطلق الأرواح لتهم في نور

الله ترشف رحيق الحكمة الغالية .

إنه في شوق إليها ، في شوق إلى أن يصفى إلى صلاحها ، في شوق إلى أن يلقي إليها السمع وهي تناجي ربها وتتهل إليه أن يعفر لها ويتقبل منها إنه هو السميع العليم .

ولاحت له أرباص حبرون — ولم تكن قد نسبت إليه بعد ولم تعرف بعد باسم الخليل — فحق قلبه رهة . فما أكثر ما سافر وجاب الآفاق وما أكثر ما عاد بعد سفره إلى خيامه وأهله ، ولكنه لم يحس أبدا ما يحسه في هذه العودة فقلبه يخفق في حزن وصدره يضيق وهامس يهمس في أغواره أن خطبا جلازل بأهله . ترى ما الذي حل بأسرته التي تركها وهي آمنة في كنف الله ؟

وأسرع إلى خيامه فنزل عن راحلته وراح يتلفت مهرع إليه الرجال والعبيد ولكن وجوههم كانت باسرة . وتقدم إبراهيم إلى إيلمازر الدمشقي وقال :

— ماذا هناك ؟

ولم يستطع إيلمازر أن يتجلد فأجهش بالبكاء وقال والعمرات تخفه :  
— ماتت سارة .

فأحس خليل الرحمن أنه يتمرق ، وهرع إلى خيمته وفضحها فإذا بسارة مسجاة أكب عليها إسحاق يبكي ويتحجب . ولم يستطع إبراهيم أن يكتم حزنه فراح يبكي سارة التي آمنت له يوم كفر به الناس وواسته يوم أعرض عنه الناس وضمندت جروح نفسه يوم سدنت إليه الطعنات . إنه يرى أحب الناس إليه فارقت الحياة ، أمست سارة جثة هامدة ، أضحت ذكرى كأيام أور وحاران ومصر .

وراح إبراهيم ينظر إلى سارة وفي حلقه وقدة من نار ثم قال :  
 — إنا يا سارة عليك محزونون ، العين تدمع والقلب لا يقول إلا  
 خيرا ، إنا لله وإنا إليه راجعون .  
 وطاف بذهنه أن يحملها إلى أور ليدفنها إلى جوار أمه إيمثالى أو يحملها  
 إلى حاران ليدفنها إلى جوار أبيه آزر ، ولكنه أعرض عن هذا . فليدفنها  
 في حبرون حيث فاصت روحها فالأرض كلها لله .  
 وقام إلى بنى حث ، إلى الناس الذين نزل بينهم وكانت بيته وبهيمهم  
 مودة ، وكانوا مجتمعين لما بلغهم موت سارة فقال لهم :  
 — أريد أن أشتري قبرا أدفن فيه سارة .

فقالوا له في إيمان :  
 — قبورنا كلها لك يا رسول الله احترمها ما تشاء .  
 فشكر لهم إبراهيم وقال :  
 — التمسوا لى من عفرون بن صومر أن يبيعنى مغارة الكفيلة التى له  
 فى طرف حقله .

وكان عفرون بين المجتمعين فقال :  
 — إلهها لك يا رسول الله ، هى والحقل لله ولرسوله .  
 ولم يقل خليل الرحمن أن يقبلها هدية بل قال :  
 — شكرا لك يا عفرون ، لا بد أن أدفع ثمن الحقل فإنى لا أدفن سارة  
 فى قبر لا أملكه ، فى قبر لم أدفع ثمة .  
 قال عفرون :

— إنى رصيت أن أبيعك الحقل بأربعمائة شافل من الفضة .  
 وورث خليل الرحمن لعفرون الفضة التى طلبها وأعطاه إياها على مرأى

ومسمع من القوم . وقبرت سارة في مغارة الكفيلة ووقف على قبرها  
إبراهيم وإسحاق وإيعازر الدمشقي والمؤمنون يكون السيدة الجليلة التي  
كانت أول من آمن بالله ورسوله ، والتي كانت القنوب نخشع لصوتها إذا  
قامت للصلاة أو قرأت في صحف حليل الرحمن .

بعث إبراهيم إلى إلبعارر الدمشقى وكيل بيته الذى كانت فى يده  
أموال إبراهيم وعبيده ومواشيه وقال له :  
— أستحلفك برب السماوات والأرض ألا تتخذ لإسحاق زوجة  
من بنات الكنعانيين .

— ومن أين تريد أن أتخذ له زوجة يا رسول الله ؟

— من أهلى . من عشيرتى . من قومى .

— وإن رفضت المرأة أن تخرج معى إلى هنا ، آأخذ سيدى إسحاق

معى وننتقل إلى حاران ؟

خلف موت سارة فراغا فى حياة الشيخ وترك بعد هاجر وإسماعيل  
عنه وحشة فى نفسه . إن إسحاق أنيسه فى حياته وقد بات لا يحتمل  
فراقه ، وإن الله وعده أن يورث هذه الأرض إسحاق وذريته ، فإن  
ذهب إسحاق إلى حاران فقد يستقر هناك مع زوجته وأهلها .

إنه احتمل أن يسكن هاجر وإسماعيل عند بيت الله المحرم وأن يبقى هو  
وإسحاق فى أرض الكنعانيين ليكون لذريته من بعده المشارق والمغارب .  
إنه احتمل أن يكون مشتتا بين أرض الحجار وبين حبرون ليتم الله وعده  
إن وعد الله كان مأتيا .

قال خليل الرحمن لإلبعارر :

— إياك أن تذهب بإسحاق إلى هاك . إن الله الذى أخرجنى من

ديارى وأوحى إلى ما أوحى ووعدنى أن يجعل فى دريتى الحكمة والكتاب وأن يورث ذريتى مشارق الأرض ومغاربها لقادر على أن يهديك إلى زوجة إسحاق .

أقسم برب السماوات والأرض ألا تعود نابى إلى هناك .

فقال إليعازر :

— أقسم برب السماوات والأرض ألا أعود بإسحاق إلى أرض أهله .

واطمأن قلب إبراهيم فقد كان يخشى أن يموت فيعود إليعازر بإسحاق إلى حاران ليروجه فى أهله تنفيذاً لوصية خليل الرحمن .

لقد وعد الله أن يورث الأرض عباده الصالحين . إن أرض الحجاز وما حولها لإسماعيل وذريته ما داموا صالحين ، وأرض الكنعانيين وما حولها لإسحاق وذريته ما داموا صالحين . إن الله لا يميز شعاً على شعب ولا ذرية على ذرية إلا بالتقوى والصلاح . قال الله تعالى لإبراهيم من اتخذ ربه خليلاً : « إلى حادثة للناس إماماً » قال إبراهيم : « ومن دريتى ؟ » قال الله : « لا ينال عهدى الظالمين » .

وخرجت قافلة إليعازر من حبرون وكانت عشرة من الإبل حملت بالزاد والمدايا ، واطلق إليعازر مولى إبراهيم إلى بلاد ما بين النهرين ، إلى البلاد التى خرج منها إبراهيم شاباً ليسيح فى الأرض يدعو الناس إلى الهدى والرشاد .

وانسابت القافلة فى أرض حاران وكانت أبرام معابد « سين » فارهة فى السماء وعبود الماء تنتشرها وهناك والمروج الخضضر تمتد على مدى البصر .



ودخل إليغارر أبواب مدينة ناحور وقد أرخى الليل سدوله وجاءت  
الفتيات إلى بئر الماء يحملن جرارهن على عواتقهن ، فأناخ الإبل بالقرب  
من الشر وشخص ببصره إلى السماء وقال :

— يا رب ! يا رب مولاي إبراهيم ورب الناس أجمعين ، يسر لي  
أمرى واهدني إلى من اخترتها زوجة لسيدى إسحاق .

يا رب ! ها هي سات أهل مولاي آتيات بجرارهن ، فلتكن التي أقول  
لها : أميلي حرتك لأشرب فتقول لي : اشرب وأنا أسقى إيلك هي التي  
اصطفيتها لعبدك إسحاق .

ودهب إليغارر إلى فتاة حلوة جدابة وقال لها :

— اسقى يا بنتي .

فأعرصت الفتاة عه وسارت في طريقها لا تلتفت إليه كأنما لم  
تسمعه . ورأى فتاة رقيقة يحطف حسنها الأبصار تهبط في درج البئر في  
حفة الأطياف وتملأ حرتها ، فحف إليها وقال :

— اسقني جرعة ماء .

فأشرق وجه الفتاة بابتسامة رقيقة وقالت :

— اشرب هنيئاً يا سيدى .

ما أظفك وأرفك أيتها الفتاة ! ليتك تكوين التي احتارها الله لسيدى  
إسحاق ! تفتحت نفس إليغارر لها وأرهفت حواسه قبل أن يُرفف  
سمعه ، وفتحت الفتاة فاهها عن لؤلؤ بصيد وقالت :

— اشرب حتى أسقى جمالك .

يا الله ! أنكون هي التي اصطفاها رب مولاه إبراهيم لابن مولاه  
إسحاق .

( هاجر المصرية )

يارب ! نورا في قسي حتى أهتدى إلى ما تريد ، يارب ! أريد اليقين حتى لا يكون ما جرى إن هو إلا نزع من الشيطان .

وراحت الفتاة تغدو وتروح بين البئر والمسقاة حتى إذا فرغت من سقاية الإبل عادت إلى إليعازر مشرفة الوجه متلهلة الأسارير فقال لها :

— ما اسمك يا بنتي ؟

— رفقة .

— بنت من أنت ؟

— بنت بتوئيل ابن ملكة الذي ولدته لناحور .

وحقق قلب إليعازر وتهلل بالفرح فقد هداه الله إلى حميدة ناحور أنحى مولاه إبراهيم .

— هل في بيت أبيك مكان لنا لبيت ؟

— عبدا مكان لتيتوا فيه وعبدا علف وتبن كثير . انتظرهما حتى

أخبر أهلي ونهي لكم مكانا .

وانقلت رفقة إلى أهلها ، وحر إليعازر ساجدا لله أن هداه إلى بيت ناحور وإلى حميدته رفقة ، إن الله أكرمه إكراما لحيله وإكراما نسيده إسحاق .

وبقى إليعازر ورجاله وإبله إلى جوار البئر حتى جاء لابان أخو رفقة وقال :

— تفصل إنا هيأنا البيت ، ادخلوا على الرحب والسعة .

ودخل الرجال البيت وقدم إليهم الماء ليأخذوا زيتهم ، ثم قدم إليهم الطعام وكانت رفقة وأهل البيت يخدموهم .

وسيقط الإبل إلى حيث تبيت وقدم لها العلف والتبن ، وأسلم

الرجال والعبيد جوبهم للأرض فراحوا في سبات ، ودخل إليعازر مع لابات ورقفة وأهل بيتهما ليتحدث في الأمر الذي جاء من أحله .

فصر إليعازر قصته قال إنه مولى إبراهيم رسول الله وأن ربه قد وسع الله عليه في الرق فأعتاه ، وأن خزائمه تفيض بالذهب والفضة وعبيده لا يخصصها العد ومواشيه وغنمه وجماله وحميره ترعى في أرض الله كأنها جراد منتشر ، وقد وهب الله لإبراهيم وهو شيخ وسارة وهي عجور عقيم غلاما ركبيا هو سيدي إسحاق ، وقد أمرني مولاي أن أخرج إلى أهله لأختار لسيدي إسحاق زوجة ، وقد هداني الله إلى بيت ناحور أخي مولاي إن هذا من فضل الله وإن الله لدو فضل عظيم .

والتفت إلى أهل بيت ناحور وقال :

— والآن أريد أن أعرف رأيكم في زواج سيدي رقة من سيدي إسحاق .

وكانت ملكة قد آمنت برسالة إبراهيم ورب إبراهيم ، فقد آمن بها أبوها ناحور ولكنه أرى أن يهاجر معه واستقر في أرض أجداده ، وقد دعت إليها بتوثيل كما دعا إبراهيم ابنه إسماعيل نسبة إلى إيل ، الله العظيم . فقال لابات وتوثيل :

— ليست لما إرادة بعد إرادة الله ، الله أمر وعلينا أن تصدع لما يأمر به إن الله فعال لما يريد ، ها هي رقة محددا وزوجها لإسحاق تنفيذا لأمر الله بارك الله لكم فيها .

فحز إليعازر شكرا لله على أن وفقه في سفارته ، على أن هداه إلى رقة التي اصطفاها لإسحاق ، إن الله يفعل ما يشاء ويصطفى من يريد . اصطفي هاجر لإبراهيم لتكون أما للعرب واصطفى رقة لإسحاق

لتكون أما ليعقوب ، أما لبني إسرائيل .  
وأهدى إليعازر إلى رفقة آنية فضة وآنية ذهب وثيابا ، ووضع في  
أنفها خزامة ذهب ورها نصف شافل ، ولف حول معصمها سوارين  
من الذهب ، وأهدى إلى ملكة ولايان وتوثيل هدايا فاخرة .  
وأحسن إليعازر رغبة أن يطير إلى حبرون وأن يقول لمولاه خليل  
الرحمن إن الله أكرمه وهداه إلى بيت أخيه ، وأنه جاء برفقة لتكون روجة  
لإسحاق وأن إسحاق لن يعود إلى حاران بل سيبقى في حبرون ليرث  
مشارك الأرض ومغارها مع أخيه إسماعيل فقال لأهل رفقة :  
— جهزوا رفقة لتعود إلى مولاي إبراهيم .  
— تمكث معنا عشرة أيام ثم تذهب معك .  
— بالله ابعثوا في إلى مولاي وقد مر الله على الملاح .  
— ندعو رفقة ونخبرها أنك معنا أياما أم تذهب معك الآن .  
وجاءت رفقة وخبروها فاحتارت أن تنطلق إلى المجهول الساحر  
الجميل الذي أعده لها الله ليوثها في الدنيا حسنة : ﴿ ولأجر الآخرة  
أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ .  
وتأهبت رفقة وجاريتها التي أرصعتها وفتياتها للرحيل ، ووقف أهل  
بيت ناحور يودعونها فكانوا يصموها إلى صدورهم في حب ويقبلوها  
قبلات وداع ويدعون الله أن يبارك ذريتها . ﴿ تبارك الذي بيده الملك  
وهو على كل شيء قدير ﴾ .  
ووقف إليعازر يطر وإذا الذكريات تعود به سين إلى الوراء ، فيرى  
مولاه إبراهيم وهاجر واسها الرضيع إسماعيل والقبيلة كلها وقد خرجت  
بودع الأميرة المصرية التي يحملها زوجها بأمر الله إلى المجهول . إن الله

شرف هاجر يوم أوقعها في الأسر فاصطفاهما لتكون أما للأمة المؤمنة التي تتكون حول بيته المحرم ، الأمة التي بدأت تضيق بها بكّة . وقد شرعه الله هو نفسه يوم وقع في الأسر يوم غزا إبراهيم دمشق فقد عرف الله واحتدى بنوره وهده الله صراط الذين أنعم عليهم ، وصار وكيل بيت مولاه وجعله على خزائنه .

وقد أوصاه خليل الرحمن أن يتصدق بكل ماله على الفقراء والمساكين يوم يذهب إلى ربه ، إلى الرفيق الأعلى ، فالأنبياء لا يورثون وما يتركونه من بعدهم صدقة وإن تركوا القناطير من الذهب والفضة .  
ألا ما أكرم هذا الدين جعل من الإماء أرواجا للرسل وأمّهات لخير ذرية ، وجعل العبيد على حرائن أموال المسلمين لا فضل لحر على عبد إلا بالتقوى .

إن مولاه إبراهيم يورث بنيه الحكمة والكتاب ، يورثهم طاعة الله والإيمان . إنه لا يورثهم عرض الحياة بل يورثهم ما عدا الله وإلا لجعل إسماعيل على خزائنه ، أو جعل إسحاق يشرف على العبيد والإبل والحمير والأنعام والأعنام وما في الخرائن من ذهب وفضة .

وركبت رفقة وفتياتها الحمال وانطلقن في أثر قافلة إليعازر . فلما ابتعدت القافلة عن مدينة ناحور وقبل أن يطبق عليها الأفق حانت من رفقة العناية إليها فانهمر الدمع من مقلتيها كاللؤلؤ على حديها .

لقد خرجت سارة من حاران من سنين طويلة مثلما تخرج منها رفقة الآن ، ولكن شتان بين حروج وحروج . كانت سارة مهاجرة لله فرارا من الاضطهاد لإعلاء كلمة الله وتمكن زوجها من إبلاغ رسالات ربه ، أما رفقة فإنها تخرج لأن الله اصطفاهما لتكون زوجة لإسحاق وأما

ليعقوب . كانت سارة مقبلة على حياة خشة ليس لها قرار بينا كانت رفقة ذاهبة للزواج من ابن رسول الله الذي مكن الله له في الأرض وجعل له مالا مملودا .

ومرت أيام والقافلة في طريقها وإذا بشاب جميل أقبل من الحبوب يتألق وجهه بالورودما وقعت عينا رفقة عليه لم تقو على أن ترفع عينها عنه والتفتت إلى إيعازر فألمته يتسم له فقالت :

— من هذا الشاب المقبل للقائنا ؟

فقال إيعازر وهو ينيخ جملة :

— إنه سيدي إسحاق .

فأسدلت رفقة الخمار على وجهها وأناحت جملها فذهب إسحاق إليها وانطلق بها إلى أبيه . وقص إيعازر على خليل الرحمن قصته وكيف أن الله أكرمه وهده إلى بيت ناحور . ثم أخذ إسحاق رفقة وذهب بها إلى خباء أمه وعمر القوم سرور وأفعمت القلوب بالبهجة لذلك الزواج المبارك .

كان الحمام يطوف حول الكعبة ويسير بين الناس وهو آمن ، فقد كان الناس يطعمونه ولا يمسونه بأذى ما دام في حامي بيت الله ، وكان أهل التقى يتعبدون في فناء بيته ، وكانوا في حرمة طائفين أو راكعين أو ساجدين . وكان بعض الخائفين يلوذون بالحرم مستجيرين فكانوا في ظل الله آمين لا يخشون بطشا ولا اعتداء ، فمن يهكر صفاء السلام أو يحدث في حرم الله حدثا يخرج منه وعليه لعة الله .

وكانت البيوت قد بنيت من الحجارة على سفوح الجبال التي تحيط بالوادي المقدس إلى جوار خيام الوهر السود ، وكانت الشمس ترسل أشعتها الحامية إلى الصخور البركانية فتشع الحرارة فتحيل بكة وقت الظهيرة إلى أتون نار .

كان الحر شديدا ولكن الطواف حول الكعبة لم ينقطع ، كان الناس يسون لسع الأرض لأقدامهم ووحز الشمس لأبدانهم وانبثاق العرق من أحسامهم في غمرة النشوة الروحية التي تفيض عليهم ، كانوا يستلمون الحجر الأسود بأيديهم وهم على ثقة من أنهم يعاهدون الله على الطاعة وعلى ألا يمطر عليهم حجارة من السماء أو يأتهم بعذاب أليم .

وجلس هاجر في الحرم وإلى جوارها نابت بن إسماعيل ، وعلى مقربة منها جلست روجة إسماعيل وحولها أبنائها قيذار والذيل ومنشا ومسمع ، وكان نابت يكتب على كتف بعمر بعض صحف جده ،

وكانت أم الأولاد تعلمهم القراءة والكتابة .

رأى إبراهيم الكتابة المسمارية في أور ، وكان القوم يصنعون ألواحاً من الطين يكتبون عليها بقلم على هيئة المسمار ثم يتركوها تجف ، وعلم ناحور حفيده إبراهيم كيف يكتب مثلما كان قومه يكتبون .

ودهب إبراهيم إلى مصر ورأى كيف يكتب المصريون على ورق البردى ، وخرجت معه من مصر الأميرة المصرية هاجر التي تعلمت الكتابة على أيدي كهنة منف ، فعلمت إسماعيل الكتابة ثم اشتركت في تعليم أحفادها ، ولم يكن البردى متوفراً في بكة فراحت تعلمهم الكتابة على الرمل وعلى عظام كتف البعير ورقاق العزلاء .

وانقلب شباب بكة إلى دورهم يحملون ما صادوه من آراء برية وعزلان وطير ، وحاء شاب إلى إسماعيل يشكو صاحبه قال إنه صاد بعض ما معه من الطير في الحرم ، فبعث إسماعيل في طلب الشاب وأبأه بشكوى صاحبه ، فأقسم الشاب أنه اصطاده خارج الحرم .

ولم تكن هناك حدود تفصل بين الحل والحرم وكان ذلك متروكاً لتقدير الناس ، فرأى إسماعيل أن يقيم حدوداً في بكة تحدد حرم الله ليكون الحرام بيئاً والحلال بيئاً ﴿ ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ﴾ .

وراح إسماعيل يبين حد الحرم من جهة الطائف على طريق عرفة من بطن نهر ، وحدّه من جهة العراق ، وحدّه من جهة الحمرارة ، وحدّه من جهة جدة ، وحدّه من طريق التنعيم ، وحدّه من طريق اليمن ، وكانت المسافات بين هذه الحدود والحرم تتراوح بين ستة أميال وثمانية عشر ميلاً ، وكان يقيس المسافات بمقاييس أهل بابل بالذراع المقسم إلى أربع وعشرين إصبعا .



كان إسماعيل فارساً رجل قوس وسهام ونال ، ولكنه كان حلاصة  
حصارتين عظيمتين بل أعظم حضارتين في عصره ، حضارة بابل  
وحضارة مصر ، وكان يعلم أبناءه في ظل الحرم ما تعلمه من حبل  
الرحمن وما رشحه من العلم من أمه هاجر التي جاءت من منارة العرفان ،  
تعلم منها العلم الصحيح الذى تخصص مما فيه من زيف الكهان وتألق ببور  
الله .

وتأقت نفس إسماعيل إلى زيارة الخليل فقد كانت الأسباب متصلة بين  
بكة وحبرون ، وقد شد إسماعيل الرحال إلى هناك أكثر من مرة فذهب  
لتعرية أبيه في فقد سارة وكان يعلم مكانتها في قلب أبيه وليكون إلى جوار  
إسحاق يواسيه ويمسح الحزن عن قلبه الكبير .

ودهب لبيىء أحاه لما تزوج رفقة بنت بتوئيل ابن عمه ناحور الذى  
لم يره وكان يسمع من أبيه أنه استقر في حاران وأنى أن يهاجر إلى ربه مع  
المهاجرين في سبيل الله .

كانت رفقة حفيدة عمه الذى سميت البقعة التى نزل بها باسمه فصارت  
مدينة ناحور ، لقد رآها في ذلك اليوم الذى ذهب فيه إلى حبرون وكان  
معه ابنة نابت وكان علامة قوى الإرادة يجوب مع أبيه الآفاق ويسير في  
الأرض ينظر كيف بدأ الخلق وكيف كان عاقبة المحرمين . ومر بسدوم ألا  
بعدا لسدوم قوم لوط .

رأى إسماعيل رفقة بيد أنه لم ير ابن عمه بتوئيل ، وسأها عن قومها  
وعما يعمدون فقالت له إن جدها دعا قومه إلى الله بعد رحيل إبراهيم  
الخليل وإنهم قوم مؤمنون ، وقالت إن أباهما يعبد الله وحده لا إله إلا هو  
وإنه امتلأ بالفرح وسجد لله شكراً لما قال له إليعارر الدمشقى إن الله

اختار ابنته لتكون زوجة لإسحاق ابن خليله وحبيبه إبراهيم .  
وتذكر إسماعيل كيف أن أباه تلقى ابنه نابت بترحاب عظيم وقله في  
حب وأجلسه إلى جواره وأنى أن يفارقه ما دام في حبرون ، وكان نابت  
سعيدا برفقة جده ، وكان يصلى حلفه كل الأوقات ويلقى إليه السمع إذا  
دعاه أو تحدث إلى المؤمنين .

ودهب إسماعيل كذلك إلى الخليل يوم علم أن الله مر على أخيه  
إسحاق بتوأمين ، وكان إسحاق يقص على أخيه كيف وصعت رفقة  
العيص ويعقوب . نزل العيص أولا ثم برل يعقوب في عقبه ويده قابضة  
بعقب أخيه وأنه سماه لذلك يعقوب : لقد بشر الله خليله بإسحاق ومن  
وراء إسحاق يعقوب ، وكان برول يعقوب ويده قابضة بعقب أخيه  
إشارة إلى أنه هو المقصود بالشارة .

كان إسحاق يفيض بشرا وسرورا ورفقة في سعادة غامرة فقد  
اصطفاه الله لتكون أم يعقوب ، وقد لاح في وجه رفقة الدهش لما قال  
إسماعيل : إن وهبني الله أنثى روجتها العيص .  
وضحك إسحاق وإسماعيل وضمت رفقة يعقوب في حان إلى  
صدرها وكان أقرب إلى قلبها من أخيه .

وتذكر إسماعيل أنه اصطحب ابنه قيدر في تلك الرحلة ورأى بعين  
حياله كيف كان فرح الخليل بالعلام ، كان يضمه إلى صدره في إعراز  
ويقيله في حب عميق فقد كان يرى في ذرية إسماعيل وإسحاق الوارثين  
الدين وعده الله أن يورثهم الكتاب والحكمة .

وتأهب إسماعيل للرحيل إلى الخليل ، إلى حبرون التي شرفها الله  
برسوله وهدى قومها للإيمان ، فامتطى جواده وودع أهله وانطلق مع

القافلة الخارجة إلى الشام .

بدأت بكة تأخذ مكانتها التجارية فصارت محطاً للقوافل التي تنقل بضائع الحبوب إلى الشمال وبضائع الشمال إلى الحبوب ، وأصبحت سوقاً تموج بالتجار ويتبادل فيها السلع وأخذ أهلوها يهتمون بشئون المال والتجارة .

خرجت القافلة إلى الفضاء العريض وكانت الطرق مفتوحة إلى العراق والشام وسيناء ، ولم يكن هناك فاصل بين الحجار وما جاورها من الدول ، وكان الناس أمة واحدة وكان أصلهم واحداً فقد خرجوا جميعاً من الجزيرة العربية واستوطنوا العراق والشام وصحراء سيناء ، وكانوا يتكلمون اللغة العربية وإن اختلفت لهجاتها .

لم تكن العربية قد نشأت بعد ، فستشأ العربية في كنعان من العربية كما نشأت منها لهجات بابل وآشور وستصبح لغة الكنعانيين وسيأخذها عنهم بنو إسرائيل .

وانفصل إسماعيل عن القافلة وعرج إلى حبرون مدينة الخليل ، وسارت القافلة في طريقها إلى غزة تحمل بضائع شرق إفريقية التي أخذت طريقها في المراكب إلى اليمن ومنها إلى الشمال .

ودخل إسماعيل خيام أبيه يمتطى حواده مهرع إليه العبيد يرحبون به ، وراح الرجال يرمقونه في إعجاب فقد كان جليلاً مهاباً تفتتح له القلوب وتهفو إليه النفوس .

وخف إليه العيص ويعقوب يستبقان فأخذهما بين يديه وقبلهما وهو مسرور ، وساروا إلى حيمة الخليل وإذا العيص يسئل منهما وينطلق إلى حيث كان حصان عمه يحاول أن يعتل ظهره . كان العيص حشواً يهوى

الصيد ويهيم في الصحراء وكان متأبدا كعمه إسماعيل ، وكان عمه يحبه من أعماق قلبه .

ودخل إسماعيل على أبيه واعتنق الرجلان وأخذوا بأطراف الحديث . وكان إبراهيم مسرورا لوفود حبيبه الذي هم يوما بأن يذبحه تميذا لأمر الله لولا أن فداه الله بذبح عظيم .

وفي الليل صلى إسماعيل وإسحاق ويعقوب والعيس والمؤمنون خلف من جعله الله إماما للناس ، وكانوا يصنعون إلى صلاته فترتجف قلوبهم في صدورهم وتهيم أرواحهم في ملكوت الله تسبح في اطمئنان في البور الذي تجل على العباد ، وأتم إبراهيم صلاته وجلس في المحراب وجلس عنده إسماعيل وإسحاق ويعقوب ، وخرج العيص مرة أخرى إلى حيث كان جواد عمه .

كان إسماعيل يهوى إلى الكعبة فهو في شوق إلى الطواف حول بيت الله ، تعلق قلبه به وبات يستشعر وحشة إذا ما بعد عنه . كان الهواء يهب نديا في حبرون والحقول الخضراء تسر الناظرين والقمر يرسل أشعته الفضية فيكسو الكون حلة من البهاء ، كانت مدينة الخليل ترهو بجمالها ولكن كل ما في الأرض من جمال لا يرقى إلى جمال النفحات الروحية التي تفيض بها نفس إسماعيل إذا استلم الحجر الأسود أو طاف بالبيت أو دعا الله وهو في الحرم بالسحر وعند شروق الشمس وآناء النهار وفي الغدو والآصال .

وانتفت إبراهيم إلى بيته ويعقوب وراح يوصيهم قال :

— يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتس إلا وأنتم مسلمون ﴿ ١٠٨ ﴾ .

ران على بكة الوجوم فقد دأع في الدور والحيام أن هاجر تجود بأنفاسها ، ونزل القلوب حزن عميق فأبها أول أنفاس طاهرة مؤمنة ترددت في الوادى المقدس منذ ذلك اليوم اندى أسكها خليل الرحمن بواد غمر ذى زرع عند البيت المحرم .

تركها وحدها هي وابنها الرصيع في واد لا يبت إلا السلم والكلأ لا ماء ولا أنيس ، وتحيط بها جبال فارهة قاسية جرداء ، ويحجم على المكان سكون عميق ينفث الوحشة والرعب والمزع ، فلما سألته الله أمرك بهذا ؟ وقال لها نعم ، لم تجزع ولم تبك بل قالت في إيمان عميق : إذا لن يضيعنا .

إن التي تجود بأنفاسها وهي شاخصة إلى الكعبة لم تكن في يوم من الأيام امرأة تعصف بها الأحداث وتلعب بها العواطف . إنها منذ أسلمت وجهها لله وثقت به وآمنت بقدرته وحكمته فتركت له نفسها يفعل بها ما يريد ، إنه على كل شيء قدير له الملك وله الحمد وهو العليم الخبير . إن التي تجود بأنفاسها ومن عندها يرنون إليها في هلع ورجاء هي بكة ذاتها ، هي تاريخها المشرق الذي فاص بالبركة والرحمة والأمن والسلام ، كانت ثلثي اثنين إذ هما في الوادى القفر هي وابنها الرصيع ، وكانت على يقين أن من أمر بتركها في هذه البيداء لن يضيعها أبدا . كان قلبها عامرا بإيمان لو ورع على أهل الأرض لأشرقتم أفئدتهم ببور الله .

ولم يصيغهما الله ففخر لهما بئر زمزم وبص الوادى القفر بالحياة ، وجاء الناس يلتجئون بها الرسول عندها فأدبت لهم على شرط أن تكون البئر لها ولأبها ، فما كانت تمرط في بئر وهبها الله لها وإسماعيل ابن حليل الرحمن .

كانت حليمة ربيعة القدر لها مهابة وإن كانت أكثر أهل الأرض تواضعا أحبا الناس الذين نزلوا عندها حبا عميقا من أعوار نفوسهم فكانوا يهرعون إليها يصفون إلى أحاديثها العذبة ، وكانت أحاديثها تدور كلها حول الله ودينه الذي بعث به رسوله ، وكان الناس يرهفون السمع فتحشع أفئدتهم وتفيض أعينهم بالدمع إذا قرأت في صحف إبراهيم ، وكان صوتها عامرا بالإيمان يحرك العواطف ويمس شفاف القلوب .

وراح الناس يرمقونها في أسى عميق ويحسون عظم الفاحشة التي سوف تنزل بموتها . لقد كانت بركة مذ وطئت قدمها الوادى المقدس وإنهم ليحشون أن ترفع البركة بموتها

أمر الله حليمة أن يسكنها هي وإسماعيل بالوادى القفر لحكمة تجلت للناس جميعا : أراد الله أن يقيم إبراهيم وإسماعيل القواعد من بيته المحرم . وقد بُنى البيت وطهر للطائفين والعاكفين والركع السجود وحمله الله مثابة للناس وأما ، وقد شاركت هاجر في بناء بيت الله وشاركت في تطهيره ، وكانت أول من لى يوم أمر الله حليمة أن يؤذن في الناس بالحج .

إن تاريخا مشرقا حيا نابضا بأعمق ما عرفت البشرية من إيمان وتسليم لله يذوى أمام أعينهم ؛ يطوى كطى السجل للكتب . وإن هي إلا نفس يرح ثم لا يدخل غيره وتصبح هاجر ذكرى عطرة ، ذكرى لا يححوها

كر السنين ما دام في النفوس وفاء .

وعص الحرم بالناس وضاق بمن جاءوا من كل فج عميق يسألون عن سيدة نكة ، وغصت الحناجر بالدموع وصاقت الصدور بمشاعر الأسى والحزن ، كان الجميع يقولون في وجد : إن هاجر تموت .

وفتحت هاجر عيها في جهد فرأت إسماعيل وبابت وقيدار وسائر حمدتها يحفون بها ، وكانت وجوههم مرآة للوعة التي تسرى بين ضلوعهم ، وكانت عيوسهم تشع شفقة وترقرقت فيها الدموع .

ورفت على شفتي هاجر ابتسامة فهي ترى في إسماعيل وأبائه وعد الله ، وعدها الله أن يبارك في ذرية إسماعيل وأن يجعله أمة عظيمة وأن يهب له اثني عشر رعيما عمرها الله برحمته حتى إنها لتخشى أن تكون قصرت في حمد الله على النعم التي فاضت عليها وعلى إسماعيل وحمدتها . وفي لحظات قصيرة استعرضت كل ما مر في حياتها : فرأت نفسها طفلة في قصر والديها في صف ، ورأت نفسها يوم رفت إلى أمير صف وكان القصر يموج بالأمراء والكهنة و كبار رجال الدولة ، وغمرتها في تلك الليلة سعادة غارمة فكانت تحسب أنها نالت أقصى ما يمكن أن يباله إنسان في الدنيا .

ولاح في وجهها أنها تسحر من شيء . إن كل ما أحست به في وادي الليل من سعادة وحيور وعطة لا يساوي الرضا الذي يطوف بالروح في سجدة واحدة ، كانت سعادتها تلك عابرة مرعان ما تبخرت ، أما رضى النفس ، سرور الإيمان ، فكان حالدا يشرق بالأمن والسلام .

ورأت نفسها وهي قلقة تذرف الدمع السحير يوم خرج زوجها لقتال الهكسوس ، ودب في قلبها يأس مرير لما حاءها بيا مصرع أميرها

حتى إنها كادت تقتل نفسها حزنا عليه . كانت جاهلة لم يستطع بنجاح ولا رع ولا حور ولا آلهة المصريين جميعا أن يمحوها نفحة من إيمان صادق ، إيمان يجعلها تتقبل قضاء الله بنفس راضية .

أين هي في ذلك اليوم مها يوم أسكنها إبراهيم بوادي بكة بلا ماء ولا أنيس ؟ إنها كانت يوم حاءها مصرع زوجها في قصرها وبين رجالها وعبيدها ووصيفاتها ولكنها أحست أنها وحيدة في الحياة بلا سد ولا معين ، بينا أحست يوم تركها إبراهيم وحده في الفلاة أنها في كنف إله قادر عظيم لن يتحلل عنها ولن يضيعها .

كانت تحف الرعاة العملاقة الذين أغاروا على بلادها بكل خلعة من حلجات نفسها ، كانت تنسى الموت لهم جميعا ، فإذا بها بعد أن هدأها الله للإيمان تمنحهم الحياة وتسمح لهم أن يزلوا معها على ماء زمزم وتفتح لهم قلبها وتغفرهم بحبها .

أسروها في معب يوم كانت أميرة ، يوم لم تكن شيئا مذكورا ووهبها لسارة وحطوا من شأنها ، ثم أرسلوها أرفع منزلة في قلوبهم بعد أن صارت جارية وأعرها الله بالإسلام ورفع من شأنها ، إن الله يعز من يشاء إن الله عزيز حكيم .

وكان إبراهيم يدعو ربه في أور وحاران وفي الشام ومصر : رب هب لي من الصالحين ، كان في شوق عظيم أن يكون له ذرية . وأحر الله استجابة دعاء خليله لأن الله قدر أن يكون ابن إبراهيم البكر منها أكرمها الله ! وإنها لتسبح بحمده وهي تودع آخر أيامها في الدنيا قبل أن يجزيها الله الجزاء الأولي .

واحتراها ربه في وحيدها يوم أمر الله خليله أن يدبح ابنها ، كان بلاء



عظيما انتصر فيه الإيمان وحب الله ورسوله على حب ملدة القواد ، إن  
بار الشكك أليمة ولكنها تهون في سبيل رضا الله .

وأراد الشيطان أن يصدّها عن طاعة الله فوسوس لها أن ما رآه إبراهيم  
في منامه إن هو إلا وحى كاذب ، فصمّت أذنيها عن همزاته وأعلقت  
وجداها دونه ورجحته في نفسها قبل أن ترجمه بسبع حصيات ، فما كان  
للشيطان سلطان على من قال له الله أسلم ، قال أسلمت لله رب العالمين .  
وطاف بدهنها ذلك اليوم العصيب ، يوم نقد الماء الذي تركه إبراهيم  
لها وإسماعيل ، فإيها لم نهرع إلى جبل الصفا كراهية أن ترى إسماعيل يموت  
فقد كان قلبها عامرا بالإيمان أن الله لن يضيعهما فلم يأمر الله خليله أن  
يسكنها بذلك الوادى المقدس عبثا سبحانه وما فعل ذلك إلا لأمر عظيم .  
إنها ارتقت الصفا وسعت بين الصفا والمروة تتعجل رحمة الله فقد حلق  
الإنسان عجولا .

وجزاها الله جزاء الشاكرين فحعل هرولتها بين الصفا والمروة شعيرة  
من شعائر الحج ، ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو  
اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوَّع حيرا فإن الله شاكر  
عليم ﴾ .

واستشعرت رغبة ملحة أن تسجد شكرا لله ، ولكنها كانت مسجاة  
لا تستطيع حراكا وأعجز من أن تلتصق جبهتها بالأرض ، ولم تقو شفتها  
على تمجيد الحميد المجيد فأسبلت جفونها وأحست أن روحها تسبح لله  
وتسجد له في ملكه الواسع العريض الذى لا تحده سماء ولا أرض .

ورأت وهى مسيلة العينين مقام إبراهيم وهو ملتصق بالبيت عن يمين  
باب الكعبة ومرتفع عن الأرض قرابة ذراع ، وإنها لترى إبراهيم وهو قائم  
( هاجر المصرية )

عليه إذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، وخيل إليها أن الكون كله يدعو بدعائهما : ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم • ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم • ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ .  
 وإنما لترى إبراهيم وقد وقف على مقامه يؤذن في الناس بالحج يوم جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس : لييك اللهم ليك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، يأياها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق .  
 وسمعت الكون كله يلى : لييك اللهم ليك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك .

وتهللت أساريرها وهفت بنفسها إلى أن تقف على مقام إبراهيم تدعو الله أن يبارك في إسماعيل وذريته ، وفي الرسول الذى سيبعثه فيهم استجابة لدعوة خليله ، ولكنها كانت أعجز من أن تفتح عينها . ولكن روحها وإن ضاق بها الصدر كانت قوية مشرقة بوارها قادرة على أن تتصل بمن غمرها بفيض رحمته ، فراحت تناجى رب الحياة والموت أن يبارك في إسماعيل وذريته الصالحين ، وفي الرسول الذى سيبعثه فيهم ليعلمهم الكتاب والحكمة .

وجاهدت وفتحت عينها الواهتين لتلقى نظرة وداع على الكعبة ، وفتحت أذنها تريد أن يكون آخر عهدها بالدنيا أن تلقى السمع إلى ابتهالات الصالحين ودعوات المؤمنين ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ .

وتهللت روحها بفرح فياض فهي تستشعر أمنا ينسكب في وجدانها

وتغشاها سعادة عارمة أن تفيض روحها في ظل بيت الله . لو لم يشأ الله لها الهداية لكانت الساعة تموت شريدة في أواريس أو طريدة في دار من دور السادة بعد أن وقعت في أسر المكسوس . وحتى لو لم تقع أسيرة في أيديهم لمانت في قصرها في منع ، ولخط حسدها ليقاوم السبلى ، ولأوقفت الأوقاف العظيمة للكهان ليقوموا بالصلوات وتقدم القرابين لتظل روحها سعيدة في حياتها الثانية . وسوف يأتي يوم تنقطع فيه الصلوات والقرابين كما انقطعت في قبور بناة الأهرام ومن جاء بعدهم فتمسى سبياً مسياً دون أن تهتدى إلى نور السماوات والأرض ، النور الذى يهdy السبيل في الدنيا والآخرة .

إن الله أكرمها ففضى أن تموت في بيته المحرم وأن تقبر في الكعبة التى لا يقطع الطواف حولها في الليل أو في النهار ، قصى أن تدفن في الحرم الذى لا تتردد فيه إلا الأنفاس الطاهرة ولا يسمع فيه لعو ولا نأثيم ويفص بالطائفين والعابدين والركع السجود .

وأرهمفت السمع فدم تسمع ابتهاالات الطائفين فقد حفت الرجل في الحرم وحبست الأنفاس ، كان الجميع في وحوم تعلقت أعينهم بوجه السيدة الجليلة الذى كان يتألق بمر عجب ، فقد كثرت صلاتها بالليل محسن وجهها بالنهار .

ومال إسماعيل فوقها يرقب أنفاسها الواهة المتقطعة فحيل إليه أن أمه تلتقط أنفاسها من ثقب إبرة فراح يسح الدموع دون أن يجيش بالكاء ، كان أرحم من أن يسمعها بكاءه .

وانقطع الطواف حول البيت وشغل الناس بحبهم الكبير الذى أوشك أن يعيص ، أن يخفى إلى الأبد ، وطأطأوا رعو سهم أمام جلال الموت .

وعبس وجهه هاجر فهي تريد أن تموت وانتهاكات الصالحين تنسكب في روحها ودعوات الطائفين تصافح حواسها حتى تعب عن الوجود . إن انقطاع الطواف والانتهاكات والدعوات يملأ نفسها حرباً ، ليتها تستطيع أن تصرخ فيهم : طوفوا .. ادعوا الله إنه قريب يستجيب دعوة الداعي إذا دعاه ، إلا أنها كانت في النزع الأخير .

وطار حمام الحمى يطوف حول البيت وسمعت خفقات أجنحته فاستطعت أسارىها . إن الطواف لم يقطع حتى في لحظة موتها . ومس أديها تسيبحات عذبة لا تدري أكانت تسيبحات إسماعيل أم تسيبحات الملائكة أم تسيبحات روحها التي تنأى للانطلاق من سجن الجسد . كل ما كانت تدريه أن الحرم صبح بالتسيب والانتهاك والتهليل والتلبية لكأما جاءت كل الأحيال القادمة التي قدر لها أن تمح إلى بيت الله تلي بلاء الله . وتهلل وجهها ورفت على شفعتها ابتسامة رضى ثم أسلمت روحها ، فارتمى إسماعيل على صدرها وأحشش بالكاء :

— أمى .. أمى .

ونكى أبناء إسماعيل جديهم العالية ! وضج المكان بالحبيب فقد ماتت أعز من ترددت أنفاسها في الوادي المقدس ، ماتت الحاربة التي أراد الناس أن يحطوا من شأنها وأبى الله إلا أن يرفع لها ذكرها .

ورفع إسماعيل رأسه وألقى على أمه نظرة وداع ثم قال :

— لا إله إلا الله ، ما أطيبك وأطيب ريحك !

وراح الرجال يحمرون قبر هاجر السيدة الحليمة التي تكونت حولها بكة ، بكة التي بارك الله فيها للعالمين . وكان قبرها في جوف الكعبة بين الركن الشامي والركن الغربي في المكان الذي بنى لها فيه خليل الرحمن

عريشا يوم أسكنها هي وإسماعيل بواد عمير دى ررع عمد بيت الله المحرم .  
وحمل إسماعيل ونابت وقيدار والرجال الجسد الطاهر ودلوه فى قبره  
وأهالوا عليه التراب وفى الحياجر غصّة وفى القلوب حزن ثقیل ، ثم  
تفرقوا فى بكّة مطرقى الرعوس ، وسرعان ما عادوا إلى البيت يستلمون  
الحجر الأسود ويطوفون ويركعون ويسجدون لله الحى الذى لا يموت .

كان القمر يتألق في السماء تحف به سحب ناصعة البياض كأنها جياذ شهب ، وبدت الحقول كبساط من إستبرق يموج باللحى ، وانتصبت الأشجار القاهرة كأبراج في معبد الكون ، وتدلت الثمار كأنها الربرجد والآلى والبواقيت والذهب والمرجان ، وهب السيم رخاء يداعب أوراق الشجر فكان رفيقه رقيقا كبص القلوب المؤمة عذبا كتسبيح خرير الماء شحيا كشدهو زفيف الهواء . كانت الكائنات كلها تبض بسحر يده القلوب ويأخذ بالآليات .

واسات القافلة في هجعة الليل من حيرون واتخذت طريقها إلى الحبوب ، إلى الحجار . وعند السحر كانت أخفافها تعوص في رمال الصحراء وقد انتثر العشب الأخضر واردهر النوار الأصفر واكتست اليد بحلة ترقرت فيها نصارة الربيع . ربما ما خلقت هذا باطلا سبحانه !

وعلى رأس القافنة كان خليل الرحمن قد ابيضت لحيته ولاح أثر السين في وجهه ، لكن البريق الأحاذ الذى كان يشع من عينيه لم يطفى بل راده مهابة على مهابته وشرفا على شرفه ، وتألق وجهه ببور الإيمان المبعث من قلبه العامر بحب رب السماوات والأرض رب العالمين .

وكان في القافلة نمر من أهل بيته وقومه خرجوا معه لزيارة بيت الله

وتقديم العزاء لإسماعيل وبنيه في فقد هاجر ، السيدة التي كانت بركة على آل إبراهيم منذ أول يوم وهما ملك الهكسوس لسارة .

كان خليل الرحمن آنفا في شوق إلى الولد ، كان يدعو ربه أن يهب له من الصالحين فجاء أمر الله من فوق سبع سماوات أن يسي خليله بهاجر المصرية التي ولدت بمنف حيث ولد نبي الله إدريس . قدر الله أن تكون أما لإسماعيل ، أما للعرب الدين غرست نبتهم الصالحة في بكة التي بارك الله فيها وفيما حولها للعالمين .

وبشرت ملائكة الله سارة بإسحاق وهي عجوز عقيم بعد أن جاء إسماعيل بكر إبراهيم من هاجر المصرية التي أمر الله خليله أن يهاجر من أور وأن يسبح في الأرض ليقابلها في أواميس في قصر ملك الهكسوس لتحقيق مشيئة الله وتنفذ إرادته . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

ثم أمر الله خليله إبراهيم أن يخرج بها إلى الحجاز وإسماعيل بعد طفل رضيع قبل أن تبشر ملائكة الله سارة بإسحاق وأن يسكنها بواد غير ذي زرع عند بيته المحرم ، فقبلت هاجر أمر الله بنفس راضية مطمئنة ونزلت عند بيت الله المحرم ، البيت الذي بهاء إدريس النبي الصديق الذي ولد مثلها في منف ، والذي دعا الناس إلى عبادة الله الواحد القهار قبل أن يبعث نوح وإبراهيم .

وكان الطوفان قد جرف البيت فيما جرف فأسكن إبراهيم هاجر وإسماعيل فوق الربوة الحمراء التي بقيت من البيت المحرم ، إلى أن يأتي أمر الله بأن يقيم إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل .

وكان إدريس أول من علم المصريين الخط بالقلم ، وكانت هاجر أول

من علم إسماعيل وبنيه ومن نزل عندهم حول بئر زمزم الكتانة ، ولم نجد ورق البردى فاستخدمت عظام كتف العير والرفاق .

وعلم إدريس المصريين الزراعة والتصرف في ماء النيل وليس المحيط بعد أن كانوا يغطون أجسامهم بالريش ، ولو وجدت هاجر في بكة أرضا حصية وأنهارا تجري لعلمت ذريتها الزراعة ، ولكن الله يعد ذريتها حياة أخرى غير حياة الدعة والاستقرار ، غير حياة المترفين .

وعلم إدريس المصريين الإيمان بالبعث بعد الموت . ﴿ والورن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ﴾ . ومن حفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم عما كانوا بآياتنا يظلمون ﴾ . فلما طال عليهم الأمد وقست قلوبهم نسحوا حول إدريس الأساطير وجعلوه أرريس قاضي الموت من يضع الموازين القسط ليوم القيامة . ولكن هاجر كانت تؤمن باليوم الآخر وبالحساب بعد الموت ، فلما دعاها إبراهيم للإسلام لم تقل له في دهش : ﴿ أتدأ كما عظاما ورفاتا أننا لمبعوثون حلقا حديدا ﴾ بل قالت ﴿ أسلمت لله رب العالمين ﴾ .

كانت هاجر بركة مد أسكنها إبراهيم عند بيت الله المحرم ، وقد فاصت بركتها على الوادي كله ففخر الله لها ولايتها بئر زمزم واشتركت في إقامة القواعد من البيت ، وكانت أول من لبى عندما أدن خليل الرحمن في الناس بالحج ، وصرت على بلاء الله لما أمر بدبح وحيدها إسماعيل ، وكان إبراهيم عسياً أن يجد السلوى في إسحاق وذريته يينا تنلظى هي نار الشكل وتخرج عصص الحزن دون أن نجد من يخفف نوعها ، فما كان نابت وفيدار والدليل وإحوتهم ليقوموا عندها مقام إسماعيل :



آمنت هاجر وصبرت وعملت الصالحات وأحسنتم فماتت في ظل الكعبة وقبرت في البيت العتيق ، في البيت الحرام الذي جعله الله قياما للناس : ﴿إِنَّهُ مِنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

انطلق إبراهيم والدين معه إلى بكة وكانوا يسجدون لله في معبد الكون في الفضاء العريض ، وكانت قلوبهم تهوى إلى أول بيت وضع للناس مبارك فيه آيات بيئات مقام إبراهيم فمن دخله كان آمنا .

ولاحق لأعيهم سلسلة الجبال الجرداء الفارحة التي تحيط بالوادي المقدس فضح من في القافلة بالتلبية والتلهيل وخشعت قلوبهم . واستشعر إبراهيم حرجا فقد كانت هذه أول مرة يزور فيها بكة بعد موت هاجر الروجة الوفية التي اتقت الله ما استطاعت ، وسمعت وأطاعت ﴿وَمَنْ يَطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ .

وانحدرت الإبل إلى وادي بكة وطهر البيت والباس يطوفون به في ملابس بيضاء سدوا كملائكة أطهار ، وارتفعت أصواتهم بالدعوات والابتهالات لرب العرش العظيم فحفت القلوب في الصدور وطهرت العبرات من العيون .

واستلموا الحجر الأسود وطافوا طواف القدوم وكان إبراهيم يستشعر أن روح هاجر تطوف مع الطائفين كانت سعادتها في الدنيا أن تعتكف وأن تساجي ربها وأن تستغرق في عبادته حتى يشرق نور الله على روحها فتلهل بفرح فياض ، ولتكونن مهجتها في الآخرة أن تنعم بقرب الحبيب وأن تظل تسبح بحمده وتقدس له وتنعم بسرور الأنس به .

وأتوا الطواف ووقفوا أمام قبر هاجر حاشعين وقالوا :

— السلام عليك يا زوجة رسول الله يا أم إسماعيل ، لقد وجدت ما

وعذك الله حقاً ، إنا بك إن شاء الله لا حقون .

وترقرقت الدموع في مآقي القوم لما رأوا العبرات تسيل على حدى خليل الرحمن ، إن إبراهيم الحليم أواه منيب .

وجاء إسماعيل لما بلعه قدوم أبيه ، وتعانق الرجال وجلسوا في ظل الكعبة يدكرون الله كثيراً ويسبحون بحمده ويحرون له ساجدين . وأقبل أبناء إسماعيل إلى جدهم فرحين وألقوا إليه سمعهم فكان يوصيهم بما أوصى به بنيه ويعقوب : يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون .

ومس أذنيه صوت هاجر فخفق قلبه بين ضلوعه في شدة ولاح في وجهه هلع والتفت في فزع ، فإذا بزوجة إسماعيل المصرية وكان صوتها أشبه بصوت هاجر فهزه من أعماقه ورلزل كيانه . كانت هاجر أثيرة عنده لم يسي ذكرها ما دام قلبه يحرق وألماسه تتردد فقد وهبا الله له من رحمة ﴿ ما يعنتح الله للباس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم ﴾ .

ومرت الأيام و خليل الرحمن والذبي معه عاكفون في الكعبة يستشعرون طمأنينة ورضا وأما فقد أشرقت بكة بهور ربها ، ولو ترك لهم أن يختاروا ما فكروا في العودة إلى حبرون أبداً ، ولكن خليل الرحمن ألقى أن يتبع هواه فإن الله لم يأمره أن يستقر في بيته المحرم .

وكان على خليل الرحمن أن يتخذ له زوجة بعد موت سارة وهاجر فما كان لرجل صالح أن يعيش بلا زوجة . إنه قبر حب شبابه في حبرون وقبر حب رجولته في الكعبة . ولكن كان عليه أن يتزوج فإن الله يريد أن يهب له ذرية من ساء أخريات غير سارة وهاجر ليشتري كوا في الميراث

العظيم الذى وعده به حليبه ، ميراث مشارق الأرض ومغاربها .  
وتلفت إبراهيم يبحث عن زوجة له . لقد أتى أن يزوح إسحاق من  
بنات الكنعانيين الذين ينزل بينهم وبعث إليهم الدمشقى إلى حاران  
ليعود برفقة ، فإن كان أتى أن يزوح ابنه منهم فأجدر به ألا يختار زوجة  
منهم لنفسه .

إليه ولد فى العراق وتزوج سارة بنت عمه هاران ثم زوّج إسحاق فى  
قومه ، وقد يسر الله له أن يتزوج من مصر وأن يكون بينه وبين المصريين  
سبب . إنه يريد أن يربط الأواصر بين أهل بيته وهؤلاء القوم من العرب  
الذين نزلوا مع هاجر حول بئر زمزم وأصبحوا قوم إسماعيل ودريته ، فلو  
تزوج فيهم لربط الله به بين العراق ومصر وبلاد العرب .

وتزوج إبراهيم قطورة بنت مقطور من العرب العاربة وولد له منها  
مدن ومدين وقيسان ورمزان ويسبق وسوح . ومرت السنون وجاء  
اليوم الذى ينتشر فيه هؤلاء فى الأرض فأمرهم أن يخرجوا إلى حيث  
يوجههم ، فأمر مدن ومدين أن يهرلوا الأرض التى سميت مدين فيما  
بعد ، وأمر قيسان أن يذهب إلى مكة ، وأمر بعضهم أن يهرل خراسان  
فقالوا له :

— يا أبانا أنزلت إسماعيل وإسحاق معك وأمرتنا أن ننزل أرض العرب

والوحشة .

فقال خليل الرحمن فى هدوء :

— بذلك أمرت .

إنه أمر فكان عليه أن يطيع ويصبر وكان على بنيه أن يعذوا أمر الله ،  
وأخرج مدن ومدين إلى سيناء لتكون ذرية مدين أهل مدين قوم شعيب

بى الله ، وانطلق قيسان إلى مكة ليتزوج امرأة من جرهم لتلد له البربر ،  
وانطلق بعضهم إلى حراسان واستولوا على الحكم وسموا ملوكهم  
خاقان .

وانتشر دين إبراهيم في الآفاق ﴿ ومن يرعب عن ملة إبراهيم إلا من  
سفه نفسه ولقد اصطفياه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ .

نام إسماعيل في الحرم وإذا بور يسكب في روحه وإذا بأوامر تلقى إليه ، كان الله يوحى إليه ما يشاء وما كان لشئ أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب .

وقام إسماعيل من يومه وكأما حفرت أوامر الله في صدره ، لقد أرسله الله إلى قومه ليدعوهم ليلا وسارا إلى الله لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه .

لقد نزل العمالة معه حول بئر زمزم وآمنوا بالله وبإبراهيم رسول الله ووقروا الكعبة ، وما كانوا يعودون إلى دورهم قبل أن يطوفوا بالبيت العتيق . ولكن من نزل منهم حول البيت قليل ، فقد انتشر فريق منهم في تهامة ومنهم يثرب بن عبيل بن مهلايل بن عوص بن عمليق الذي نزل عند جبل أحد وحفر آبارا وزرع نخلا وسمى المكان باسمه « يثرب » ؛ وانتشر فريق آخر في الشام واستولوا على مصر . وقد أرسل الله إسماعيل لينذر العمالة الذين كانوا يعيشون في بلاد العرب .

وكذلك نزلت قبيلة جرهم حول بئر رمرم ، وآمن الجرهميون بالله وبإبراهيم رسوله ووقروا بيت الله ، ولكن من نزل منهم حول البيت قليل . كان جرهم بن قحطان سيد اليمن وكانت قبيلته التي نزلت عند هاجر حول بئر زمزم من اليمن وكانت في طريقها إلى الشام فاستقرت وآمنت بالله ، ولكن اليمنيين كانوا لا يزالون على دين قومهم فتأهب

إسماعيل للحروح إلى تهامة والانطلاق إلى اليمن ليدعو الناس إلى عبادة الله الواحد القهار .

وولى إسماعيل ابنه نابئا على نكة وكان شابا ورعا راحح العقل مطاعا مهابا شريفا في قومه وإن لم يبلغ الخامسة والعشرين . كان يجمع بين حلم إبراهيم وإيمانه وبيل هاجر ورجاحة عقنها وشجاعة إسماعيل وصبره ، كان سبطا من خيرة الأسباط .

وطاف إسماعيل بالبيت العتيق . ثم ركب حواده وانطلق إلى تهامة بلاد العمالقفة . وكان محط أنظار الجميع آتاه الله حكما وعلما والله غالب على أمره وكذلك يجرى المحسين . وكانت الصحراء مترامية لا يبلغ مداها البصر والسماء زرقاء صافية تبدو في الآفاق البعيدة كأنما انطلقت على الأرض ، والجبال الصخرية الشاهقة فارهة جرداء موحشة فترلت بالقلوب المؤمنة رجمة من خشية الله القادر الجبار رب السماوات ورب الأرض رب العالمين .

ودنا إسماعيل من شاطئ البحر الأحمر ورأى ثم فرأى سفنا من بلاد النهرين ومن شواطئ المحيط الهندي ومن مصر ومن اليمن تمخر عباب الماء صاعدة هائلة محملة بالأحجار الكريمة والبخور والخلود والعاج وريش النعام والتوابل والحبوب وأقمشة الكتان .

وكان إسماعيل على علم بطرق القوافل البرية فاحجاز هو الجار الغربي للعراق وما كان ثم حواجز طبيعية تعوق الاتصال بين بابل والجزيرة العربية ، فإن كانت تجارة السد وبابل ومصر تنقل عن طريق البحر فما كان ذلك إلا لخشية القوافل من غارات البدو المستترين في البادية ، وكان هؤلاء يعيشون على مهاجرة القوافل وسلب ما تحمل من نفائس وسى من

فيها من نساء .

كان البدو يهددون القوافل تهديدا ، وراد الأمر سوءا أن العمالقة الأشداء الذين لم يستقروا في سورية ولم يهبطوا إلى مصر احترقوا النهب فكانوا يقتلون الرجال ويأسرون النساء والولدان بضاعة ، فازدهرت الملاحة في البحر الأحمر ، وكان للنقاة التي تصل النيل بذلك البحر شأن عظيم في تبادل سلع بلاد الهرين ووادي السند ووادي النيل وبلاد بونت .

كانت بضائع وادي النيل وبلاد ما بين الهرين ووادي النيل تنقل في السفن إلى عدد ، فكان التجار اليمنيون يشترونها ثم يحملونها في قوافل تحترق الجزيرة العربية إلى سورية ، وقد أنشأ هؤلاء التجار أسواقا في بكة ويثرب وبصرى وغزة .

وكان إسماعيل يعرف بى قحطان حق المعرفة فقد مرل معه على ماء زمزم قبيلة جرهم وهي قبيلة يمنية فأسلموا له قيادهم وإن كان لهم « مكرب » ، وكانوا يسمون كل رئيس فيهم « مكربا » كما كان المصريون يسمون ملكهم « فرعون » وكما كان أهل حيرار يسمون ملكهم « أيمالك » .

وقد قابل إسماعيل اليمني في أسواق الشام واعتاد أن يخرج معهم كلما ذهب إلى حبرون لزيارة أبيه إبراهيم وأخيه إسحاق ، كانوا تجارا يحبون المال حبا جما ويركبون الصعاب في سبيل جمعه ، وقد بعثه الله إليهم ليدعوهم إلى الإسلام . وقد استجابت له جرهم وأسلمت لله وإنه ليرجو أن يمر الله دينه هؤلاء التجار الذين يجوبون الآفاق فيحملوا دين الله القيم إلى العالمين .

إبه مطلق أول أمره إلى تمامه باسم الله وعلى بركة الله ، إنه مطلق إلى العمالقلة الدين علا شأنهم حتى استولوا على الشام ووادی النيل ، إبه مطلق إلى جبارین یرجو أن یشرح الله قلوبهم للإسلام . وبعد ذلك ینطلق إلى الیمن لیلغ الناس هناك رسالات ربه ، وقد وطن النفس على الصبر واحتیال الشدائد .

وبلع إسماعیل تمامه وبرل سوق من أسواقها كانت عامرة ببصائع هندیة من وادی السد وبصائع عراقیة من بابل وبصائع مصریة من وادی النيل وبیخور وأخشاب من بلاد بونت ؛ الأرضی الآسیویة والإفریقیة الواقعة حول مضیق باب المندب .

وكانت السفن تمحر عباب البحر الأحمر تحمل البصائع وحصارات الأمم الواردة منها ، كانت تتبادل السلع وتبادل الأفكار ، كانت تأتي بصائع بلادها وأفكار قومها وتعود بصائع البلاد الأحسیة وعصارة أفكارها .

وراح إسماعیل یحوس خلال السوق ثم قام على مرتفع وقان :

— یا قوم ألا تتقون ؟ إنی لکم رسول أمیر . فاتقوا الله وأطیعون . وما أسألكم عنه من أجر إن أجری إلا على رب العالمین .

— أترید یا إسماعیل أن نعبد إلهک ونذر آلهتنا ؟

— إن الله رفی وربکم فاعبدوه هذا صراط مستقیم .

— وآلهتنا یا إسماعیل ؟ ألا نحشى أن تبطش بک ، أن تترک علیک

غضبها ؟ أجتنا لتأفکنا عن آلهتنا ؟

— لیست آفککم على شیء . إنی أدعوکم إلى الله رب العالمین

وسرت مهمة استیاء بین القوم . إبه جاء إلیهم یسفه آلهتهم على أعین



الناس . إهم يعدون إنه القمر وإله الشمس وإله الزهراء ، والبلاد التي فتحوها تعبد نفس الآلهة وإن تباينت أسماءها ، أجمع ليحعل الآلهة إلها واحدا ؟ وراحوا يجادلونه فقال لهم :

﴿ أتجادلوننى فى أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ ؟

﴿ تريد أن تصدنا عما كان يعبد آباؤنا فأنا بسطان ميين ﴾

﴿ ما كان لى أن آتيكم بسطان إلا بإذن الله ، فاستغفروا الله ثم

توبوا إليه إن رضى قريب مجيب ﴾ .

﴿ إن آلهتنا قد مكنت لنا فى الأرض ولن يكفر بآلهتنا أبدا .

﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، وإنى أحاف عليكم

عذاب يوم عظيم ﴾ .

﴿ إنا لنراك فى ضلال ميين ﴾ .

﴿ ليس لى ضلالة ولكى رسول من رب العالمين • أبلعكم

رسالات رى وأصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون • أو عجبتم أن

حاءكم ذكر من ربكم على رحل منكم ليدرکم • واذكروا إذ جعلكم

حلماء من بعد قوم نوح وراذك فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم

تفلحون ﴾ .

﴿ إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ﴾

﴿ إن ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ثم

استوى على العرش يعشى الليل النهار يطله حثيثا ، والشمس والقمر

والنجوم مسحرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين •

ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين • ولا تفسدوا فى الأرض

( هاجر المصرية )

بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً إن رحمة الله قريب من المحسنين •  
وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أَقْبَت سحاباً ثقالاً  
سَقَنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نَخْرِجُ  
الْمَوْتِ لِعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ • والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث  
لا يخرج إلا نكداً كَذَلِكَ نَصُفِّحُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ .

وما زال إسماعيل يحوب البلاد وينطلق في كل وادٍ من تهامة يدعو  
الناس إلى الله ، فشرح الله صدور المستضعفين للإيمان فَأَسْلَمُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ  
الْقَهَّارِ . . يريد الله أن يمسَّ على الدين استضعفوا في الأرض وأن يورثهم  
مشارك الأرض ومغارها التي بارك فيها للعالمين .

خرج إسماعيل من تهامة في قافلة من القوافل المطلقة إلى اليمن وسار  
ومن في القافلة ليالى وأياما آمين ، ثم أمطرت السماء مطرا شديدا  
فصهلت الحياض وأقلت وأدبرت وقامت على سيقانها الخلفية فحدث  
المرسان الأعنة ليكبحوا جماحها ، وارتفع رعاء الإبل وهمت بأن تشرد  
لولا أن أخذ الرجال بزمامها ، وخف العبيد يسدلون على المضائع  
الأعطية خشية أن يصل إليها الماء فيذهب فيها الفساد ويلحقها الكساد .  
وراح الرجال يصبسون الخيام ، وشد إسماعيل خيمة من الوبر الأسود  
احتشى بها هو وجواده من المطر المنهمر على الجبال المتدفق إلى الوديان  
سيولا تجرف في طريقها الصحور لكأنها ريش في مهب الرياح .  
وبرق البرق ورعد الرعد وزعمرت العواصف ففرل الخوف بالقلوب  
فراح إسماعيل يسبح لله الذى يرى عياده البرق حوقا وطمعا ويشيئ  
السحاب الثقاب . وجاء رجل من رجال القافلة يتمثال للإله بعل إله  
العواصف والصواعق ، وكان التمثال لبعل واقفا على قمم الجبال في يده  
اليمى دبوس القتال وفي يده اليسرى حربة في أعلاها ما يمثل الصواعق  
وعلى رأسه تاج ذو قرنين تهدل من تحته الشعر حتى بلغ صدره ثم استدار  
في حلقات ، ووضع الرجل التمثال في حيمته ودعا الناس للصلاة .  
وصل إسماعيل في حيمته لله وأتم صلاته وإذا بأصوات صراعات تلعب  
سمعه ، فذهب ليرى ما يفعل القوم فألقاهم يسجدون لبعل فقال لهم .

— أتسجدون لغير الله ؟

— إنا نسجد لآلهتنا .

— لا تسجدوا للعل و ﴿ لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴾ .

— إنا نعبد آلهتنا التى وجدنا آباءنا لها عابدين .

— ﴿ إلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم .. إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والعلك التى تجري فى البحر عما يفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون \* ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحوسبهم كحسب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميع وأن الله شديد العقاب ﴾ .

وحاجه قومه كما حاج أباه إبراهيم قومه ، فقال لقومه ما قاله خليل الرحمن :

— ﴿ أتأجسون فى الله وقد هدانا ولا أحاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئا وسع ربى كل شئ علما أفلا تتذكرون \* وكيف أحاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فإى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون \* الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك هم الأمن وهم مهتدون ﴾ .

ثم عاد إلى حيمته واعتزل فيها وكان كأبيه يحب الخيمة وحياة العرلة ليتصل بالله ويأس به وتتهل روحه بالفرح كلما أشرق فؤاده بمر الله .  
إبه شأ فى حيمة بالقرب من الشر المقدسة . ولكنه جاب الآفاق

ورأى قصور مدينة مارى فى سورية ، مدينة العموريين ، وكانوا عربا مثله كما كان أهل بابل عربا كذلك ولكن أطلق العرب على عرب سورية اسم العموريين أى الغربيين لأنهم كانوا غرب بابل ، كما أطلقوا اسم الشام على من كانوا عن شمالهم واسم اليمن على من كانوا عن يمينهم .

كانت قصور مدينة مارى قصورا فخمة ضخمة بلغت مساحة أحدها ستة أفدنة وكان به ثلاثمائة غرفة رحرت جدرانها بزخارف وتماثيل ، ورسوم على إحداها بألوان زاهية أحادة تسمى العقول صورة الملك وهو يتسلم صولحان الملك والسيادة من الإلهة عشتار .

ورأى فى مدينة أوجاريت قصورا ومعابد للإله بعل وأخته عت روعة فى الفن والجمال ، ولكن لم تبهره هذه القصور بكل ما فيها من ترف وزينة وتماثيل ، نيا كانت نظرة واحدة إلى شروق الشمس أو غروبها أو إلى بروج القمر من خلف سحابة تهر مشاعره وتجعله يحمر ساجدا لبديع السماوات والأرض .

وأخيرا انقضت السحب وكف المطر عن الهطول ، وراحت طيور كالصقور تحوم حول قمم الجبال . لم تكن صقورا بل كانت طائر الحر وهو طائر صغير أعر أصقع قصير الذنب عظيم المسكين والرأس ، وقد عبر آخر مع أهل البلاد البحر إلى الشاطئ الإفريقى ثم إلى صحراء مصر الشرقية ثم إلى وادى النيل عن طريق وادى الحمامات حيث عبد فى مصر باسم حور ، ومنذ ذلك الوقت نظر المصريون إلى ذلك الوادى نظرة تقديس فقد جاءت منها الآلهة .

وانطلقت القافلة ونظر إسماعيل إلى الحبوب فرأى أرض اليمن فحقق قلبه وهفت نفسه إليها فهى أرض الأجداد ، فمن هذه البلاد خرج

أجداده فيمن خرج إلى بلاد ما بين النهرين حيث قضوا على مملكة سومر  
وأسس سرجون الأول مملكة أكد العربية التي اتسعت فتوحها حتى  
وصلت إلى آسيا الصغرى .

ومن أرض الأجداد خرج نمر من المغامرين إلى الشاطئ الإفريقي  
حيث دخلوا وادى النيل عن طريق وادى الحمامات المقدس ومن ذريتهم  
جاء المصريون إن آباء أبيه إبراهيم من هذه الأرض السعيدة وإن آباء أمه  
هاجر منها وكانوا جميعا يتكلمون لغة واحدة وإن احتلمت لمحاتها . كان  
الناس أمة واحدة فعث الله السيئ مبشرين ومدرسين وأرسل معهم الكتاب  
بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه .

واستأنفت القافلة رحلتها إلى أن برئت عند أبواب صعاء ، وراح  
إسماعيل يحوس حلال الأسواق وكانت عاصمة بالثياب والمسوجات  
الواردة من حبل وبالأقمشة الكتانية والحلى الواردة من مصر والأواني  
الفخارية الواردة من بلاد السد والسيوف والخناجر الواردة من بابل  
وبالخور والتوابل والأحشاب الواردة من بلاد بونت ، ولا عرو فقد  
كان التجار الجيئون همزة الوصل بين إفريقية والهند من ناحية العراق  
وسورية ومصر من ناحية أخرى .

وأقبل كهان صعاء ورجال الدين فيها على المحور فالحور يحرق في  
ديانات العرب إرصاء للآلهة ، وأقبل السوة على الحلى المصرية والحلى  
السبية والأواني الصخرية الواردة من بلاد السد ، وأقبل الأعياء على  
التحف والمائيل .

وراح إسماعيل يحوس حلال البلاد ويسعى في السهل الفسيح الذي

أردان بالحدائق والحقول فرأى معابد القوم تهض على الرنى العالية ، فآلهة العرب لا تسكن إلا الأعلى وقمم الجبال

ورأى إسماعيل في اليمن ما رآه أبوه إبراهيم في أور ، رأى معبد إله القمر وكان يطلق عليه في أور اسم نانا أو سين أما هنا فيطلقون عليه اسم « الموقاة » . ورأى معبد إله الشمس وهو في أور شماس أما هنا فهو ذات حميم . ورأى معبد إله الزهراء وهو هناك عشتار ذكر بالنهار وأنثى بالليل أما هنا فهو إله ذكر . ورأى العاهرات المقدسات في معابد الآلهة .

كان الموقاة هو الأب وذات حميم هي الأم وعشتار هو الابن ، وكان لكل قبيلة إله لجلب المطر وآخر لمباركة المحاصيل أو لغير ذلك من شئون الدنيا والدين .

وكان إله القمر في الديانات العربية هو رب الأرباب ، فإن كان العرب الذين أسسوا مملكة بابل في بلاد العراق جعلوا مردوخ ربا للأرباب ونسحوا الأساطير حول تصيب الآلهة إياه في جمعهم إلهها للآلهة ، مما ذلك إلا لأن مردوخ كان إله القبيلة العربية التي استلت الملك من السومريين .

فلما أصبح رعيم تلك القبيلة ملكا على مملكته بابل أراد أن يكافئ إلهه على ما أسدى إليه من معروف فجعله رب الأرباب من خفق البشر جميعا .

ورأى إسماعيل في معابد الموقاة وذات حميم وعشتار القرابين تقدم للآلهة في الصباح والظهر والمساء ، والكهنة يطلقون البخور ويتنون الصلوات ، وسمع المغنين والمغنيات وهم يشدون على أنعام الشخاشيخ

والمزامير والدفوف . رأى إسماعيل السبع الذى بعث منه ديانة بابل أصل  
المعتقدات التى ثار عليها أبوه حليل الرحمن .

وجادل إسماعيل أهل اليمن كما جادل إبراهيم قومه .

— ﴿ ما تعبدون ﴾ ؟

— ﴿ نعبد أصناما فنظل لها عاكفين ﴾ .

— ﴿ هل يسمعونكم إذ تدعون • أو يفعلونكم أو يضرون ﴾ ؟

— ﴿ بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ﴾ .

— ﴿ أرأيتم ما كنتم تعبدون • أنتم وآباؤكم الأولون • فإنهم عدو

لى إلا رب العالمين • الذى خلقنى فهو يهدين • والذى هو يطعمنى  
ويسقى • وإذا مرضت فهو يشفين • والذى يمتننى ثم يحين • والذى  
أطعم أن يعمر لى خطيتنى يوم الدين ﴾ .

— ﴿ أجبنا بالحق أم أت من اللاعين ﴾ ؟

— ﴿ بل ربكم رب السماوات والأرض الذى فطرهن وأنا على

ذلكم من الشاهدي • أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا  
تعقلون ؟

ولم يثر أهل اليمن ثورة أهل بابل . لم يقولوا حرقوه وانصروا آلهتكم  
إن كنتم فاعلين ، فهم بطيعهم ميالون إلى السلم ويتجهون مبدأ المسألة .  
هم قوم تحار فيهم رحابة صدر وسعة أفق وحسن إدراك للأمور تقوم  
حياتهم على حسن الصلة بالناس ، فجادلوه بالتى هى أحسن حتى شرح  
الله قلوبهم للإسلام وشهدوا أن لا إله إلا الله وآموا برسله وملائكته  
وكتبه .



وعكف إسماعيل على تعليمهم دين الله و علمهم فيما علمهم الكتابة  
لينسخوا صحف إبراهيم ، وفرح اليمنيون بالقلم الذى صار بين أصابعهم  
فهم قوم يعيشون على التجارة وهم فى أشد الحاجة إلى تسجيل عقودهم  
وتدوين حساباتهم وبعث رسائلهم إلى الأمصار ، فشكروا ربهم الأكرم  
﴿ الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ .

كان إبراهيم مسجى في خيمته والتف حوله إسحاق ويعقوب  
وإليزار الدمشقى ورفقة وكبار رجال القبيلة ينعكس الأسى على  
وجوههم ، وكانوا كلما سمعوا صوتا التفتوا إلى باب الخيمة في لهفة  
ورجاء كأنما ينتظرون وفود عزيز .

وخرج إليزار ووقف على باب الخيمة وألقى بصره إلى الأفق الخنوق  
يرقب الطريق مدة حتى إذا مشى اليأس إلى قلبه عاد مطرقا إلى حيث كان  
إبراهيم ، وأحس إليزار عيون انقوم تسأله فرجع رأسه وهزه في حزن  
ففاص الأمل في نفوسهم ونكسوا رؤوسهم .

وراح الرجال يرددون وجه خليل الرحمن وكان واهما يلتقط أنفاسه  
في جهد ، وأسبل عينيهِ فراح ينظر بعصم إلى بعض وقد غشيهم وحوم  
يرجون رحمة الرحمن بخليله ، ولم يطلق إسحاق صبرا فحرح مهرولا  
يرقب الطريق .

ومد إسحاق بصره إلى بعيد فلم ير أحدا قادما . ولم يكن حوله إلا  
المؤمنون الذين تعلقت قلوبهم بإبراهيم فلما سمعوا أنه يموت حاءوا  
مفزوعين من كل فح عميق وهم في ريب عما سمعوا ، فقد أبت نفوسهم  
أن تصدق أن خليل الله يموت !

وراح إسحاق بهرثب بعنقه ويظفر وقد خفق القلب الرجاء في  
صدره ، إن الله أرأف بخليله من أن يقبض روحه دون أن يحقق له رجاءه

الأخير ، فما أكثر ما وعده الله وكان وعد ربه حقا . وما دعا إبراهيم ربه دعاء إلا واستجاب له ، أو يموت إبراهيم دون أن تمتلئ عيناه برؤية الحبيب ؟

وطل إسحاق يغدو ويروح في قلق ثم عاد إلى حيث كان أبوه فتعلقت به الأعين فهز رأسه نفيا وقلبه يتمزق من الحزن .  
 وفتح إبراهيم عينيه واهتتين وقال :  
 — ألم يأت إسماعيل ؟

فغصت الحناجر وطمرت الدموع من العيون ، ومال إسحاق على أبيه وقال :  
 — إنه في الطريق ، إنه قادم .

ولم يطق إسحاق أن يبقى على تجلده فكاد يجھش بالكاء ولكنه كتم أنفاسه بكمه وأشاح بوجهه ، ثم فر من المكان ليكي بعيدا خشية أن يسمعه أبوه .

وأقبل إبراهيم جميعه وراحت الذكريات تتوالى على ذهنه : رأى هاجر يوم وضعت إسماعيل وإلى جوارها سارة تكاد تطير فرحا بالوليد ، ولم يلبث أن رأى هاجر وابها الرضيع في الصحراء ذلك اليوم الذي أسكنها عند البيت المحرم ، أمره الله أن يسكنها هناك قبل أن تبشر ملائكة الله سارة بإسحاق . ثم رأى نفسه وهو يقيم القواعد من البيت وإسماعيل ، ورن في أذنيه ذلك الدعاء الحار الذي ابعث من قلبه وقلب إسماعيل الحبيب .

وتنم بصوت خافت : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويركهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ .

ورفر إبراهيم زفرة قوية وشاح في وجهه نور وسلام ، كان يرى نفسه يطوف بالبيت العتيق مع الطائفين ويسعى بين الصفا والمروة كما سعت هاجر يوم نعد الماء منها وهرعت تستعجل وعد الله . ولقد وعداها الله أن يجعل ابنها الرضيع أمة عظيمة وأن يلد اثني عشر رئيسا فما كان الله ليتركه يموت عطشا بعد ذلك الوعد الصريح .

وطافت سحابة أسى بوجه إبراهيم فهو يرى نفسه وفي يده الحبل والمدية وسار خلفه إسماعيل وهما في طريقهما إلى ثبير . ورن في أذنيه صوته وهو يقول : ﴿ يا بنى إني أرى في المنام أني أذبحك .. يا بنى إني أرى في المنام أني أذبحك ﴾ .

وفتح إبراهيم عينيه وقال :

— ألم يأت إسماعيل بعد ؟

فقال من كانوا عنده :

— إنه قادم . سيكون هنا عما قليل .

وأسل إبراهيم جفنيه وعاد إلى ما كان فيه فسمع صوت إسماعيل يقول في وضوح :

« يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء من الصابرين » . وأحس إبراهيم لطفة ليضم إليه أخيب إلى صدره قبل أن يموت ، فقد بعث إليه رسولا ليعود به ولكن الأيام مرت ولما بعد بإسماعيل بكره وأحب أبائه إلى قلبه ، بكره الذي هداه الله بذبح عظيم وكرمه بأن جعله راعيا لبيته الحرم .

كان إبراهيم يتوق أن يكون لله بيت أعظم من بيوت الأصنام المنتشرة

في مشارق الأرض ومغاربها . وقد شاء الله أن يكون لإسماعيل دون بنيه كلهم شرف إقامة القواعد من البيت العتيق ، وأن يمضي عمره آمنا في ظله يسقى الححيح ويكرم وفادتهم .

ورأى إبراهيم نفسه وهو يقف على مقامه يؤذن في الناس بالحج ، فإذا بأصوات تدوى في جوفه : « ليك اللهم ليك . ليك لا شريك لك ليك » واملع إبراهيم بالتلبية المدوية في أعماقه فهتف :  
— ليك اللهم ليك .

وحسب إسحاق أن أباه لبي نداء ربه فارتمى عليه مفزوعا وقال في هلع :

— أبتاه ! أبتاه !

وفتح إبراهيم عينيه وقال :

— أ جاء إسماعيل ؟

وسمعت حركة عند باب الخيمة وامتدت الأبصار وحسبت الأنفاس وكادت القلوب أن تكف عن الوجيب ، ودخل القادم وهتفت الأصوات :

— مدين .

وهرع مدين إلى أبيه وفاضت عواطفه وركع إلى جواره وسادى بصوت خنفته العبرات :

— أبى .. أبى .

مرفع إبراهيم ذراعه وراح يمرر يده على رأس ابنه في حب عميق ، وما لبث أن عاد ذهنه إلى إسماعيل ، إلى من فداه الله بذبح عظيم ، فراه يجلس

عند بشر رمزم يعلم ألباءه وأبناء من برلوا معه حول البشر الكتابة ، ويرى لهم الأفلام ثم يرى لعنه السهام . إن إسماعيل أبرع من رمى .  
وملأت صفحة ذهنه صورة إسماعيل على صهوة جواده ، لقد كانت الخيل وحوشا قبل أن يستأنسها إسماعيل فروعها وجعلها دلو لا لقومه فاشتد بها بأسهم وصاروا هم الأعلون تدين لهم بالولاء الشعوب .  
وارتفعت أصوات الناس في الخارج يرحبون بمقدم شخص عزيز ،  
وهرع إسحاق ومدين وإليعازر ورعقة يطرون وإذا بأصوات تهتف في راحة :

— إسماعيل .. إسماعيل .

وترحل إسماعيل عن حصانه وخف إلى أهله وهو واله حزين وحياتهم في اقتصاب ، ثم راح يهرول إلى حيث كان أبوه فلما رآه مسجى وقد ذبل وعاض لونه خفق قلبه حزنا وقال وهو يشرق بدموعه :

— أبتاه ! كيف أنت يا أبتاه !

— إسماعيل ؟ الحمد لله الذي قدر لي أن أراك قبل أن أموت .

— كيف أنت يا أبتاه ؟

فقال إبراهيم في راحة وقد رفت على شفتيه بسمه ذائلة :

— أصبحت بحمد الله يارثا يا بني .

ذهبت أوصاب نفسه لما رأى ابنه الحبيب وملأ أنفه غيرة ، إنه يحس أن صدره اتشرح على الرعم من أنه كان يلتقط أنفاسه في جهد جهيد .  
إنه إن لفظ النفس الأخير يموت قرير العين فيده في يد إسماعيل ومن حوله إسحاق ويعقوب ومدين والصالحون ، وستصعد روحه إلى الرحمن

الذى اتخذه خليلا .

وراحت تمر بذهه أيام أور فرأى جده ناحور وأباه آزر وأمه إيتالى .  
ورأى نفسه فى معبد نانا والقوم يعبدون مردوخ ويرمزون له بكوكب  
المشتري ، فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا رى فلما أفل قال لا  
أحب الآفلين .

ورأى الناس يعبدون القمر ، يعبدون سين ومانا ، فلما رأى القمر  
بارعا قال هذا رى ، فلما أفل قال لكن لم يهدنى رى لأكونن من القوم  
الضالين .

ورأى ناس يعبدون شماش إله الشمس ، فلما رأى الشمس بارغة  
قال هذا رى هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم إني برىء مما تشركون .  
إبه اهتدى إلى الله قبل أب يعث ، آناه الله رشده من قبل وكان به  
عالما .

ورأى نفسه وهو فتى يحطم تماثيل سين وشماس وعشتار والأصنام ثم  
يعلق الفأس بأذى مردوخ كبير الآلهة ورب الأرباب !  
ورأى قومه وهم يلقون به فى النار ، ومس أذنيه ذلك الصوت الذى  
سمعه وهو بين برائن اللهب : « يا باركونى بردا وسلاما على إبراهيم » .  
وطافت بذهمه فى لحظات أيام دمشق وذلك اليوم الذى أسر فيه  
إلغازر الدمشقى ، وأيام مصر وخروجه منها وفى قبيلته هاجر ولم يحس  
فى تلك اللحظة المعمة الكبرى التى أنعم الله عليه يوم وهب ملك مصر  
لسارة هاجر أميرة منف ، هاجر التى ادخرها الله له لتلد له ابه البكر  
الحبيب .

إنه يحس وهو يفارق الدنيا أن ليلة بئانه بها حر كانت بداية النصر العظيم ، جاءت له بإسماعيل وأمره الله أن يسكنها هي ورضيعها بواد غير ذى زرع عند بيته المحرم ليتوج جهاده بشرف إقامة القواعد من البيت العتيق ، ليأمره بأن يؤذ في الناس بالحج ليحقق له دعوته التي دعاها يوم أن قال : « فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم واررقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » .

وجاء إسماعيل ومن بعد إسماعيل جاءته البشرى بإسحاق ، ورأى الصيف يدخلون عليه فقالوا سلاما قال إنا معكم وجلون . قالوا لا توجل إنا بشرك بعلام عليم . قال أبشروني على أن مسى الكبر فم تبشرون ؟ قالوا بشرك بالحق فلا تكن من القاططين . قال ومن يقط من رحمة ربه إلا الضالون .

ونذكر سارة في ذلك اليوم إذ عرفت أن الصيف رسل الله فضحكت من خوفه فشرها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب . ﴿ قالت يا ويلتى أألد وأنا عحوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشيء عجيب ﴾ قالوا : أتعجبين من أمر الله ؟ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ﴿ .

وأحسن إبراهيم الفناء يسرى في أطرافه وكان يوصى بيه بالتقوى طوال حياته ، فرأى وهو يعادر الدنيا ليقل على الآخرة أن يوصيهم وصيته التي فيها حير الدنيا والآخرة فطلب من بيه أن يدبوا مه ويعقوب وقال :

— ﴿ يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم



مسلمون ﴿ ١٠٠ 〉 .

وفاصت روح من ابتلاه ربه بكلمات فأنمى ، روح من اتخذ الله حليلاً ، روح من قال لجبار الأرض في إيمان عميق : ربي الذي يحيى ويميت ، وروح من كان أمة لله حنيفاً وما كان من المشركين ، روح إبراهيم الذي وفي .

وأهت رفقة أمة فيها ذوب نفسها ، كانت تحس نار الحزن تتلظى في أحشائها ، وبكى إسحاق ويعقوب ، واهمرت العبرات عزيرة من عيني إسماعيل ، وأحشش الرجل الخش المتأبد بالبكاء وغص بالدموع ، كان أبوه عيسيه اللتين بهما يرى وأذيه اللتين بهما يسمع وروحه التي تخفق بين جنيه ، كان حبه الكبير .

والتقت عينا إسماعيل بعيني إسحاق ففاصت مشاعرهما حتى إن إسماعيل اعتنق أحاه وامتزجت دموعه بدموعه فصيح من في الخيمة بالبكاء والعويل . ولم يستطع إيعازر الدمشقي أن يرى سيده الحليم الأواه المليب جثة هامدة فعادر الخيمة وهو واله حزين لا يرقأ له دمع وفي حلقه وقلة نار وبين جنبيه سفير .

ورأى الناس إيعازر فاشتد نحيبهم وراحوا يموج بعضهم في بعض داهلين ، كانوا حيارى لا يدرون كيف نصبح حبرون دون أن تتردد في أرجائها أنفاس الخليل .

وحمل إسماعيل وإسحاق ومدين ويعقوب الخثة الطاهرة وأطلقوا لها إلى معارة المكفيلة ليقيموا جثة رجل الإيمان إلى حوار حثة سارة ، فقد رجعت الصس المظلمة إلى رها راصية مرصية .

وعبق الخو بأريج عطر وأفعم بالنسيج وعشى الكوا حشوع ، كان

( هاجر المصرية )

من في السماء ومن في الأرض يسيحون لله ملك السماوات والأرض  
وإليه المصير .

ودلوه في حفرتة ثم أهالوا عليه التراب ونزل بقلوبهم حزن ثقیل ،  
وعادوا مطأطئي العروس تترأفدتهم أسي ولوعة . لقد صبغ إبراهيم  
حبرون صبغة سم عنه ، إنه في كل أرجائها سواء أحيأ كان أم كان ميتا ،  
إن كل ما في حبرون يذكر الناس به ، إنها مدينته ومستظل إلى الأبد  
مدينته ، إنها الخليل .

٣٠

كانت كلمات خليل الرحمن ندوى في آذان إسماعيل وإسحاق ومدير ، إنه وصى بها بنيه ويعقوب : ﴿ يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ . كابوا على علم بأن الله قد وعد بأن يورثهم المشارق والمغرب وأن يجعلهم أئمة ويجعلهم الوراثين . إنها لنعمة من الله وفضل أن جعل في ذرية إبراهيم النبوة والكتاب وجعلهم حلما في الأرض واصطفاهم على العالمين ، فكابوا يدكرون الله ذكرا كثيرا ويسبحونه بكرة وأصيلا ، ﴿ هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليحرجنكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما ﴾ . وكان إسماعيل مطمئن النفس سليم القلب يحب إسحاق وبنيه فقد كان يحد فيه ريح أبيه . وكان إسحاق يعظم إسماعيل ويحبه من كل قلبه لم ينفس عليه مكانته ولم يجمع عنه حقا من حقوقه ، إن إسحاق كان نبيا من الصالحين .

كان إسحاق يحب إسماعيل وكانت أمنيته أن يشد الأواصر بين بنيه وبين بنى إسماعيل ، أن يجعل ذرية إبراهيم وحدة مؤمنة متماسكة ، وحدة تدعو إلى الله .. إلى الهدى .. إلى السجادة . وكان إسماعيل ممتلئا بروح الفروسية لم يدر غلده أبدا أنه قد يأتي يوم يقوم فيه خصام بينه وبين أخيه أو بين بني إسحاق وبين بنيه ، إنه في منعة من قومه وإنه على استعداد دواما أن يهب لسجدة أخيه إذا ما تعرض لعدوان ، وقد وصى بنيه أن

يكونوا مع أبناء عمهم على الكافرين .

كان إسماعيل وإسحاق وذرية إبراهيم يسارعون لفعل الخيرات وأمدهم الله بأموال وسين وحملهم أكثر نفيرا ، بيد أن الله جعل لكل نبي عدوا من المجرمين . وكان عدو إسماعيل بين المنافقين الذين تظاهروا بالإيمان بإسحاق ودعوته ، كان قلبه ممتعا حسدا على أن جعل الله لإسماعيل وبنيه حرما آمنا فيما يتحفظ الناس من حولهم .

كان يقول لآل إسحاق والحقده يهش قلبه إن بيت الله عندهم حيمة لا تستقر في مكان ولا ينجح إليها الناس فيما صار لإسماعيل وذريته بيت محرم يشد إليه الرحال ، مبارك تهوى إليه أفئدة الناس ، فيه آيات بيئات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا .

إن خليل الرحمن لم يشرف حيرون ولا أرض الكنعانيين كلها بساء بيت أو هيكل لله ، إنه دوس في حيرون وصارت بعد موته الخليل بيد أن كل ما تركه من أثر لإقامة الشعائر الدينية حيمة للرب يؤمها المؤمنون من آل إسحاق والذين معهم .

إن خير ما فعله خليل الرحمن بعد أن دعا الناس إلى الله رب السماوات والأرض رب العالمين أن أقام القواعد من البيت وإسماعيل فأقر لمكة بالزعامة الدينية دون سائر بقاع الأرض ، وراح عدو إسماعيل يوسوس لآل إسحاق أن أى بيت لله أو أى هيكل يبنونه ذات يوم مهما عظم ولو تعاون على بئائه الإنس والجن لن يصل إلى ما وصل إليه البيت المحرم من شرف ، إنه أول بيت بى للناس وقد شارك في إقامة شعائر الحج إليه خليل الرحمن هاجر وإسماعيل .

وراح يزع بين إسماعيل وبيه وبين إسحاق وبنيه ، كان يقول : إن

الآبار التي حفرها إبراهيم الخليل والتي حفرها إسحاق في أرض الكنعانيين مهما كانت مباركة فمن تتناول إلى بركة زمزم التي فجرها الله سقيا للحجيج .

وسد إسحاق وآل إسحاق آذانهم عن تلك المهرزات التي تريد أن تمزق وحدة المسلمين ، كانت وصية خليل الرحمن لهم أن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون لا ترال تخفق بين جنوبهم ، كانت قلوبهم سليمة وكانت غاياتهم واحدة ، إعلاء كلمة الله وإقرار الناس بأن لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ، كانوا لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين .

كان إسحاق يحب أحاه الأكبر حبا شديدا وكان حبه ابنه العيص يفوق حبه يعقوب ، فعزم على أن يروح العيص محلة ابنة عمه إسماعيل ، وكان حب رفقة يعقوب أشد من حبه العيص فعزمت على أن تزوجه راحيل ابنة أخيها لابان .

وشب العيص وتزوج يهوديت بنت يري من الحثيين الذين نزوا بأرض كنعان فأحس إسحاق مرارة وحزنت رفقة ، فقد كانت أميتها أن يتزوج انهما ابنة عمه إسماعيل صادق الوعد الأمين ، من فذاه الله بديع عظيم وجعله صديقا نبيا .

وعاد العيص وتزوج بسمة بنت إيلون من الكنعانيين ، وضاق صدر إسحاق بتلك الرجمة واستاءت رفقة فقد كان هواها مع هوى زوجها ، كانت تؤيد رواح العيص من محبة بنت إسماعيل .

ودعا إسحاق ولديه العيص ويعقوب فدخل عليه فأخذ يتحسسهما بيده فقد فقد بصره ، وكان العيص أشعر وكان يعقوب أجرد فكا

يفرق بينهما باللمس ، وقال ليعقوب :

— يا بني لا تتزوج من بنات كنعان ، قم واذهب إلى فدان آرام ، إلى بيت جدك واتخذ لك زوجة من هناك من بنات خالك لابان بارك الله يا بني فيك . إن الله قد وعد أن يجعل في ذرية خليله الكتاب والحكمة وإنه اصطفى آدم وبوحا وآل إبراهيم .

وسمع العيص وصية أبيه لأخيه يعقوب . إن أباه ينهى أخاه أن يتخذ زوجة من الكنعانيين ، وقد علم أن جده إبراهيم العظيم قد نهى أباه إسحاق من قبل أن يتخذ زوجة منهم بينما تزوج هو اثنتين منهم .

إن أباه بوصيته لأخيه قد أعلن عن عدم رضائه عن زواجه من بنات كنعان ، وهو يحب أباه ويحب أن يرصيه فهض وقال :

— إلى ذاهب إلى مكة .

— لماذا يا بني ؟

— لأتزوج محلة بنت عمى إسماعيل .

وانشرح صدر إسحاق وراح يتحسس حسد ابنه الأشعر ويقول :

— اذهب يا بني بارك الله فيك .

وخرج العيص ليطلق إلى الحبوب إلى بكة المكرمة إلى بيت الله العتيق ، وخرج يعقوب ليطلق إلى الشمال إلى حاران إلى بيت جده ، إلى فدان آرام حيث ولدته أمه ، إلى البلد الذي قبر فيه آزر وقال فيه إبراهيم الخليل : إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم .

وسار يعقوب حتى إذا جن الليل دخل مدينة إيليا بيت الله وكانت تموج بالصائمين من آمنوا بالله وبرسوله إدريس ، ثم آمنوا بالله ورسوله إبراهيم الخليل . وبحث يعقوب عن مكان بيت فيه حتى اهتدى إلى

مكان هادىء فتوسد حجرا ونام فرأى عند رأسه فيما يرى النائم سلما منصوبا إلى السماء والملائكة تنزل وتخرج فيه ، وأسرى به ، أسرى الله به ، أسرى إيل به وجعله نبيا من الصالحين ، فصار منذ تلك الليلة إسرائيل .

وتهلل يعقوب بالفرح فقد كان عمه أول من نسب إلى الله إلى الإيل فسمى إسماعيل ، من سمع الله دعاء أمه وأبيه فيه ، وها هو ذا يال مثل الشرف الذى ناله عمه فينسب إلى الإيل ويصبح إسرائيل .  
وبلغ إسرائيل مدينة فدان آرام فخطب إلى خاله لابان ابنته راحيل فقال له :

— هل من مال أزوجك عليه ؟

كان إبراهيم خليل الرحمن غنيا يملك الذهب والفضة والمواشى والعبيد بيد أن الأنبياء لا يورثون ، فقد تصدق إليعارر الدمشقى وكيل بيت إبراهيم بكل ما ترك الخليل من متاع الدنيا ولم يصبح إسحاق بعد غنيا . ورث إبراهيم أباءه الكتاب والحكمة ووعد الله أن يجعل فيهم النبوة وإنه لشرف عظيم لا يعدله كل ما فى الأرض من كنوز . المال والبنون رينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا . كان إسرائيل لا يملك مالا فأبوه إسحاق يتصدق بكل ما يصل إلى يده ولم يروده بمال يدفعه لخاله فقال :

— لا مال عندى إلا أنى أخدمك أجيرا حتى تستوفى صداق ابنتك .

— صداقها أن تخدمنى سبع حجج .

فزوجى راحيل وهى شرط ولها أخدمك .

كان لخاله ابتان ليا وهى الكبرى وراحيل وهى الصغرى ، وكان

إسرائيل يرغب أن يتزوج راحيل فقال له خاله :  
— ذلك بيني وبينك .

\*\*\*

وانطلق العيص إلى مكة وكان أقرب الأحوين شها بعمه إسماعيل ،  
كان رجل صيد نحشنا متأبدا فارسا يصرب في الصحراء ويعود بالصيد  
الوفير ، وطالما عاد إلى أبيه إسحاق بالغرلان والأرانب البرية والطيور .  
ولاحت له حدود الحرم التي نصبها عمه ناحية الشام فارتفع صوته  
بالتلبية وبين حسيه عواطف متأحجة بإيمان عميق ، إنه مقبل على البيت  
العتيق الذي أقام قواعده حده الخليل وعمه العظيم .

وأشرف على الكعبة فحقق قلبه على الرعم من الأمن الذي عشيه  
والبور الذي أشرق في روحه ، وعاصت حسياته بالرقه والرحمة حتى  
ترقرقت الدموع في عينيه وسالت عبراته .

كان الناس يطوفون بالبيت يسبحون لله ويتهلون إلى رب السماوات  
والأرض واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ، وكانت الدعوات شجيه عذبة  
تعث بأوتار القلوب وتعث في الوجدان أرق العواطف وأبيلها .

واحد العيص إلى البيت وهو مفعم بالمشاعر الطاهرة التي تطلق  
الروح لتسبح في نور النور ، وراح يلبي وكل حلحة من حلحاته تستشعر  
وجود الله وأنه يتجلى على عباده .

وملأت صورة حده صمحة دهنه وتذكر وصاياه ، وراحت وصية  
بعينها تلح على دهنه ندا كأما حمرت في أعماق نفسه . إن الله اصطفى  
لكم الدين فلا تموتوا إلا وأنتم مسلمون

إنها النور الذي يهتدى به إسماعيل وبنوه في مكة ، وهي النور الذي



يهتدى به إسحاق في أرض الكنعانيين أرض فلسطين ، وهي النور الذى يهتدى به يعقوب في فدان آرام ، وهي النور الذى يهتدى به العيص أيضا كان .

واستلم الحجر الأسود وطاف بالبيت سبعة أشواط ثم راح يسعى بين الصفا والمروة سعى هاجر بينهما يوم تركت عمه يقامى من العطش وذهبت تستعجل وعد الله .

وحلق شعره عند المروة ثم انطلق إلى بيت عمه فقابلته بابت وقيدار وأبأ عمه بالترحيب ، وقالوا له إنهم علموا بمقدمه وعرفوا أنه يطوف بالبيت فحموا إلى بيت أبيهم ليتطروه .

وحاء إسماعيل وقد نالت منه السون إلا أنها زادت مهابة وشرفا ، كان الشيب تاحا على رأسه ولم تستطع الحفون التى تهدلت على عيه أن تغمى الرقيق الأخاد الذى يشع منهما فيملأ النفوس جلالا واحتراما .

ورأى العيص عمه فخف إليه متفتح النفس فاحتواه عمه بين ذراعيه وقله . كان إسماعيل يحب إسحاق ويحب أساءه حبه بيه . وقال العيص لعمه :

— جئت يا عمى لأحطب إليك محلة .

فلم يقن إسماعيل لابن أخيه : هل من مال أزوجك عليه ؟ كما قال لابان لابن أخته إسرائيل بل قال :

— بارك الله لك فيها وبارك الله لها فيك .

وسى العيص محلة بنت إسماعيل فولدت له الروم بن عيص نثرت ذرية إبراهيم مشارق الأرض ومغاربها ولتتحقق وعد الله ﴿ ومن أصدق من الله قيلا ﴾ .

ليبك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك . إن الحمد والنعمة لك  
والملك ، لا شريك لك .

اهتزت جنبات الوادى المقدس بالتلبية ، كان الحجيج يأتون من كل  
صح عميق من اليمن وتهامة ويثرب والشام ، فقد امتدات السعة وبزغ  
قمر ذى الحجة .

وراح نابت بن إسماعيل يسقى الحجيج ويسهر على راحتهم ، يطعم  
فقراءهم ويش لحجاج بيت الله وإن كان الأسى يحز في نفسه ، فقد كانت  
هذه أول سنة مدأذن حليل الرحمن في الناس بالحج يغيب فيها إسماعيل عن  
سفاية الناس والترحيب بهم فهو مسحى في فراشه لا يقوى على  
النهوض .

ووقف نابت إلى جوار يثر زمزم يرقب الناس وسرعان ما شرد دمه  
فرأى نفسه صغيراً وهو يجلس إلى جوار جدته هاجر حلف البئر يصعب  
إليها وهي تقص عليه قصة بركة أبيه التي فحرت رمرم لتكون سقيا  
لحجيج البيت المحرم .

كانت جدته غملاً مكة حياة ، كانت الروح التي سرت في أرحائها  
والور الذي أنار عقول ولدائها ، إنه ليذكر كيف كانت جدته تجمع  
صبيان جُرهم والعمالقة وتحفظهم صحف إبراهيم وتعلمهم الكتابة على  
ألواح من عظام الإبل ، فقد كانت أول من خط بالقلم في مكة

وتذكر نابت حديث أبيه له ذات ليلة وكان القمر قد اكتمل بدرا  
وسكب أشعته الساحرة على الوادى ففاصت على البيت وعلى كل الجبال  
التي حوله وملأت النفوس بمشاعر ناعمة رقيقة تشرح الصدور وتطلق  
الأسنة من عقالها :

— هل حظ أحد بالقلم قبل هاجر في بلادنا يا أبتاه ؟  
— ثمود قوم صالح وكانت هم جنات وعيون .. وزروع ونخل طلعتها  
هضيم . وكانوا يحتنون من الجبال بيوتا فارحين .  
وأطرق نابت حزنا فقد ذهبت هاجر وتركت في النفوس لوعة ،  
ولكن سرعان ما ملأ إسماعيل العظيم فراغ الأفتدة وفراغ العقول وصار  
الأنفاس المترددة في الوادى الذى ضاق بالناس ، بعد أن كان قفرا قبل أن  
يسكن حليل الرحمن هاجر وابنه اليكر إسماعيل عند بيت الله المحرم ، فإن  
ذهب إسماعيل بعد هاجر فمن للناس بعده .

واستشعر نابت رعدة تسرى في بدنه ، إنه اليوم سيد قومه كلمته  
شريعة إذا أشار لى الناس وإذا نصح أطيع أمره ، وما كان قط ولا عليظ  
القلب فالتف الناس حوله ، لكنه يحس في أعماقه أن مكانه مستمدة من  
عظمة ذلك الرجل الممدود في فراشه ، من تعيص هيئته وإن كان لا  
يستطيع حراكا .

وهج في جوفه صوت يسأل : « أتستطيع يا نابت أن تملأ ذلك الفراغ  
الهائل الذى يخلفه موت أبيك ؟ » فتقاصرت نفسه وعشيتة رهة ، و  
مثل لمح البصر غامت عيناها بالدموع وأحس رغبة في أن يجهش بالبكاء ،  
أن يهس عن الحزن الذى ألم به وصاق به صدره .

أموت إسماعيل ؟! إنه مكة .. إنه يثرها المباركة وبيتها المحرم ، فإن

كان إبراهيم قد أقام القواعد من البيت وإسماعيل ، فقد عاد إبراهيم إلى حبرون بعد أن طهر البيت للطائفين والعاكفين والركع السجود وبنى إسماعيل في بيت الله يخدم زواره ويسقى حجاجه .

وما من رائث أو حاج وهدى مكة إلا وجاء يسعى إلى إسماعيل بقرته السلام ويلقى إليه سمعه . وقد عادته حجاج هذا العام وغشى وجوههم الإطلام ونزل بقلوبهم حزن ثقیل لما علموا أن إسماعيل أقعده مرضه عن أن يؤدى معهم المسالك ، ولو كان به قدرة على الحركة لحملوه في محفة ، ولكنه كان أعجز من أن يرفع يدا أو يحرك ساكنا .

وعص خلق نابت . إن الفارس الذى لا يشق له عبار والرامي الذى طالما رمى بالصبال ، من كان يشتعل بالفتوة والحياة بات حسدا كل ما يربطه بديناه أنفاس واهمة تشهق في جهد ونزفر وحلة ألا يعقها نفس آخر .

كان قلب نابت يهوى إلى أبيه ، ملك عليه حبه إياه كل حواسه . إنه قلق يريد أن يذهب إليه وأن يقى إلى حوارته إلى أن يقضى الله أمره ، ولكنه الآن سد قومه عنه أن يهض بواجهه وأن يسي آلامه وعواطفه وأن يسمو فوق واقعه وألا يسي أنه حفيد من اتخذ الله حليلا وابن إسماعيل صادق الوعد من اصطفاه الله وفصه على العالمين

وخرج الناس إلى عرفات وذهب نابت إلى أبيه يلقي عليه نظرة ويستأذنه في الخروج فألقى قيذار وإخوانه عنده وقد لاح الأسى في وجوههم فاشتعل الحزن في نفسه ومال على أبيه وقال .

— كيف أصبحت اليوم يا أبتاه ؟

وفتح إسماعيل عينيه في جهد وحاول أن يتسم ولم يحجر حوانا ، إنه

ليذكر أنه ألقى على أبيه نفس السؤال يوم حاد بروحه لتطلق إلى الرقيق الأعلى . إنه يحس الموت يدنو منه وأنه عما قريب يلقي ربه وأنه سائله عما قدمت يده في دنياه فقال في صوت حافت :

— يا بني اذهبوا . حجوا قبل ألا تحجوا بارك الله فيكم .

وخرج به مطرقين رطبت عيونهم وجفت حناجرهم ونزت أفئدتهم أسى ، وراح إسماعيل يجاهد أن يملأ عينيه منهم قبل أن يعيوا عن ناظره ، وأرهف سمعه للتلبية التي تحاولت في الآفاق فإذا بالوحشة التي كادت تطبق عليه تنقشع وإذا بالمكان يشيع فيه أمس وسلام .

وانطلق به إسماعيل إلى عرفات وكانوا اثني عشر رجلا على رأسهم نابت يرفع صوته بالتلبية ، فإذا بصوته يتهدح ويعم بمرات تسض بإيمان عميق بهز الأفئدة ويفتح الأرواح لتلقى ما يهب الله لعباده من رحمته . ومضى يوم عرفة وقلب نابت عامر بذكر الله ، كان ذاهلا به عن نفسه وعن دنياه ، درف الدموع وقرص الشمس يغيب في الأفق العربي وراح يتهل بكل وحدانه أن يعمر الله له سيئاته وأن يجعله من الأبرار . وبدأ الناس يفرون إلى المزدلفة ليسيئوا ليلتهم هناك ، وركب نابت راحلته وإذا بصورة أبيه الممدود في فراشه تملأ الأفق أيما يولى وجهه . ترى أموت إسماعيل وحده ؟ إن الله أرأف به من أن يخرجه غصص الموت دون شهداء ، لقد رحمه صغيرا وفخر له رمزم وسيرحه كثيرا جراء على صبره ، إنه لمن الأخيار .

وفي المعجر صلى نابت بالناس ثم جر كسبه وراءه وصعد إلى جبل ثبير ، إلى حيث أحد جده أباه ليذبحه تصديقا للرؤيا التي رآها في المنام ، فصبر أبوه على بلاء الله وقال : ستحدثني إن شاء الله من الصابرين ، وعداه

الله يذبح عظيم .

لو لم يرحم الله آياه وترك إبراهيم يذبح بكره إسماعيل لحاء هو نفسه اليوم بكره ليذبحه قربانا لله ، ولحاء المؤمنون بأبكارهم ليذبحوهم ولكن الله فذاه بذبح عظيم فأصبح نحر الأصاحي بعد صلاة العيد شعيرة من شعائر الإسلام شكرا لله الذي حرم التقرب إليه بسحر الأبكار من الولدان كما كان الأمر قبل أن يصير إسماعيل على بلاء الله .

إن الله أرحم من أن يترك إسماعيل يموت وحده . ومن قال إن إسماعيل وحده ؟ إنه كان طول حياته ميالا للوحدة متأبدا بصرب في خوف الصحراء ليعتزل العالم ويعيش مع الله ، ورث عن أمه حب الأس بالله ، قالت أمه لزوجها يوم أسكنها بواد عبر دى ررع عبد بيت الله المحرم : لمن تكلم ؟ قال : لله ، قالت في إيمان : إذا لم يضيئعا .

لم يكن إسماعيل وحده . كان مع الله وفي كنف الله وفي رعاية الله ، ومن كان الله وليه فلا خوف عليه . إنه من أصحاب الصراط السوى إن هذا هو الفضل المبين .

وأنتم الناس مناسك الحج وعادوا إلى البيت يطوفون به وامتلا الوادى بأصواتهم . وبلغت أصوات الناس مسامع إسماعيل فلم يشرح صدره ولم تهلل نفسه بالفرح . كان في شغل عن الدنيا بآيه وبأمه فقد كانا لديه لما حصره الموت . إيهما يدعوانه أن يمر من سجن الحسد ليلحق بهما في جنات النعيم التي وعد الله بها المتقين .

ودخل نابت وإخوته على أبيهم ملهوفين ، ومال نابت عليه في حنان وقبله قبله أودعها كل حبه ، وفتح إسماعيل عينيه وقال :  
— ادنوني إلى جوار أمي .

وكان آخر عهده في الدنيا صوت أبيه وصوته هو نفسه ، ﴿ إذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل : ربا نقل ما لك أنت السميع العليم • ربا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم • ربا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ .

## تذييل

ذكرت في تذييل الجزء الأول أنى أعتمد في كتابة هذه السيرة على الحقائق التاريخية ، وأنى أشير في نهاية كل جزء إلى ما خالفت فيه المتواتر بين المؤرخين أو الإخباريين ، مع ذكر أسباب تفضيل رواية على رواية ، أو ترك ما هو متواتر واستنتاج ما يتسق مع مطلق الحوادث ومقومات الشخصيات .

كان القرآن الكريم هو السبع الذى حاولت أن أستمد منه سيرة الخليل ودعوته التى كان يدعو إليها ، ثم التوراة فيما لا يتعارض مع السبع الإسلامى عند دراسة حياة الرسل والأنبياء . ولم آحد بكثير مما جاء فى التوراة أو فى الأحاديث المنسوبة إلى الرسول — ﷺ — أو بروايات المؤرخين والإخباريين التى اعتمدت كل الاعتماد على التوراة ، لما وجدت أن ما ورد بها يخالف أحاديث نبوية صحيحة ، أو يعارض بعضها بعضا ، أو لا يتفق مع ما كشفت عنه الحفريات الحديثة فى بلاد العراق واليمن وبلاد الشرق الأوسط ، وهذه كانت كل العالم فى تلك الأزمان .

وقد ترجمت التوراة إلى اللغة العربية فى القرن الثانى للهجرة ، فهل منها الإخباريون والمؤرخون وملفوا التاريخ الإسلامى بالإسرائيليات ، ووضعوا أحاديث نبوية بحسن نية أو بسوء قصد لتطابق ما جاء فى التوراة . وكان عددهم فى ذلك اعتقادهم أن ذلك الكتاب الذى ترجم إلى العربية منزل من السماء .



كان السامريون يؤمنون بالإصحاحات الخمسة الأولى في التوراة ويقولون عما عداها إن هو إلا تاريخ لليهود ، فإن كانت التوراة نزلت على موسى فكيف تروى تاريخ اليهودية من بعده حتى قيام المسيح عليه السلام بدعوته ١٩

لم يؤمن السامريون إلا بالإصحاحات الخمسة الأولى واعتقلوا أن الكهنة كتبوا بأيديهم ما عداها من التوراة ، ويروى الجزء الثالث من هذه السيرة ما طرأ على التوراة من تغيير ، أما المؤرخون والإخباريون المسلمون فقد أخذوا عن التوراة دون أن يحاولوا إظهار ما فيها من تضارب ، بل كانوا في بعض الأحيان يرجحون رواية التوراة ويحاولون إيجاد تفسيرات لما يعارضها في القرآن ، من ذلك أنه جاء في القرآن الكريم : « إذ قال إبراهيم لأبيه آزر . » وجاء في التوراة أن اسم أبي إبراهيم تارح ، فراح الإخباريون والمفسرون يجهلون في إيجاد معنى لآزر حتى لا يكون اسماً لأبيه وحتى لا يكون هناك تعارض بين التوراة والقرآن ، فقال بعضهم آزر اسم صمم ، وقال بعضهم إن معناها أعرج وبذلك يصبح تفسير « إذ قال إبراهيم لأبيه آزر ( أى يا أعرج ) » أما الدين تخرجوا في التأويل فقالوا : إبراهيم بن آزر وهو تارح ، وقال آخرون آزر عمه وقد يسبب الالبس لعمه !

إن من التوراة ما كتب على أيام المملكة الإسرائيلية ، ومنها ما كتب في المفى بين النهرين ، ومنها ما كتب قبل الميلاد بنحو ثلاثة قرون ، ومن هنا جاء ما يلاحظ فيها من تعارض . ونسوق مثالا لذلك ما ورد في تفسير اسم بشر سبع ، ففي الإصحاح الحادى والعشرين من سفر التكوين سأل أيمالك إبراهيم :

— ما هذه السبع النعاج التى أقمتها وحدها ؟

قال الخليل :

— إنك تأخذ من يدي سبع نعاج لكى تكون شهادة لى بحفر البئر .

لذلك دعى ذلك الموضع بئر سبع .

وفى الإصحاح السادس والعشرين من سفر التكوين يفسر اسم

المكان مما يلى :

« وحدث فى ذلك اليوم أن عبيد إسحاق جاعوا وأخبروه عن البئر

التي حفروها وقالوا له قد وجدنا ماء ، فدعاها شبعة ، لذلك اسم المدينة

بئر سبع إلى اليوم » .

وما أكثر الروايات المتعارضة فى التوراة ، ولذلك لم آحد ما جاء فيها

على أنه تنزيل من الله ، فقد كتبها أحرار اليهود بعد أن انقضى على عهد

موسى عليه السلام نحو سبعة قرون وبعد أن انقضى على عهد إبراهيم عليه

السلام نحو أحد عشر قرناً . لذلك كنت أقيس كل رواية على القرآن أو

روح القرآن أو المنطق والعقل أو ما كشفت عنه الأحافير . لم أفسر

﴿ فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أهل قال لا أحب

الآفلين ﴾ مما فسر به المفسرون وما ذكره الإخباريون ، لأنهم اعتمدوا

فى تفسيرهم على أساطير اليهود ، وسأذكر الأسطورة للتدليل على ضحالة

البيع الذى استقى منه المفسرون والإخباريون معلوماتهم .

« تزوج تارح من إيمتالى بنت كرناب فررقا إبراهيم ، وكان مولده

مرصودا فى الكواكب فاطلع عليه الحمروذ واستشار الملأ من قومه فأشاروا

عليه بقتل كل طفل ذكر واستحياء الناث وإعذاق العطايا والحواثر على

أهلهن ليفرحوا بمولد البنات .

وأحسن تارح أن امرأته حامل ، فلما أراد أن يتحقق ذلك صعد الجبل إلى صدر أمه فحوى بطنها ولم يظهر فيه حمل . وهربت أمه حين جاءها المخاض فأوت إلى كهف ولدته فيه وتركته ثمة وهي تدعو ، فبقى ثلاث عشرة سنة لا يرى الشمس على رواية بعض الكتب ، ومكث في الكهف أقل من ذلك على روايات الأخرى ، وأرسل الله جبريل يراعه فجعل الطفل يمتص أصابعه فيرضع منها ويكر قن الأوان . وخرج من الكهف ليلا وهو في الثالثة مرأى السجوم فقال : هذه هي الأرباب ، فلما أشرقت الشمس قال : كلا بل هذه هي الرب ، فلما أفلت وظهر القمر قال : بل هو هذا ... فلما أفل قال : ما هذه بأرباب . إنما الرب المعبود هو الذي يدبرها ويسيرها ويديها ويخفيها .

وفي بعض الكتب أن أمه خرجت تتفقده بعد عشرين يوما حيث تركته فوجدت في طريقها صبيا ناميا ...

على مثل هذه الأساطير الإسرائيلية اعتمد المفسرون والإخباريون المسلمون ، وقد يكون لهم بعض العذر فما كانت الأحافير قد كشفت النقاب بعد عن ذلك العصر القديم الذي مضى عليه ألف سنة قبل أن يكتب اليهود تاريخهم في المملكة الإسرائيلية أو في بابل في أيام الأسر . ظهر من الأحافير في اليمن أن العرب كانوا يعبدون القمر ( الموقاة ) وكان الإله الأب ، والشمس ( ذات حميم ) وكانت الأم ، والزهراء ( عشتار ) وكان الابن .

وظهر من الأحافير في العراق أن العرب الذين أسسوا مملكة بابل قد جعلوا إله قبيلتهم مردوخ وكانوا يرمزون إليه بالمشتري رب الأرباب ، وجعلوا القمر في المرتبة الثانية بعد الكوكب ، والشمس في المرتبة الثالثة

بعد القمر .

كانت عبادة الكوكب والقمر والشمس ديانات لها شعائر ومراسم وكانت لها هياكل وأبراج ، ولم تكن المسألة أمر أم حملت فأوت إلى كهف وضعت فيه طفلها ومكث فيه لا يرى الشمس ، فلما حن الليل وخرج منه رأى كوكبا فقال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، بل كانت عبادة الكوكب والقمر والشمس ديانات في بلاد ما بين النهرين ، وقد رأى إبراهيم هذه الديانات وفكر فيها ثم رفضها جميعا قبل الرسالة : ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ﴾ ثم هداه الله إلى الدين القيم إلى عبادة الله الواحد القهار ولم تكن المسألة خروج طفل من كهف وتقريب وجهه في السماء ثم إنكار ألوهية الكوكب والقمر والشمس وانتهاء الرسالة في ليلة واحدة !

والتواتر والمعروف أن هاجر مصرية وأنها حارية سارة ، أما أنها مصرية فقد ورد ذلك في التوراة وحاء في حديث شريف عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ — قال : إذا افتتحتم مصر ، أو أنكم مستفتحون مصر ، فاستوصوا بأهلها خيرا فإن لهم دمة ورحما . ورواه ابن إسحاق عن الزهري وقال : قلت للزهري : ما الرحم التي ذكر ؟ قال : كانت هاجر أم إسماعيل منهم .

وقال الإخباريون والمؤرخون العرب إن هاجر من القرما ، وعدهم في ذلك أن ملك مصر أهدي هاجر إلى سارة في أواريس ، فطنوا أن أواريس مسقط رأسها .

ذكرت أن هاجر من ميف وأنها أميرة من أمراء المراعنة ، ولم يكن ذلك وحى خيال فقد اعتمدت في ذلك على ما كان بين عمرو بن العاص

لما ملك مصر والمقوقس عظيم القبط .

قال الطبرى : إن عمرو بن العاص لما ملك مصر أخبرهم بوصية السى  
— عليه السلام — بهم ، فقالوا هذا نسب لا يحفظ حقه إلا نبى لأنه نسب  
بعيد ، وذكروا له : إن هاجر كانت امرأة لملك من ملوكنا ، ووقعت  
ببسا وبين أهل عين شمس حروب كانت لهم فى بعضها دولة ، فقتلوا الملك  
وسوها ومن هناك تسيرت إلى أبيكم إبراهيم .

وكان حمورابى الملك السبلى هو الذى رفع مردوخ فوق الآلهة جميعا  
وجعله رب الأرباب ، وكان يرمز لمردوخ بالكوكب ، وأكاد أجزم أن  
إبراهيم قاه بدعوته فى ذلك العصر اعتمادا على ما جاء فى القرآن الكريم من  
تسلسل العادة أيام حبل الرحمن ، فقد كان الكوكب فوق الآلهة  
جميعا ، فالقمر فالشمس .

ويقرر العلماء المشتغلون بدراسة الكتاب المقدس أن تاريخ إبراهيم يقع  
حوالى عام ١٧٥٠ قبل الميلاد ، وهو تاريخ قريب من عهد حمورابى .

ويذهب Emory Bogardus فى كتابه The Development of Social  
Thoughts إلى أن حمورابى هو أقدم حكام بابل المعروفين ، ويرجح أنه  
هو نفس إمرافيل المذكور فى العهد القديم وهو الذى حاربه إبراهيم .

وكانت مصر فى ذلك العصر فى حالة ضعف مكنت القبائل العربية  
التي نزلت شرق الدلتا لرعى من الوثوب على الحكم وتأسيس مملكة  
الهلكسوس .

كانت المناوشات مستمرة بين الرعاة أو العمالقة الذين خرجوا من  
تهامه واتحدوا بأواريس عاصمة لهم وأحصعوا الدلتا ، وبين الرعاة الذين  
كانوا فى الخبوء ، ومن ها رجحت أن تكون هاجر أميرة من أميرات

منف وقعت في الأسر وجملت إلى أواريس ، ومن ثم وهبها مملك  
الهكسوس إلى سارة .

وحاء في الإصحاح السادس من العهد القديم أن سارة لما لم تلد قالت  
لإبراهيم : « هو ذا الرب قد أمسكني عن الولادة ، فادخل إلى حاريتي  
لعلني أرزق منها بين » وقال يوسفوس المؤرخ اليهودي إن سارة قدمت  
هاجر إلى إبراهيم لما أمر الله بذلك ، وقد أحدث هذه الرواية

وحاء في الإصحاح الحادى والعشرين بعد أن وهب الله لسارة  
إسحاق . « ورأت ابن هاجر المصرية يمزح ... فقالت لإبراهيم :  
اطرد هذه الحارية وابها لأن ابن هذه الحارية لا يرث مع ابني إسحاق ،  
فقسح الكلام جدا في عيني إبراهيم . . . » .

وقد أحد المفسرون والإخباريون المسلمون بهذه الرواية في تفسير  
حروج هاجر وإسماعيل من الشام إلى مكة ، ولكنى لم أجد لها لظهور  
ضعفها فبين مولد إسماعيل ومولد إسحاق ثلاث عشرة سنة ، وقد جاء  
في صحيح البخارى عند الحديث عن ترك إبراهيم هاجر وإسماعيل بواد  
غير دى زرع عند البيت المحرم . . . وجعلت أم إسماعيل ترصع إسماعيل  
وتشرب من ذلك الماء حتى إذا ما نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها  
وجعلت تنظر إليه يتلوى ... « ومن هذا يتضح أن إسماعيل خرج إلى  
مكة وهو رضيع ، ولم يكن يعرف بعد كيف يمزح أو يسحر من أحبه ،  
كما أن تصوير سارة بصورة المرأة العيور من الروجة الثانية لا يتفق مع  
حلال سارة ، كما أن رواح إبراهيم من هاجر لم يكن بدعا فقد كان رواح  
أكثر من روجة هو الطام المألوف في تلك الأيام ، تزوج ناحور أخو  
إبراهيم أكثر من روجة ، وتزوج يعقوب راحيل وحوارى كثيرات ، ولم

يتر مفسرو الكتاب المقدس تلك الثورة المحمومة العارمة التي ثاروها على زواج إبراهيم هاجر .

خرج إبراهيم بهاجر وإسماعيل بناء على أمر الله وأسكنهما في مكة لتحقيق إرادة الله لا استجابة لغيرة سارة ولا إطاعة لأوامرها . قالت هاجر لإبراهيم لما تركها وحيدة هي وولدها في أرض لا ررع فيها ولا أنيس : الله أمرك بهذا ؟ قال نعم ، قالت : فإذا لا يضيعا .

واستهوت فكرة غيرة سارة من هاجر الواردة في التوراة من ولعوا بوضع أحاديث لا عقل لها يسبونها إلى النبي — ﷺ — فوضعوا أطول خبر عن إبراهيم نقله رواية الحديث :

قال ابن عباس : قال النبي — ﷺ — يرحم الله أم إسماعيل لو تركت رمرم ! وقال : لو لم تعرف من اماء لكات رمرم عينا معينا . قال فشربت وأرصعت ولدها فقال لها الملك : لا تخافوا الضيعة فإن هذا بيت الله بينه هذا الغلام وأبوه ، وأن الله لا يصيب أهله . وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله . فكان كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين عن طريق كذا ، فزلوا في أسفل مكة فرأوا طائرا عائقا فقالوا إن هذا الطائر ليدور على ماء ، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء ، فأرسلوا جريا أو جريين ، فإذا هم بالماء ، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا .. قال : وأم إسماعيل عند الماء فقالوا أتأذنين لنا أن نمرل عندك ؟ قالت نعم .

قال ابن عباس : قال النبي — ﷺ — قالت ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأس ، فزلوا وأرسلوا إلى أهلهم فتلوا معهم حتى إذا كان بها أهل آيات منهم وشب العلام وتعمم العربية منهم . وأعجبهم حتى شب .

فكما أدرك روجوه امرأة منهم . وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعد ما تروج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل فسأل امرأته عنه ، فقالت : خرج يبتغي لنا رزقا ، ثم سألتها عن عيشتهم وهيئتهم فقالت نحن بشر ، نحن في ضيق وشدة ، وشكت إليه . قال فإذا جاء زوجك أقرني عليه السلام وقولي له يعير عتبة بابه . فلما جاء إسماعيل كأنه آس شيفا فقال : هل جاءكم من أحد ؟ قالت : نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسأل عنك فأخبرته ، وسألني كيف عيشتا فأخبرته أنا في جهد وشدة . قال : فأوصيك بشيء ؟ قالت : نعم هو يقرأ عليك السلام ويقول غير عتبة بابل . قال إسماعيل ذلك أي وقد أمرني أن أفارقك فالحقى بأهلك ، فطلقها وتزوج من امرأة أخرى . وعاب عيهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم فمجد إسماعيل فدخل على امرأته فسألتها عنه فقالت : خرج يبتغي لنا الرزق ، قال : كيف أنتم ؟ وسألتها عن عيشتهم وهيئتهم فقالت : نحن بخير وسعة ، وأنت على الله فقال ما طعامكم ؟ قالت اللحم ، قال فما شربكم ؟ قالت الماء ، قال اللهم بارك في اللحم والماء ، قال فإذا جاء زوجك فأقرني عليه السلام ومريه أن يثبت عتبة بابه . فلما جاء إسماعيل قال هل أتاكم أحد ... ؟ .

ولم أحد بكل ما جاء في هذا الحديث لأنه ظاهر الاختراع . فمن غير المعقول أن يأتي إبراهيم من الشام إلى مكة ولا يبرل عن راحلته . وقد فسروا المفسرون عدم نزوله بأن إبراهيم استأذن سارة أن يأتيها فأتته له وشرطت عليه ألا يبرل كأنما كان إبراهيم ألعوبة في يد سارة . وإن كان قد أطاعها في أول مرة حتى لا يثير غيرتها فماذا لم يبرل في المرة الثانية ما دامت هاجر التي تغار منها قد ماتت كما جاء في الحديث الموضوع ؟



المشهور أن هاجر مات بعد سارة وأما حضرت براء الكعبة ، وأما كانت على قيد الحياة لما ذهب إبراهيم إلى جبل ثبير بإسماعيل ليذبحه بعد النفرة من عرفات .

وجاء في هذا الحديث أن إسماعيل تعلم العربية من العرب الذين نزلوا مع هاجر عند بئر زمزم ، وذكر الإخباريون المسلمون أن إسماعيل كان عربيا وأن إبراهيم كان أعجميا ، وقد رفضت هذا الرأي فقد كان إبراهيم يتكلم العربية وإن لم تكن العربية التي نزل بها القرآن أو التي شكلها اليوم . كانت اللغة في اليمن والعراق ومصر والحجاز لغة واحدة وإن اختلفت لهجاتها كما تختلف لهجات الأمم العربية في هذه الأيام ﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأُنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ .

﴿ وما أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِيَ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

ويؤيد هذا الرأي ما كشفت عنه الدراسات . يقول الرايت في كتابه عن أحافير فلسطين : « تتقارب اللغات السامية ( العربية ) القديمة — عدا الأكادية — في الأجرومية والطق بحيث تشترك كل لهجة وما حاورها ، ولا يلحظ الانتقال من لهجة إلى لهجة إلا كما يلحظ مثل هذا الانتقال اليوم بين اللهجات الفرسية والحرمانية ، ولما بدأ عصر الآباء العربيين عند مطلع الألف الثانية قبل الميلاد لم يكن الفرق بين اللغات يريد على الفرق بين اللهجات العربية الأصيلة في هذه الأيام » .

وبلاحظ أن الكتاب الأوربيين يستخدمون كلمة « سامية » للدلالة على الأقوام العرب الذين كانوا يهاجرون من آن لآخر من الجزيرة العربية ويستقرون على حدود الأراضي المزروعة ، حتى إذا اشتد ساعدتهم وثبوا على الملك كما حدث في العراق وسورية ومصر .

واستعملت كلمة سامية للدلالة على لغات هؤلاء الأقوام العرب وأجاسهم . ويرجع استخدام كلمة سامية للدلالة على بعض اللغات ثم على بعض الأقوام إلى عام ١٧٨١ عندما استخدمها العالم الألماني شلويتسر للتدليل على لغات الذين يسبون إلى سام بن نوح ، الذين كانوا يعيشون في بلاد العرب وبلاد النهرين وسورية وفلسطين ، ثم انتشرت بعد ذلك إلى الحبشة ومصر وشمال إفريقيا وغيرها ، وكلها قديمها وحديثها متصلة بعضها ببعض ، بل ومشتقة من أصل عام واحد . وقد آن الأوان أن نستخدم كلمة عربية بدلا من سامية ليكون للكلمة حقيقة مدلولها .

ولم يأت في التوراة ذكر لذهاب إبراهيم إلى الحجاز . سكنت المصادر اليهودية سكوتا متعمدا عن علاقة إبراهيم بالجزيرة العربية ومكة وباء الكعبة . وإنه لم يأت الغريب أن يتجه إبراهيم إلى سورية وفلسطين ومصر وإلى الحبوب حتى قادش وجرار ولا يتجه إلى الجزيرة العربية . وبلاد العرب هي الجار الغربي للعراق وليس ثم حواجر طبيعية تعوق الاتصال غير البادية التي كانت القوافل تقطعها في العدو والرواح .

ولم تسكت المصادر اليهودية عن ذهاب إبراهيم إلى الجزيرة العربية ذلك السكوت المتعمد محسب ، بل سكنت عن كل النهضات الدينية في جزيرة العرب .

لم تذكر شيئا عن هود أو صالح لأنهما من أبناء العرب كأنما لم تكن عاد وثمود هنالك على مقربة من فلسطين . حدد بطليموس في أطلسه موقع عاد و ثمود ، وكشفت الحفريات عن مدائن صالح ، وعثر على بعض الخطوط الثمودية في ثمود وفي الطائف . كانت عاد حقيقة واقعة ، وكانت ثمود حقيقة واقعة ، وكان دهاب إبراهيم إلى مكة وإقامة القواعد من البيت حقيقة واقعة ، وإلا فمن الذى سى الكعبة إن لم يكن إبراهيم ؟ كان كهان اليهود يحسون مأساة دبية من العرب فضلا عن المأساة اللديوية ، وكانوا يفسون عليهم أن صار لهم بيت محرم منذ أيام إبراهيم بيا لم يصحح لهم هيكل في بيت المقدس إلا في أيام سليمان بن داود ، وكانوا يحشون حطر المأساة في النسب والمأساة في العقيدة فسكنوا ذلك السكون المتعمد الذى يدل على الشيء الكثير !

كان إسماعيل ابنا لإبراهيم . ذلك واقع لا يمكن إنكاره أو الفرار منه ، لذلك تعمد كهان اليهود أن يخرجوا أبناء إسماعيل من حقوق الوعد الذى تنقاه إبراهيم من ربه ، فراحوا يحترعون أكذوبة أن بنى إسرائيل هم شعب الله المختار ويؤكدون ذلك في كتابهم المقدس .

سكنت كتب العهد القديم عن علاقة إبراهيم بالكعبة ، ولو أن إبراهيم لم ييس بيت الله للباس بيكة لما كانت له رسالة ، فما ورد عنه في العهد القديم لا يجعله من أصحاب الرسالات ولا من أولى العزم من الرسل . إنه رحل يتجول في مصر وسورية ليست له دعوة محددة ، كل همه أن يحافظ على حياته وإن ضحى بشرفه . ففي الإصحاح الثاى عشر جاء : ١ ... وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لسارة امرأته : إني قد علمت أنك امرأه حسنة المطر ، فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه

امراته فيقتلوسى ويستبقونك . قولى إنك أختى ليكون لى خير بسك ونحيا نفسى من أجلك » .

وجاء فى الإصحاح العشرين . « ... وانتقل إبراهيم من هناك إلى أرض الخنوب وسكن بين قادش وشور وتغرب فى جرار ، وقال إبراهيم عن سارة امرأته هى أختى . فأرسل أيمالك ملك جرار وأخذ سارة ، فحاء الله إلى أيمالك فى حلم وقال له ها أنت ميت ... » .

ومن أسف أنه قد جاء فى الكتاب المقدس أن ملك مصر وسح إبراهيم ، وأن ملك جرار ونحه كذلك على فعلته الشعاء . أو نكون هذه هى الرسالة ؟ أيسب مثل هذا الهوان إلى إبراهيم أبى الأنبياء ، وبسكت عن بناء بيت الله المحرم لأن ذلك الساء سيرفع من شأن أبناء عمومتهم ، أساء إسماعيل ؟ وما حدث من إبراهيم حدث من إسحاق ، فقد جاء فى الإصحاح السادس والعشرين . « .. وسأله أهل المكان عن امرأته فقال : هى أختى ، لأنه خاف أن يقول امرأتى لعل أهل المكان يقتلوسنى من أجل رفقة ، لأنها كانت حسنة المظر . . . » .

ووضع المولعون بوضع الأحاديث النبوية حديثا تأييدا لما جاء فى العهد القديم : « لم يكذب إبراهيم النبى — ﷺ — قط إلا ثلاث كذبات : اثنتين فى ذات الله قوله : إلى سقيم ، وقوله بل فعله كبيرهم هذا . وواحدة فى ذات سارة فإنه قدم أرض جبار ومعه سارة وكانت أحسن الناس ، فقال لها إن هذا الخبار إن يعلم أنك امرأتى يعلسى عليك . فإن سألك فأخبريه أنك أختى ... » .

وراح رواة الأحاديث يروونه ويفسرونه على مر الأيام ، وكذب واضع هذا الحديث وصدق إبراهيم ، إنه كان صديقا سيا ، وما كان الله

ليتخذ من إنسان غمر كامل خليلا .

ولم يكتف كهان اليهود إذ أحسوا من العرب منافسة دينية ومنافسة دنيوية بأن يحرّموا أبناء إسماعيل حقوق الوعد الذي تلقاه إبراهيم من ربه ، بل أرادوا أن يسلبوا إسماعيل كل فضل فزعموا أن الذبيح هو إسحاق ، فقد جاء في الإصحاح الثاني والعشرين : « وحدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن إبراهيم فقال له يا إبراهيم فقال هاأندا ، فقال خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحاق واذهب إلى أرض المريا وأصعده هاك محرقة على أحد الجبال الذي أقول لك » .

وعلى الرغم من وضوح الاختراع فلم يكن إسحاق في يوم ما وحيد إبراهيم ، وكانت التقاليد تقصى بتقديم الابن البكر قربانا لله ، وعلى الرغم من أن ذلك معترف به حتى في التوراة إذ جاء في الإصحاح الثاني والعشرين في سفر الخروج : حرم على بني إسرائيل أن يعطوا أبنكار أبناتهم قربانا إلى الله .

على الرغم من وضوح الاختراع فقد راح بعض الإخباريين والمفسرين الذين كانوا يؤمنون بأن التوراة التي ترجعت إلى العربية هي كتاب منزل من عند الله ، راحوا يضعون الأحاديث وينسبونها إلى السي لتأكيد أن الذبيح إسحاق .

وكان من أثر ذلك أن صار هاك أحاديث نبوية تؤكد أن الذبيح إسماعيل ، وأحاديث أخرى تؤكد أنه إسحاق . وسأكتفى بإيراد حديث من كلا النوعين :

حدثنا أبو كريب قال : حدثنا ريد بن الحباب بن الحسن بن دينار عن علي بن ريد بن جدعان عن الحسن عن الأحنف بن قيس عن العباس بن

عبد المطلب عن — السى عليه السلام — حديث ذكر فيه : ﴿ وفديناه مذبح عظيم ﴾ قال هو إسحاق .

هذا هو الحديث الأول وفيه أن الذبيح إسحاق . وإليك الحديث الثاني الذى يدل على أنه إسماعيل .

حدثنا عمر بن عبد الرحيم الخطائى عن عبد الله بن العتبى عن ولد عتبة ابن أبى سفيان عن أبيه قال : حدثنى عبد الله بن سعيد عن الصابغى قال . كنا عند معاوية بن أبى سفيان فذكروا الذبيح إسماعيل أو إسحاق فقال . على الخير سقطتم . كنا عند رسول الله — عليه السلام — فعاهه رجل فقال : يا رسول الله عد على مما أفاء الله عليك يا بن الذبيحين ، فصاحت رسول الله — عليه السلام — فقيل له : وما الذبيحان يا رسول الله ؟ فقال : إن عبد المطلب لما أمر بحصر رمرم بدر الله لئن سهل الله أمرها له ليدخن أحد ولده قال : فخرج السهم على عبد الله فسمعه أحواله وقالوا : اهد ابك بمائة من الإبل فقدها بمائة من الإبل ( فعدها مائة من الإبل فعدها بمائة من الإبل ) ، وإسماعيل الثاني .

وقال الخافظ عماد الدين إسماعيل بن كثير فى ترجمة إسماعيل : وهو الذبيح على الصحيح ومن قال إنه إسحاق فإنه تلقاه مما حرفة البقلة من بنى إسرائيل .

ليس من الغريب أن يمسب أحمار اليهود كل فضل إلى بنى إسرائيل ما داموا هم الدين كتبوا الكتاب بأيديهم ، وليس من الغريب أن يدعوا أن كل العادات الحسنة نشأت فيهم وأنهم هم الدين بشروها على العالمين . وقد أقاص اليهود فى الختان ورعموا أن ختانهم يحتف عن ختان الأمم فلهم ، فالختان عندهم له دلالة دينية ، وقد اقتضى أثرهم كثير من

الإخباريين المسلمين الذين اعترفوا من كتبهم دون حذر ، وجعلوا للختان أهمية قد تدنو من أهمية الإيمان .

إن كان إبراهيم أول من حنّ إسحاق وإسماعيل ثم اختن ، فما كان إبراهيم من بنى إسرائيل وما كان يهوديا ، ولكن الختان عادة قديمة ، فقد قال هيرودوت إنه رأى قدماء المصريين يختنون .

وقد جاء الدكتور إسرائيل ولفسون أستاذ اللغات السامية بدار العلوم في عام ١٩٢٧ ، ليؤكد فصل بنى إسرائيل لا في الختان فحسب ، بل ليوضح أن « ملة إبراهيم » لها علاقة وثيقة بالختان اليهودي .

يقول الدكتور إسرائيل : « لا شك أن عادة الختان لم تسر من اليهود إلى العرب لأنها كانت شائعة عند قبائل محتلة في الحرية العربية منذ عصور غابرة ، ويستدل العالم ويلهون بوجود قبائل متوحشة حتى في إفريقيا كانت تألف هذه العادة .

ولست أنكر هذا الرأي لأن التوراة توضح لنا أن بنى إسرائيل قد جاءوا بالختان من موطنهم الأصلي فعلى ذلك يحتمل أن هذه العادة كانت شائعة عند قبائل أخرى مجاورة لبنى إسرائيل في الصحراء .

غير أن هناك اعتبارا آخر لم يعم العلماء بطرحه في فحصه ربما يرشدنا إلى اكتشاف تأثير اليهود على العرب في عادة الختان ، كان الاصطلاح « ملة إبراهيم حيفا » شائعا عند العرب قبل ظهور الإسلام ، وقد اشتهر بهذا اللقب أفراد من معكزي العرب لم تكن عبادة الأوثان تعجبهم وكانوا يرون أن التقرب إلى الله بالحجارة أمر لا قيمة له .

لا أريد أن أعود إلى أقوال مفسري القرآن في هذه العبارة ، ولكن أجتهد في أن أصل إلى تفسير جديد هذا الاصطلاح :

يعرف العضو التماسلى بعد ختانه فى العبرية باسم ملة ، كما أن له اسما  
قل ختانه وهو غرلة .

ومما أن الختان من أصول الدين الإسرائيلى فقد عبر الماموس الدينى عن  
كل من اختس أنه دخل فى دمة إبراهيم الخليل وعهده .

ومن هنا أطلق اليهود على من اختس التعبير « ملة إبراهيم » وهذا اللفظ  
يقوله العاذر للطفل عندما يعدره (يختنه )

ولكن حيث إن الختان وحده لا يؤدى إلى الإيمان باليهودية لأن هناك  
شروطا أخرى لا بد من توفرها كإعلان الدخول فى الديانة التوحيدية  
الإسرائيلية واتساع ما تأمر به التوراة واحتساب ما تنهى عنه ، فقد أطلق  
اليهود على كل من يختس دون أن يعتنق اليهودية اسم حيف ، غير  
الصالح ، أى الختان غير الوافى بالشروط اليهودية ، وقد جاء فى لسان  
العرب . وكان فى الحاهلية يقال من اختس وحج البيت حيف .. الفراء  
الحيف من سته الختان ... الخوهري الحيف المسلم وقد سمي المستقيم  
بدنك ، كما سمي العرب أعور وتختف رجل أى عمل عمل الحيفيه  
ويقال اختتن ... » .

وشرح الدكتور إسرائيل من ذلك ببرهان قاطع على أن عادة الختان قد  
سرت إلى العرب من اليهود ، وأرى أن ما أورده الدكتور ليس ببرهان  
قاطع ولا غير قاطع ، إنه يحوى فى طياته معتقدات اليهود التى تسكت عن  
إبراهيم وذهابه إلى الحجار ، فما دام إبراهيم هو الذى حتى إسحاق فهو  
الذى حتى إسماعيل وما كان إبراهيم يهوديا ، فإن كان للختان معنى دينى  
فقد أخذ العرب واليهود هذه العادة الدينية عن أبيهم إبراهيم . ولا يضيع  
هذه الحقيقة أن سبى إسرائيل سجلوا تاريخهم فى كتاب وأن العرب لم



يسجلوه أو أن ما سجلوه قد ضاع ، فإن فقد شهادة الميلاد ليس دليلا على أن صاحب الشهادة لم يولد ، وإن محاولة إرجاع المصطلحات العربية إلى أصلها العبرى فيه افتئات على اللغة العربية ، فقد كانت العربية هى الأصل في أيام إبراهيم ، وكانت العربية نحة من لهجاتها ، وقد ذكر « بولدكه » أن كلمة حنيف من أصل عبرى هو « تحف » على وزن تبرر .

وقد وقفت طويلا عند الأحد برواية من الروايات المختلفة التى وردت في بناء الكعبة ، كانت هناك أساطير كثيرة تقرر أن الملائكة أول من ساهوا ، وأحاديث أخرى تروى كيف ساهى آدم . وكان رأى العرب أن إبراهيم أول من ساهى ، وكادت آحد هذا الرأى لولا أنى وقعت حائرا أمام ما جاء في القرآن ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ﴾ إن إبراهيم يذكر البيت المحرم قبل أن يؤمر بإقامة القواعد من البيت .

قرأت تفسيرات كثيرة لهذه الآية ولكن قلبى لم يشرح لها ، فعودت للبحث والتنقيب حتى انتهيت إلى رأى أنار لى سبيلى واطمأن إليه عقلى . وجدت أن الصابئة يوقرون الكعبة ويعتقدون أن إدريس عليه السلام بناها وأنها بيت رجل أعلى الكواكب السيارة ، وأن للصابئة كتابا مقدسا يسمونه « ككرة » فرحت أبحث عن تاريخ إدريس .

ولد إدريس في مصف قبل نوح وقبل عصر الأسرات في مصر وكان صديقا نبيا : ﴿ وادكر في الكتاب إدريس إبه كان صديقا نبيا ﴾ .

وحدث إدريس قدماء المصريين عن الله الواحد وعن البعث بعد الموت وعن الثواب والعقاب والميراث ، وما جاء في عقائد المصريين من ( هاجر المصرية )

لمحات عن الله الواحد واعتقادهم في البعث بعد الموت والحياة الآخرة .  
وجمعت ما كتب عن إدريس فوجدت أنه أول من حط بالقلم ،  
وأول من حاط الثياب وليس المحيط ، وأول من نظر في علم السجوم  
والحساب ، وأول من علم الناس الزراعة . وذكرني ذلك بما كتب عن  
أرريس إله المصريين ، فرجعت إلى المراجع الفرعونية فإذا بها كلها تذكر  
أن أرريس كان ملكا في الأرض قبل عصر الأسرات ، وهو أول من علم  
الناس الكتابة ، وأول من علم الناس الزراعة ، وأول من لبس الثياب ،  
وأول من علم الناس الحساب ، وأول من عرف مواسم الفيضان وبذر  
الحبوب .

كان إدريس من صف و كان أرريس من صف ، وقد قام أرريس بكل  
ما قام به إدريس ، وبدأت أقتنع أن أرريس إن هو إلا إدريس وقد نسحت  
حوله الأساطير .

وبقيت مسألة علاقة أوزيريس بإيريس وحوريس . فعكست على  
دراسة هذه العلاقة فوجدت أن حورس ورد من اليمن ولم ينجبه أوزيريس .  
وإنما الأسطورة التي نسجها الكهنة هي التي جعلته أبا لحور .

جاء في كتاب « دراسات في تاريخ الشرق القديم » للدكتور أحمد  
فحري :

« ... ولكن من هو الإله حورس ؟ وما أصله ؟ الخواب على ذلك  
أن هذا الإله لم تكن له في الأصل أية صلة بعبادة الشمس وأنه كان رمزا  
اتخذته إحدى القبائل لمعبود لها على هيئة الصقر وأنه جاء مع الفناحيس ،  
وفي نصوص الأهرام ( وهي أقدم المراجع الدينية وأهمها ٢٥٠٠ —  
٢٢٥٠ ق . م ) يصفون هذا الإله تارة بكلمة « أختي » وتارة بكلمة

« أتني » و « أبت » معناها الشرق و « أخت » معناها أفق الشمس ، وكلا الكلمتين تشير إلى المشرق .

ورجعت إلى كتاب « فجر التاريخ » لبرستد فعرفت منه أن أرريس لم يكن له أية علاقة بعبادة الشمس ، وأن كهنته لما اشتد ساعدهم سبوا صفات الآلهة الآخرين ومنحوها له وجعلوه شريكا لرع « إله الشمس » .

كاست وظيفة أرريس محاكمة الموتى ، قاضى الموت ، بعد أن صار إليها وارتفع من الأرض إلى السماء ، وقد رفعت الأساطير إدريس إلى السماء تفسيرا لقول الله تعالى : « ورفعهام مكانا عليا » .

قد يقول قائل . إن كان إدريس هو أرريس وإن كان الصابئون يعتقدون أن إدريس هو أول من بسى الكمية ، فهل جاء في التاريخ أو في الأساطير أن أرريس ذهب إلى بلاد العرب ؟ وإن كان قد ذهب إليها فهل قدس القدماء المصريون هذا المكان ؟

ذكر المؤرخ ديودور انصقلي أن الإله أرريس أحد آلهة مصر ذهب إلى مدينة تدعى ( Nisa ) وهى من مدن العربية السعيدة ، فرأى فيها الكرم لأول مرة ، فتعلم منها زراعتها وشرب السيد ، وأنه ذهب إلى الحبشة فأقام هناك سدودا لخرن المياه وتنظيم السقى والارنواء ثم ذهب إلى بلاد العرب ومنها إلى الهد . وذكر الزعم القائل بوجود تمثال لأرريس في بلاد العرب .

وجاء في كتاب مصر والحياة المصرية في العصور القديمة للأستاذين أدولف أرمان وهرمان راتكه: وقد كان المقصود من «الأرض المقدسة» في الأصل الشرق فقط حيث كان يظهر الإله وهورع كل يوم ، وكان هذا

التعبير يدل أيضا في الحياة اليومية على الصحراء الحلبية بين النيل والبحر الأحمر وشبه جريرة سياء ، وكذلك على وجه التحقيق الجزء الشمالى والمتوسط من بلاد العرب .

ومن كل هذا قوى الاعتقاد عدى أن إدريس من ولد في منف وعلم المصريين الكتابة والزراعة وأول من بسى البيت المحرم هو أزريرس ، إمام شهداء السلف كما قال هيرودوت ، ومن أصح « دينوسيس » عند الإغريق .

فإذا ما نفصنا الأساطير التى نسجها الكهنة عن أزريرس وجدنا أن إدريس وأزريرس إن هما إلا شخص واحد ، وأرجو ألا يكون قد جانبى التوفيق في ذلك الاستقراء .

وقبل أن أختتم هذا التذييل أحب أن أدون ما طاف بذهنى عن الاستشراق والمستشرقين ، وعن أصحاب البعوث للكشف عن الآثار الذين يحاولون فك رموز لغات الشرق الأوسط بأبجدية لانيية تقصر عن أن تحمل محل كثير من حروف الأبجدية العربية كالضاد والقاف والحاء والحاء والعين .

لقد أدى هؤلاء المستشرقون وأصحاب البعوث للكشف عن الآثار أحل الخدمات للكشف عن تاريخ الشرق الأوسط أو على ما أطلق عليه برستد اسم « الهلال الخصيب » . وقد كان هدف هؤلاء العلماء إماطة اللثام عن وجه الحقيقة ، غير أن بعضهم كان صاحب هوى وكان يؤدى نفس الدور الذى لمه أبحار اليهود وكهانهم أيام كانوا يدنونون التاريخ الدينى لى إسرائيل ، فحاولوا أن يطمسوا كل ما قد يرفع القاب عن محمد العرب أو اخترعوا مصطلحات أضفوا عليها صبغة علمية

ليجرفوا أنظار العرب بعيدا عن ماضيهم التليد .

كانت حضارة بابل عربية وحضارة العموريين عربية وحضارة الكنعانيين عربية وحضارة سيناء عربية وحضارة ثمود عربية ، وقد اكتشفت هذه الحضارات وعرف أنها حضارات عربية خالصة ، ولكن بعض العلماء رأوا أن ينسبوا إلى جد أعلى حتى لا يلقوا الأضواء على مجد أقوام نافسوا بنى إسرائيل منذ أيام خليل الرحمن إبراهيم ، فأطلق العالم الألماني سلوبنسر في عام ١٧٨١ على هذه الحضارات العربية اسم السامية نسبة إلى سام بن نوح ، وصادف ذلك هوى في نفوس الآخرين فأخذوا يتحدثون عن الأقوام السامية والحضارات السامية منذ ذلك التاريخ ، وتبعهم في ذلك الكتاب العرب .

قلت إن الحروف الأبجدية اللاتينية تقصر عن أن تحمل محل كثير من حروف الأبجدية العربية وأضيف إلى ذلك أن الأعلام العربية كثيرا ما يصيبها التحريف حتى لشكاد أن تبعد كثيرا عن أصلها ، ولنضرب مثلا بما هو واقع في العصر الحديث ؛ يطلق أبو على حلب وكايرو أو لكير على القاهرة أو نحو ذلك في اللغات الأخرى غير الإنجليزية والفرنسية ، وإن من يقرأ اسم ابن سينا أو ابن رشد في اللغات الأجنبية ليحسبهما من علماء الألمان أو الفرنسيين .

ومن الأسف أننا نتابع هؤلاء الأجانب في تحريف أسماء الأعلام العربية ، فإذا ما تكلمنا بالإنجليزية قلنا أهيمد بدلا من أحمد ومهمد بدلا من محمد .

ولا شك أن بعض التحريف قد أصاب أسماء الأعلام العربية القديمة عندما فكت رموز تلك اللغات العربية بأحرف لاتينية ، وعلى سبيل المثال نتحدث بعض كتب التاريخ عن الأموريين وبعضها عن العموريين

حتى ليخال المرء أحيانا أن الأموريين شعب آخر غير العموريين ، وبعض الكتب تكتب اسم رب الأرباب في بابل مردوخ ، وبعضها يكتبها مردوك .

واعتقد أن وضع الحروف المتحركة في الأبجدية اللاتينية مكان الفتحة والضمة والكسرة ثم ترجمة هذه الكلمات إلى اللغة العربية ووضع حروف المد مكان الحركات قد أفسد الاهتداء إلى أصل هذه الكلمات العربية ، وسأسوق على سبيل المثال بعض الكلمات العربية التي كانت مستعملة في بابل وذكرتها في الجزء الأول كما كتبها علماء الآثار العرب الذين نقلوا الكلمات عن الحروف اللاتينية التي استخدمت في فك رموز الكتابة البابلية العربية : المسكينو .. العاميلو .. الحريماتو .. وإلى أتساءل لماذا لا يكون أصل هذه الكلمات : المسكين والعاملون والحریم وقد أفسدها وضع الحروف المتحركة في الأبجدية اللاتينية مكان الحركات في اللغة العربية ؟

وإني لأرجو وقد أصبح عندنا علماء أجلاء متخصصون في اللغات العربية القديمة أن يهجروا الترجمة والأخذ عن الأجانب الذين كان لهم فضل عظيم في الكشف عن آثار بابل وفلسطين وسورية وجزيرة العرب وعن اللغات العربية التي كانت سائدة في فجر التاريخ ، وأن يقوموا بفك الرموز البابلية والأشورية والشمودية والسريانية والآرامية والكتنانية بحروف عربية وحركات عربية ، واعتقد أننا لو فعلنا ذلك فسنصل إلى كشف جليل يستحق ما يبذل فيه من جهد وعرق ، وأنا على ثقة أننا فاعلون فإننا قادمون على عهد عظيم للعرب والعروبة ، وسنصل إن شاء الله مجد الحاضر بمجد الماضي التليد .

## المراجع

- القرآن الكريم  
 الكتاب المقدس  
 صحيح البخارى  
 السيرة النبوية  
 تاريخ الطبرى  
 تاريخ ابن خلدون  
 البداية والنهاية  
 أبو الأنبياء  
 تاريخ العرب قبل الإسلام  
 قصص الأنبياء ( العرائس )  
 دراسات فى تاريخ الشرق القديم  
 فجر التاريخ  
 جهرة نسب قریش وأخبارها  
 مصر والحياة المصرية فى العصور  
 القديمة  
 ترجمة الدكتور عبد المنعم أبو بكر  
 ومحرم كمال  
 الدكتور إسرائيل ولفنستون  
 الحافظ أبى الطيب تقى الدين محمد  
 ابن أحمد بن على الفاسى المكى  
 المالكى  
 للمسهودى  
 تاريخ اليهود فى جزيرة العرب  
 شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام  
 وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى

لابن هشام

لابن كثير

عباس محمود العقاد

الدكتور جواد على

للدكتور أحمد فخرى

لهنرى برستد

للزبير بن بكار

أدولف أرمان وهرمان راتكة —

ترجمة الدكتور عبد المنعم أبو بكر

ومحرم كمال

الدكتور إسرائيل ولفنستون

الحافظ أبى الطيب تقى الدين محمد

ابن أحمد بن على الفاسى المكى

المالكى

للمسهودى

# محمد رسول الله والذين معه

في ٢٠ جزءا

أكتوبر ١٩٦٥	١ — إبراهيم أبو الأنبياء
مارس ١٩٦٦	٢ — هاجر المصرية أم العرب
سبتمبر ١٩٦٦	٣ — بنو إسماعيل
فبراير ١٩٦٧	٤ — العدنانيون
مايو ١٩٦٧	٥ — قريش
يوليو ١٩٦٧	٦ — مولد الرسول
أكتوبر ١٩٦٧	٧ — اليتيم
يناير ١٩٦٨	٨ — خديجة بنت خويلد
مارس ١٩٦٨	٩ — دعوة إبراهيم
يونية ١٩٦٨	١٠ — عام الحزن
سبتمبر ١٩٦٨	١١ — الهجرة
نوفمبر ١٩٦٨	١٢ — غزوة بدر
يناير ١٩٦٩	١٣ — غزوة أحد
مايو ١٩٦٩	١٤ — غزوة الخندق
يونيه ١٩٦٩	١٥ — صلح الحديبية
نوفمبر ١٩٦٩	١٦ — فتح مكة
فبراير ١٩٧٠	١٧ — غزوة تبوك
مايو ١٩٧٠	١٨ — عام الوفود
نوفمبر ١٩٧٠	١٩ — حجة الوداع
ديسمبر ١٩٧٠	٢٠ — وفاة الرسول